



مطبوعات



قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعدة



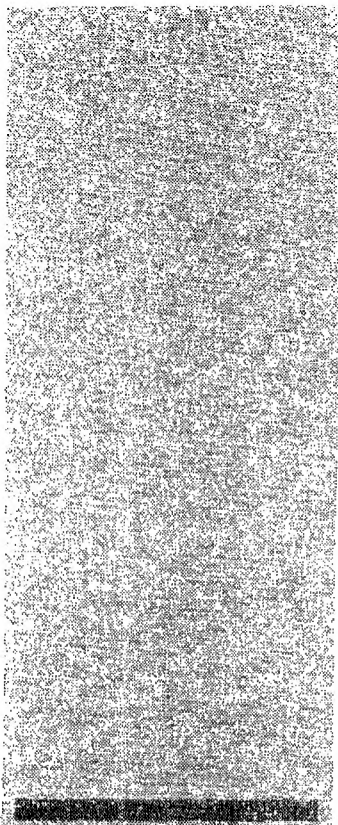
قطاع الصحافة

دار أخبار اليوم
قطاع الصحافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس ٥٧٩٠٩٣٠

إحسان عبد القدوس

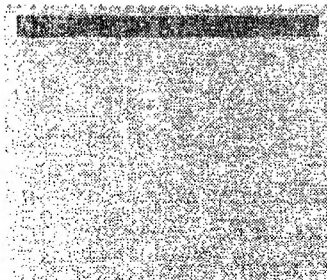
علبة من الصفيح

مجموعة قصص تصور
قطاعات مختلفة من
المجتمع، وتكشف خبايا
النفس البشرية، وتخلل
الواقع الإنساني



الغلاف بريشة الفنان :

عمرو فهمي



علبة من الصفيح الصدى ..

خرجت من القرية.

ولن أعود.

ولست حزينا.. ولا آسفا.. بالعكس.. إنى أحس

براحة غريبة، وأعصابى هادئة كما لم تهدأ من

قبل، وابتسامة كبيرة تنطلق فى صدرى، وتلقى بظلمها على

شفتى.. أحس بإحساس الأب الذى اكتشف فجأة أن ابنه قد

كبر وأصبح رجلا قويا.. والأب هو دائما آخر من يكتشف أن

ابنه قد أصبح رجلا.. رجلا لم يعد فى حاجة إلى أبيه!!

والواقع أنى لم أتعمد الخروج من القرية، ولم أكن قد

اتخذت قرارا بعدم العودة إليها إنما كل هذا حدث فجأة.

كنت جالسا فى المندرة مع شقيقى الأكبر عبدالرحمن،

ومعنا الشيخ حسنين مدرس المدرسة الإلزامية، ومحمد

أبوعوف، وعبدالله رضوان، وأحمد الرفاعى.. وكان أخى

عبدالرحمن يتصدر المجلس كعادته منذ وفاة أبى، مهيبا رزينا،

جالسا على الأريكة العتيقة، وقد طوى إحدى ساقيه تحته،

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

ورفع ساقه الأخرى وثناها، وألقى ذراعه على ركبته، وترك مسبحته تتدلى من يده، وقد تباعدت حباتها فوق الخيط الذي يربطها، فكلما ألقى حبة منها اصطدمت بالحبة التي تحتها في صوت مسموع.. وكانت تمضي الساعات ولا يصدر عن أخى صوت، إلا صوت حبات مسبحته وهى تصطدم بعضها ببعض.. فإذا توقف هذا الصوت، كان هذا إيذاناً بأن أخى يهم أن يتكلم، فيهدف الجالسون أسماعهم، ويمدون نحوه أعناقهم، فى تلهف واهتمام.. رغم أن أكثر ما يقوله أخى لا يستحق الاهتمام !!

وفجأة قال محمد أبو عوف :

— مش برضه نشوف طريقة تقوم بيها محامى للواد رزق. واهترزت أصابع أخى، وهى تعبت بمسبحته، وتسارعت دقات حباتها وهى تصطدم بعضها ببعض.

وقال الشيخ حسنين وهو يملأ شذقيه بحروف كلماته :

— رزق معتوه ومجنون، وهو معفى من المسئولية شرعا، سواء بمحام، أو بغير محام.

وقال أحمد الرفاعى :

— والله أنا لسه مش مصدق.. حد كان يفتكر أن الواد رزق يعمل العملة دى.

وقال عبدالله رضوان وصوته القوى ينضح بالسخط :

— احنا المحقوقين.. كنا ساييينه طايح فى الكفر كله واحنا عارفين أنه مجنون.

ورد محمد أبو عوف فى عصبية :

— يعنى حد كان عارف أن جنانه يوصل لحد كده.. ما هو طول عمره عايش فى الكفر، ما حدش شاف منه حاجة تخوف.

■ عليه من الصفيح الصدىء ■

وأحسست أنى لم أعد أستطيع أن أسمع مزيدا فى موضوع رزق.. منذ أسبوع والقرية كلها تتحدث عن رزق.. وما يقال يعاد.. وكل ما يقال كلام ساذج.. إن أحدا لن يفهم مشكلة رزق إلا أنا، وبرغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أشرح فهمى لها، لأن أحدا من أبناء القرية لن يفهمنى.

وأحسست أيضا أنى لم أعد أطيق سماع دقات حبات مسبحة أخى عبدالرحمن.. خيل إلى أنها دقات خطوات الفناء.. دقات قلب عالم يموت.. وأحسست بها تقع على أعصابى، وتدفعنى إلى التحدى.. تحدى الفناء.. تحدى العالم الذى يموت.. تحدى أخى.. وأنا حريص دائما على ألا أتحدى أخى.. فقممت فجأة من مجلسى، وتمتعت دون أن ألتفت إلى أحد :
- عن أذنكم.

وتوقفت دقات المسبحة، وشعرت بعينى أخى تتبعاننى إلى أن وصلت إلى الباب، ثم ارتفع صوته مهيبا رزينا يشقه خيط ساخر :

- على فين يا مأمون ؟

وأجبت وأنا ألتفت إليه لفظة سريعة دون أن ألتقى بعينه :

- داخل جوه شوية.

وقال محمد أبو عوف :

- ما تتأخرش يا سى مأمون.. عايزين نرسى على حل فى حكاية الواد رزق.
ولم أرد عليه.

خرجت من المندرة، ولكنى لم أتجه إلى داخل البيت.. خرجت من البيت كله، وسرت فى أزقة القرية، ورأسى منكس فوق صدرى، وعينائى على الأرض، اتتبع بهما أقدام الفلاحين الذين

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

يمرون بى.. الأقدام الحافية الكبيرة، السمراء المشققة.. وخيل إلى وأنا أتتبع هذه الأقدام وهى تتحرك، كأن الأرض نفسها تتحرك.. تسير.. تزحف.. وأسمع من حولى مهمات.. السلام عليكم.. العواف.. شى.. حا.. هع.. وأهمهم مع المهممين، وأنا أحس احساسا غريبا بأن هذه المهمة ليست سوى صوت احتكاك التروس التى تحرك قريتنا.. تروس بطيئة.. ولكن الحركة أكيدة.. واللون الأسمر.. لون الطين.. يملأ عيني المنكستين.. الأرض سمراء.. والجدران سمراء.. والأقدام سمراء.. وخيل لى أنى لو رفعت عيني فسأرى السماء سمراء.

وتوقفت عيناى عند قدمين.. قدمين صغيرتين، ولكنهما سمراوان أيضا، ومشقتان أيضا.. ورفعت عيني لالتقى بوجه «سبيلة»، وهو يطل على من تحت صفيحة الماء التى تحملها.. إنها دائما تحمل شيئا فوق رأسها.

ووقفت قبالتها أملا عيني منها.. عيناها المكحلتان.. شفتاها الرقيقتان الغامقتان.. ووجهها الهادىء الصبور، وقد اختلطت صفرتة بسمرتة.. وابتسامتها المهتزة الخجولة التى تحاول أن تخفف بها من نظرة استغاثة كبيرة تطل من عينيها.. إنى دائما أرى هذه النظرة فى عينيها.. نظرة الاستغاثة.. تستغيث بى.. منذ كنا أطفالا وهى تستغيث بى.. ولم أستطع أبدا إغايتها.. وبرغم ذلك فهى لم تفقد الأمل.. إنها لا تزال تستغيث بى.. ولم تصدق أبدا أنى أنا الآخر كنت أستغيث بها، وأنى كنت أكتم استغائتى فى صدرى.. وكلانا كان أضعف من أن يغيث الآخر.

وطالت وقفتى قبالتها برهة.. حاولت أن أقول شيئا.. ولكنى لم أقله.. واهتزت شفتاها كأنها هى الأخرى تحاول أن تقول شيئا.. ولم تقله.. وبقينا صامتين.. ابتسامتى اليائسة تلتقى

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

بابتسامتها المسكينة، ونظرتى المستسلمة تلتقى بنظرتها المستغيثة.. ثم اهتزت ذراعها التى تسند صفيحة الماء فوق رأسها، فانسكب خيط من الماء فوق جلبابها الأسود.. وارتعشت رموشها فى ارتباك، وانطلقت قطرات الخجل فى وجنتيها، وتمتمت ببضع كلمات لم تصل إلى أذنى، ثم استدارت وسارت فى طريقها.

وانتابنى شعور جارف بأنى لن أرى سبيلة بعد اليوم.. لا أدري لماذا، فلم أكن حتى هذه اللحظة قد قررت أن أترك القرية، ولا أعود.. ووجدت نفسى ألتفت وراءها وأنظر إلى قوامها المفرد نظرة طويلة حزينة.. نظرة وداع.. ثم انتبهت، وتلفت حولى كأنى خشيت أن يكون أحد قد ضبط نظرتى.. ثم عدت أنكس رأسى فوق صدرى، وأسير..

وتجاوزت فى سيرى أزقة القرية، وأخذت أسير على حافة المصرف.. عيناى منكستان على الأرض أتتبع بهما أقدام الفلاحين التى تمر بى.. ولم أرفع رأسى إلا عندما مررت بضريح أبى.

إن لأبى ضريحا كبيرا فى القرية.. مزار.. أقيم خارج منطقة المقابر، على حافة المصرف.. وله قبة خضراء، وفوق القبة هلال، وبجواره مصلى صغير فرش بالحصر.. وأهل القرية والقرى المجاورة يعتبرون أبى وليا من أولياء الله.. له كرامات.. كرامات سيدى محمد القماش.. وينذرون له النذور.. ويتمسحون بأعتابه.

وأبى لم يكن وليا من أولياء الله.. كان رجلا صالحا، طيبا، عنيدا.. ولكنه لم يكن أبدا وليا من أولياء الله.. وليس هناك أحد يؤمن بشخصية أبى ويقدرها حق قدرها، مثلى .. وليس هناك

■ عليه من الصفيح المصدى ٤٠ ■

أحد أحبه مثلما أحببته.. وبرغم ذلك فأنا الوحيد فى القرية كلها الذى لا يؤمن بأن أبى ولى من أولياء الله.. حتى أمى آمنت بأنه كان أحد أولياء الله، وأخذت تذيع فى القرية حكايات عن كراماته.. وهى ليست حكايات كاذبة، ولكنها أيضا ليست كرامات، إنما جهل أمى وسيطرة شخصية أبى عليها، صور لها هذه الوقائع التى كان بطلها أبى، كأنها كرامات.. وأخى استراح إلى اعتبار أبى من أولياء الله، وعاش فى ظل هذه الخرافة وحاول أن يستغلها، بل حاول أن يكون خليفته فى الولاية، فقلده فى تفاصيل حياته، وأصبح يدعى المهابة والرزانة مثله، ويمسك بمسبحته، ويرتدى عمامته، ويجلس جلسته.. وشارك أمى فى رواية الحكايات عن كرامات أبيه الشيخ محمد القماش.. ولكن حكايات أخى كانت كاذبة، مغالى فى كذبها، وكان هو أول من يعلم أنها كاذبة.. ومع مرور السنين.. وخلال اثنى عشر عاما فقط ضاعت شخصية أبى الحقيقية.. وضاعت القضية التى وقف حياته عليها والتى أكسبته حب واحترام الفلاحين، وأصبحت شخصيته شخصية وهمية خرافية.. شخصية رجل مشعوذ مجذوب.

ووقفت أنظر إلى ضريح أبى من بعيد.. ولم أقرأ له الفاتحة كما تعود أن يقرأها كل من يمر به.. ولكنى ابتسمت له.. ابتسمت له كأنى أواسيه فى مجنته، وفى شخصيته الحلوة القوية التى ضاعت وسط الخرافات التى بعثرت حوله.. ابتسمت له كأنى أشجعه على احتمال مصيره، فقد كنت دائما مقتنعا بأن أبى لا يمكن أن يكون مستريحا تحت هذه القبة الخضراء الكبيرة، ولا إلى صوت النساء وهن يتمسحن به ليتشفع لهن حتى يحملن ويلدن!

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

ثم تجاوزت ضريح أبى، وسرت على حافة المصرف، إلى أن التقيت ببدرى أبو خليل راكبا حماره، عائدا إلى القرية.. وما كاد بدرى يحيينى حتى قلت له كأنى أطلق أمنية ظلت حبيسة فى صدرى أمدا طويلا :

- أول ما توصل الكفر، فوت على أخويا عبدالرحمن، وقول له إنى نزلت مصر.

وفى هذه اللحظة فقط عرفت أنى قررت أن أترك القرية، وعرفت أيضا أنى لن أعود إليها.. ورفعت رأسى، وسرت فى خطى سريعة حازمة نحو محطة القطار.. وقد ارتاح صدرى واستقرت نفسى ووضع الطريق أمامى.

ولم أنتبه إلى أنى مرتد جلبابى الجوخ، وفوق رأسى الطاقية الصوف، إلا بعد أن أخذت مقعدى فى القطار.. وابتسمت.. وتخيلت ضحكة مرفت عندما ترانى فى الجلباب.. إن أحدا من أهل القاهرة لم يرنى أبدا مرتديا زى القرية.. بل إن كثيرين من أصدقائى فى القاهرة لا يعلمون أنى فلاح.. الذين يعلمون هم فقط الذين شاركونى فى أكل الفطير المشلتت الذى تعودت أمى أن ترسله إلى ..

ولكن صورة مرفت وصورة مجتمع القاهرة كله اختفت سريعا من خيالى. ونسيت أنى مازلت مرتديا الجلباب وفوق رأسى الطاقية.. وعدت أهيم فى قصتى مع القرية.. أو على الأصح، قصة القرية معى.



وقصة القرية معى تبدأ دائما بوجه سبيلة.. وسبيلة هى حبى الأول، وربما كانت حبى الوحيد، فكل ما صادفنى بعد ذلك من علاقات عاطفية لم يرتفع أبدا إلى مستوى العاطفة التى

■ علبه من الصفيح المصديء .. ■

ربطتني بسبيلة.. إنه حب تفتحت عليه عيناى وأحاسيسى، منذ تفتح وعيى للحياة.. حياتى لا تبدأ بوجه أمى، ولا بوجه أبى، ولا بوجه القرية كلها.. بل إنى أحس اليوم كلما همت مع ذكرياتى البعيدة، أحس كأنى لم أر وجه أمى ولا وجه أبى إلا بعد أن رأيت وجه سبيلة.. وربما كانت نوازع الاستقلال، ومحاولة بناء الحياة الفردية تبدأ مع الطفل منذ ولادته، وكانت سبيلة هى أول خطوة لى نحو الاستقلال بحياتى، أول احساس بشخصيتى فى الحياة.. ولذلك فحياتى تبدأ منذ الأيام التى كنت ألعب فيها مع سبيلة فوق أكوام السباح فى الساحة التى تقع أمام زريبة الدائرة.. دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وكنت أشترك معها فى تحميل السباح فوق ظهر الحمار، ونسير معا ومعنا الحمار إلى الغيط القريب، لنفرغ حمولة السباح.. ثم نعود معتلين ظهر الحمار.. هى فى المقدمة وأنا خلفها.. ولا أذكر فيم كنا نتكلم أيامها، ولا ماذا كان يضحكنا، وماذا كان يبكينا.. ولكننا لم نكن نفتعرق أبدا.. وكنت أعود إلى البيت لأواجه صرخة أمى وهى تنظر فى هلع إلى جلبابى المتسخ :

- يا واد أنت مش حاتبطل لعب فوق كوم السباح.

ولم أكن أستطيع أن أبتعد عن أكوام السباح، إلا إذا ابتعدت عن سبيلة، فأبوها يعمل كلافاً فى زريبة الدائرة، وهى تعمل معه.. إن أكوام السباح بالنسبة لنا ليست مرتع لهو، ولكنها مكان عمل.. ورغم أننا أيامها كنا نحس باللهو أكثر مما نحس بالعمل.

ولم تكن حقيقة أن أبا سبيلة هو مجرد كلاف فقير، وأنا ابن الشيخ القماش الذى يملك أربعين فدانا.. بل إنه المالك الوحيد فى القرية.. ولم تكن هذه الحقيقة تثير بيننا أى مشكلة..

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

لم تكن طفولتنا البريئة تستطيع أن تتبين الحبال الغليظة
الخشنة التي تزحف تحت أقدامنا وتلتف حول عمرينا كلما
كبرنا، لتشدنا أحدا بعيدا عن الآخر.

وإني أذكر يوما، عندما كنت في العاشرة من عمري، أن قلت
لسبيلة ونحن عائدان من الغيط فوق ظهر الحمار :

- بكره تكبرى يا سبيلة وأتجوزك وأضربك كل يوم علقه
زى عم مدبولى ما بيضرب مراته.

وقالت سبيلة وهى تدير رأسها إلى :

- ما أنا كبرت خلاص يا مأمون.. ده أنا أكبر من نفيسة
بننت عمى بسنتين.

وكانت سبيلة أيامها فى السابعة من عمرها.

وبعد أن أصبحت أنا فى السادسة عشرة، وأصبحت سبيلة
فى الثالثة عشرة.. عدنا نتحدث عن الزواج.. وكانت سبيلة
يومها جالسة بجانب القرن فى دارنا تساعد نساء البيت فى
الخبيز، وكنت أنتظرها فى الحوش المجاور.. ولما خرجت لحقت
بها، ووقفنا نتحدث، وهى ترخى عينيها عني، ولمسة حمراء
تسرى تحت بشرتها السمراء، وقلت ضاحكا :

- احنا مش كنا اتفقنا على الجواز يا بت.

وأجابت وهى تحنى رأسها :

- ودى تيجى.. إيش جاب لجاب.. ده أنا خدامتك يا سى
مأمون!

ويومها تنبعت لأول مرة إلى أن سبيلة تخاطبني بلقب
«سى».. سى مأمون.. ولقب «سى» ليس بسيطا.. ليس هينا..
إنه يمثل جدراننا عالية سوداء تفصل أهل القرية بعضهم عن
بعض .. جدراننا سوداء، اسمها «سى».. وجدراننا أخرى اسمها

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

« سعادة البية» .. وجدراننا الثالثة اسمها « سعادة الباشا» ..
وجدراننا رابعة اسمها «أفندينا» .. والغريب أنه كلما ارتفعت
الألقاب انخفضت الجدران .. فالجدار الذى يفصل بين «البيه»
و«الباشا»، أقل ارتفاعا من الجدار الذى يفصل بين «سى»
و«اللاسى» .. الجدار الذى يفصل بينى وبين سبيلة، جدار عال ..
عال جدا .. شاهق .. أعلى من الهرم .. أعلى من الجدار الذى
يفصل بينى وبين ابنة ناظر دائرة أفندينا.

ولكن .. من الذى علم سبيلة أن تنادىنى بلقب «سى» ..
لا أحد .. لا أنا طلبت منها أن تنادىنى «سى» .. ولا أبوها علمها
كيف تنطقها .. ولا أبى .. لا أحد .. ولكن عقلها تفتح فسمعت
الناس فى دنيها ينادوننى «سى» .. ووجدت البنات فى سنها
ومن طبقتهن يعتبرن أنفسهن خادمت لى .. ولأبى .. ولأمى ..
ولكل عائلتنا .. فاستسلمت فى هدوء، وانزوت مع أهلها تحت
الجدار الأسود العالى، ورددت فى خنوع « أنا خدامتك يا سى
مأمون»!

والغريب أنى لم أكتشف هذه الجدران العالية السوداء فى
عينى سبيلة وحدها .. ولكنى اكتشفتها فجأة أمام عينى أنا
أيضا .. فى صدرى .. أنا أيضا أقف خلف الجدار الأسود العالى،
وانزوى تحته .. أقف فى الناحية الأخرى التى لا تقف فيها
سبيلة .. بينى وبينها هذا الجدار .. ووجدت نفسى لا أحاول أن
اتخطاه .. لا أحاول أن أهديه .. إنما أستسلم له، كما استسلمت
له سبيلة من الناحية الأخرى .. وأحسست أن كل هذا الحب
الذى أحمله لسبيلة لا يكفى لهدم الجدار الأسود .. بل أحسست
أن الحب أيضا كان معترفا بهذا الجدار .. وأنه نشأ وتربى فى
ظله .. وإنى دون أن أتعهد، ودون أن أدري، كنت أسير دائما مع

■ علبه من الصفيح الصدى .. ■

سبيلة على ناحيتى الجدار الأسود.. وإن حديثى عن الزواج بها لم يكن حديثا يعبر فى صدق عن مستقبل أرسمه بل حديث أمنيات خيالية ليس له أثر فى واقعى النفسى.. كما أتحدث عن الجنة.. أو عن اعتلاى عرش مصر.. مجرد أمنية بعيدة تنطلق من عقدة اجتماعية لم أفكر يوما فى حلها.

وبرغم ذلك فقد مر بنا عمر لم تكن نرى فيه هذا الجدار.. عمر كنا خلاله نلعب معا فوق أكوام السباح، ونركب معا الحمار.. ولم تكن سبيلة تناديني بلقب «سى» ولا كانت تعتبر نفسها خادمتى.. كانت تعتبر نفسها حبيبتى وزوجتى.. عمر كنا فيه أطفالا.. وربما كان الأطفال هم وحدهم الذين يستطيعون اختراق هذه الجدران السوداء العالية.. لا.. إنهم لا يخترقونها.. إنهم يلعبون فوقها.. ونحن لم نعد نلعب.. لم نعد أطفالا.

وتركت يومها سبيلة، وأنا أحس بعاطفتى نحوها ثقيلة ولها طعم جديد.. ثقيلة ثقل اليأس، ولها طعم اليأس.. طعم مر.. وقضيت عمرى بعد ذلك أحاول أن أتعالى على هذه العاطفة.. حتى لا أصدم بهذه الجدران السوداء.. ولكنى كنت كلما أمعنت فى التعالى على عواطفى، أحسست بنفسى أهبط.. أنخفض.. أنزل فى الواطى.



ويومها خرجت أسير بين الحقول على حافة المصرف، أحمل فى صدرى هذا اليأس الثقيل.. إلى أن سمعت صوت رزق يناديني من تحت شجرة الجميز بصوته الذى تمرقه عامته :

- على فين يا مأمون.

واتجهت إليه جلست بجانبه صامتا.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

وتركنى رزق كعادته غارقاً فى الصمت دون أن يحاول أن ينقذنى منه.. ورزق لا يزال ينادينى باسمى مجرداً.. لا يضيف إليه لقب «سى».. ربما لأنه عبيط.. عبيط القرية.. عقله لم يكبر حتى يرى هذه الجدران السوداء العالية.

ورزق نشأ فلاحاً فقيراً يتيماً.. أكتع.. يسير وهو يرفع كتفه اليسرى، ويعرج على قدمه اليمنى، وفمه مفتوح فى بلاهة، يسيل منه لعابه بشكل منفر.. وأعتقد أهل القرية أن فى رزق «شئ لله».. وتركوه يتجول فى الأزقة يفعل ما يريد.. ويدخل أى بيت لياكل عندما يريد أن يأكل.. وينام عندما يريد أن ينام.. ولكنه كان يفضل دائماً أن يبقى تحت شجرة الجميز، خارج القرية، لا يقوم من تحتها إلا تحت اصرار معدته الخاوية.. وكان من حق رزق أن يقول أى كلام.. وأهل القرية يضحكون على كل كلام يقوله.. وكان دائماً - منذ كان طفلاً - يحمل تحت إبطه علبه من الصفيح.. علبه متأكلة، صدئة، قدرة، لم يكن أحد من أهل القرية يعلم ما بها.. ولم يكن رزق يسمح لأحد بأن يرى ما فى علبته أو حتى يلمسها.. وهى دائماً تحت إبطه.. يأكل وهى تحت إبطه، وينام وهى تحت إبطه، ويلعب وهى تحت إبطه.. أصبحت هذه العلبه قطعة منه.. وأهل القرية يتندرون عليها.. على العلبه.. ويحكون عنها الحكايات.. ويتوهمون أشياء كثيرة غريبة فى داخلها.. دون أن يستطيع أحد أن يرى ما فيها، ولا أن يلمسها.

أنا الوحيد الذى كان لى حق لمس علبه رزق.

أنا الوحيد الذى كنت أعلم ما بداخلها.

رزق هو الذى أعطانى حق لمس علبته، وهو الذى فتحها لى لأرى ما بداخلها.. فقد كنت صديقه الوحيد.. وقد تعودت عبطه

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

منذ طفولتى حتى لم أعد أعتبره عبيطا، بل كنت ألعب معه وأحدث، كما ألعب وأحدث مع بقية أطفال القرية.. وقد حدث وأنا فى العاشرة من عمرى، ورزق يكبرنى بحاولى عامين.. أن التف بعض الأطفال حوله وهم يصرخون «العبيط أهو.. أهو» وبدأوا يقذفونه بالحجارة.. ثم يقتربون منه ويصفعونه على قفاه.. وهو يجرى منهم بقدمه العرجاء، وكتفه الكتعاء، ويصرخ صرخات كصرخات الأخرس، ويرفع إحدى يديه فى الهواء ليحمى رأسه من الطوب.. ويده الأخرى تحتضن الصندوق الصفيح.. وجئت أنا ساعتها بالصدفة.. فاشتبكت مع الأطفال فى معركة دفاعا عن رزق.. ضربتهم.. ولكنهم ضربونى أيضا.. وأسالوا الدم من وجهى.. وبعد أن أنصرف المعتدون.. سرت إلى المصرف وانحنيت أغسل وجهى من دمائى، ورزق بجانبى ينظر إلى نظرات حب. حب لم أره فى عيني أى صديق حتى اليوم.. وفمه مفتوح يسيل منه لعابه.. ثم جذب العلبة الصفيح من تحت إبطه.. ومد يده بها إلى.. ولستها كائى أتبرك بها.

واتسعت الابتسامة البلهاء بين شفتيه.. ثم اقترب منى أكثر.. وتلفت حوله فى تردد وخوف، وعندما لم ير أحدا حولنا، فتح غطاء العلبة أمامى.. كأنه يفتح لى حياته كلها لشاركه فيها.

وكبرت.. وكبر رزق، وعاهته تكبر معه.. وكلما كبرت عاهته استأنستها أكثر.. أصبحت أحس بأن رزق ليس عبيطا.. كما يقول أهل القرية.. وليس متعابطا أيضا.. ولكن فى عبطه خيطا من النظرة المباشرة إلى الأعماق.. وجرأة عجيبة لا تتوافر فى أحد من أهل القرية.. جرأة تصل به إلى الصديق مباشرة دون

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

لف أو دوران.. جرأة العبيط.. ربما لم يكن عبيطاً إطلاقاً ولكنه فيلسوف رفيعته فلسفته فوق مستوى البشر فبدأ كالعبيط.. جريئاً، أمعن في جرأته إلى حد أن الناس لم تعد تصدق جرأته.. لابد أن هذه الجرأة هي أحد مظاهر العبيط.. ولا بد أنه عبيط.

وكان رزق هو الوحيد من أهل القرية، بل من أهل المديرية الذي يستطيع أن يسب سعادة كامل بك مرتضى، ناظر دائرة الأمير ولي الدين سامح.. ويسبه في وجهه.. وقد وقف أمامه مرة وهو بهم بركوب «الكرتة»، وصرخ :
- يا راجل بطل أكل العيال.. أحسن تطق تموت.. العيال لحمهم مسموم!

ورفع شيخ الخفر كفه الغليظة وهوى بها على قفا رزق.. وكنم بقية الفلاحين الذين سمعوه ابتساماتهم.. وما كاد سعادة البية الناظر يبتعد حتى انطلقوا يضحكون على عبط رزق.. ولكنى واثق أنهم بلا وعى منهم كانوا يحسون في أعماق ضحكاتهم بطعم مر.. طعم الصدق الذي نطق به رزق، فسعادة البية كان يأكل عيالهم فعلاً.. أرزاق عيالهم.. حتى أبى.. الشيخ محمد القماش، بكل جلاله وقاره، كان رزق يتجراً عليه ويصرخ في وجهه :

- أرفع رأسك يا شيخ.. اتق الله واوع تسود ذنك البيضة.. اتق الله.. اتق الله.. أوع ذنك البيضة تسود.

ولم يكن أبى يضحك لكلمات رزق، بل كان يطأطأ رأسه كأنه يفكر فيها.. أو كأنه يخاف أن يضع عينيه في عيني رزق. وكان رزق يمر برجال القرية وهم متجمعون حول المصاطب في المساء، فيقول محيياً :

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

- العواف يا نسوان.

وأحياناً أخرى يمر بهم فيقول :

- مساء الخير يا رجالة.

ولم يكن أحد منهم يدرى متى يحييهم رزق تحية «النسوان» ولا متى يحييهم تحية «الرجال» فهم يضحكون دائماً كلما مر بهم، وكلما قرأ عليهم التحية.. ولكنى كنت واثقاً بأن كلا منهم كان يحس أنه تصرف فى يومه تصرف النسوان، عندما يحييه رزق بتحية النسوان.. وتصرف تصرف الرجال عندما يحييه رزق بتحية الرجال. وكان رزق فى نظرى - برغم عبطه - هو أكثر الناس فهما لمشكلة قريتنا.

ومشكلة قريتنا كانت فى وجودها ضمن دائرة الأمير ولى الدين سامح.. وقد كانت حدود دائرة الأمير فى الماضى، تقف خارج حدود المركز.. ولكنها بدأت تمتد، وتتسع.. فكان كامل بك مرتضى يشتري الأرض من أصحابها ويضمها إلى أملاك الدائرة.. حتى اشترى كل الأراضى المحيطة بقريتنا.. والناس تبيع إما عن حاجة للبيع، أو تحت ضغط التهديد والإرهاب ومضايقات الجهات الرسمية.. ثم بدأ كامل بك مرتضى يزحف على زمام قريتنا.. وكان فيها خمسة ملاك سقطوا بسرعة الواحد بعد الآخر.. لم يبق منهم سوى أبى.. الشيخ محمد القماش.. والأربعين فدانا التى يملكها.

ووقف أبى فى عناد يرفض أن يبيع أرضه.

وفشل كامل مرتضى فى إغرائه بالمال.. لقد عرض عليه فى الفدان الواحد، ألف جنيه.. ولكن أبى ظل على عناده. واشتعلت الحرب بينهما.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

كل ما يمكن أن يفعله كامل مرتضى، فعله.. سرق منا البهائم، وكان كل من فى القرية يعلم أن رجال الدائرة هم الذين سرقوها.. وسلط علينا بنك التسليف.. و.. وفعل الكثير.. ولكن أبى ظل صامدا فى قسوة.. وكان يستمد قوته من أهل القرية أنفسهم.. فقد كانوا يؤمنون به.. يؤمنون به كعالم وفقه فى الدين.. ويؤمنون به كزعيم.. ويؤمنون به كولى من أولياء الله الصالحين.. وكانوا يلجأون إليه فى أخص شئونهم.. حتى المرأة التى يمتنع زوجها عن معاشرتها كانت تلجأ إليه.. ولم يكن هذا الإيمان عن خداع، أو عن بله، فقد كان أبى يحب أهل قريته فعلا، ويتعصب لهم، وقد عاش فى القرية طول عمره، لا يغيب عنها إلا يوما أو يومين كل عام يذهب خلالهما إلى المركز أو إلى القاهرة.. ثم يعود إلى القرية، لينحنى كل أهلها - رجالها ونسائها وأطفالها - يقبلون يده.. وقد زادهم موقفه من ناظر الدائرة وتحديه له، إيمانا به.. وبيته مفتوح لهم جميعا.. لكل أهل القرية.. وفى كل مساء كانت توضع صوانى العشاء فى القاعة الكبرى، ويلتف حولها كل من يريد من أهل القرية.. عشرون.. ثلاثون.. أربعون.. وقبل أن توضع أطباق الطعام فوق الصوانى، كان أبى يدخل إلى القاعة بقامته المهيبة، وذقنه الناصعة البيضاء، وفى يده عود صغير من الحطب ويدور بين الجالسين، ثم يلمس كتف أحدهم بعود الحطب، ويقول فى صوت وقور هادئ :

- قوم أنت روح يا أبو اسماعيل.

ويحنى أبو اسماعيل رأسه ويقوم يجرى خارج القاعة متعثرا فى جلبابه وعيناه ساقطتان بين قدميه.
ثم يلمس أبى كتفا آخر بعود الحطب :

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

- روح يا واد يا شحاتة.

ويخرج أبى من بين الجالسين خمسة أو ستة، وأحيانا لا يخرج أحدا، ثم يتصدر القاعة، ويأكل مع أهله.. أهل قريته. وكان كل من فى القرية يخشى لمسة عود الحطب الذى يحمله الشيخ محمد القماش، أكثر مما يخشى حبل المشنقة.. فقد كانت هذه اللمسة تعنى غضب الله.. فالشيخ القماش ولى من أولياء الله، فإذا طرد أحدا من بيته، فقد طرد من بيت الله.. من جنة الله.. وحق عليه العذاب المقيم.. وكان هذا هو اعتقاد أهل القرية فعلا.. وكانوا يجلسون حول صوانى العشاء قبل أن يدخل أبى، وهم يرتعشون، كل منهم ينتظر حكم الله ويخشى غضبه ونقمته.. ولكن الواقع أن أبى لم يكن يتصرف هذا التصرف إيمانا منه بأنه فعلا ولى من أولياء الله.. ولا افتعالا لصورة من صور الشعوذة التى قد تجوز على عقول الفلاحين، ولكنه كان يطرد من بيته كل من يعلم أنه باع نفسه للدائرة وأصبح عميلا لها ينقل إليها الأخبار، ويشترك فى مؤامراتها، ولم يجد عقابا لمثل هذا الإنسان أخف من أن يحرمه من الأكل على مائدته.. ولم يكن أبى يهمله أن يبيع الفلاح عمله للدائرة، فالفلاح يجب أن يعمل مهما بخس أجره، وما دامت الدائرة هى التى تملك كل الأرض فهو مضطر أن يعمل لها.. ولكن هناك فرقا بين أن يبيع الإنسان عمله، وأن يبيع نفسه.. ولم يكن أبى يعاقب إلا من يبيع نفسه.. وهو عقاب لم تكن قيمته الحرمان من الطعام، فالطعام الذى كنا نقدمه لم يكن دسما، ولم نكن أغنياء إلى حد أن نقدم طعاما دسما لكل هؤلاء الناس كل ليلة.. ولا كان العقاب يقصد به أبى أن ينزل غضب الله على أحد، ولكنه كان عقابا أدبيا، فكل من كان يطرد من بيت القماش، كان

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

يزدري من أهل القرية جميعا.. وكثيرون منهم كانوا لا يطيقون هذا العقاب طويلا. فيعودون إلى بيتنا بعد أسبوع أو أسبوعين بعد أن يتطهروا ويستردوا نفوسهم.. وكان أبى يحس بمن تظهر منهم فيفسح له مكانا واسعا حول صوان العشاء.. والذين لا يتطهرون كانوا غالبا ما يرحلون من القرية إلى إحدى القرى الأخرى التى تقع فى أملاك الدائرة.

كانت هذه هى قوة أبى.

وقد حدث يوما أن أمر كامل بك مرتضى رجاله بقطع المياه عن أرضنا.. وأمر بتشغيل مكينات الري التى تملكها الدائرة ليل نهار حتى تشفط كل المياه قبل أن تصل إلينا.. وكانت هذه المياه تلقى فى أرض ليست فى حاجة إليها.. بل كانت تقصد الأرض التى تلقى فيها.. إلى هذا الحد بلغ العناد.

وفى المساء خرج رجال القرية صامتين، وكل منهم يحمل طنбора أو جردل شادوف.. جمعوا كل طنابير القرية، وسرقوا بعضهم من مخازن الدائرة.. ثم تسلل بعضهم إلى أرض الدائرة، وغطسوا فى التربة ونزعوا منها مواسير مكينات الري.. ثم ألقى الرجال بالطنابير والشواذيف فى مياه «الجنابية» التى تدفقت فيها المياه، وبدءوا يعملون.. أكثر من عشرين طنбора وعشرين شادوفا.. عملوا طول الليل.

وفى الصباح، كانت أرضنا كلها قد ارتوت.

وكان الرجال قد رفعوا الطنابير وجراذل الشواذيف، وأعادوا مواسير المكينات إلى مكانها.

و.. وجن كامل مرتضى.

وعاد كامل مرتضى وأصدر أمرا بأن كل من يعمل من الفلاحين فى أرض الشيخ القماش، لا يعمل فى أراضي

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

الدائرة.. وأصبح يسلط عليهم رجال المركز.. ولم نياس..
أصبح الرجال يعملون فى أرضنا بالليل.. دون أن يدري أحد.
حوادث كثيرة.

وأخى عبدالرحمن يحمل بندقيته ومعه أثنان من رجالنا،
يطوفون طول الليل حول الأرض، وزريبة البهائم، والمخزن،
ليصدوا اعتداءات رجال الدائرة.
وبرغم ذلك.
برغم كل ذلك.

لم يكن أبى ثائرا على الأمير.. الأمير ولى الدين سامح..
كان ثائرا على كامل بك مرتضى وحده.. وكان يؤمن بأن
لو انزاح كامل بك مرتضى من منصبه، فستصلح الأمور.. بل
كان أبى يكتب كثيرا من العرائض والاسترحامات إلى الأمير
يشكو له ظلم ناظر الدائرة، ويطلب بعزله.. بل إن أبى حاول
أكثر من مرة أن يتفاوض مع كامل بك مرتضى وذهب إليه فى
السراى بنفسه أكثر من مرة.
وفى آخر مرة ذهب معه.

ذهبنا إلى سراى الأمير التى تقع فيها مكاتب الدائرة.
وجلست بجانب أبى على دكة خشبية بجوار باب مكتب
كامل بك مرتضى.. جلسنا طويلا.. من الساعة العاشرة صباحا
حتى الثانية بعد الظهر.. لم يقدم خلالها فنجان قهوة إلى أبى..
ولا أهتم به أحد.. ثم فجأة فتح باب المكتب وخرج كامل
مرتضى، منفوشا، سميئا، له كرش ضخمة، ووجهه لون
طربوشه الطويل المعوج فوق رأسه، ووقف أمام أبى ينظر إليه
فى قرف، وقد هم أبى واقفا أمامه.. وقال كامل مرتضى فى
عجرفة تنطلق من أنفه كالصفير :

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

- نعم.. أفندم.
وقال أبى فى دعة :
- أنا قلت يمكن سعادتك مش عارف اللي بيحصل آيه،
أصل..
وقاطعه كامل مرتضى صارخا :
- أنا عارف كل حاجة.. اسمع يا راجل يا دجال أنت، إذا
ما كنتش حتبطل نمردة، وتمشى زى الجزمة القديمة، أنا
حاوديك فى داهية، حاحط ذقنك فى الطين.. فاهم.
وارتعش أبى فى غضب، وقال فى صوت يحاول جهده ألا
يكون صارخا :
- أنت ما تقدرش تعمل حاجة.. فيه اللي أكبر منك.. واللى
أكبر من اللي أكبر منك.
وصرخ كامل مرتضى :
- أنت بترد على يا راجل يا دجال.
ثم رفع كفه وهوى بها على صدغ أبى.
ووجدت نفسى أهجم على كامل مرتضى أضربه بيدي فى
كرشه، وأضربه بقدمى فى ساقه.
وكامل مرتضى يصرخ :
- امش اطلع بره.. خدوا الراجل ده بره.
وأبى حنى رأسه صامتا.
وجذبنا رجال الدائرة إلى الخارج.
وظل أبى صامتا، وأنا صامت بجانبه أقاوم دموعى بكل
إرادتى، وما كدنا نقرب من القرية، حتى تركته، وجريت إلى
شجرة الجميز، وألقيت بنفسى تحتها.. دفنت رأسي فى
ترابها.. وبكيت.. وبكيت كثيرا.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

وعندما انتهت كل دموعي، ورفعت رأسي، وجدت رزق جالسا بجانبى ينظر إلى بعينين حزينتين، وفمه مفتوح إلى آخره يسيل منه لعابه.. وقلت وأنا مازلت أنهنه بالبكاء :
- ضربوا الشيخ القماش يا رزق.. الراجل ضرب أبويا..
ضربه قدامى.

وأحسست بأسياخ حادة من الكراهية تنطلق ساعتها فى صدرى.. الكراهية والحقد.. الحقد على كامل مرتضى.. وعلى الأمير.. وعلى الملك.. وعلى الدنيا كلها.
ورزق ينظر إلى صامتا.

ثم لمعت عيناه فجأة.. انزاحت منهما النظرة الحزينة، وحلت محلها نظرة مرحة ضاحكة.. ثم أخرج من عب جلاببه الممزق القدر، حبة جوافة، وقال فى بلاهة :
- خد دى.

ولا أدري لماذا نظرت إلى رزق ساعتها كأنه منقذى الوحيد.
وأخذت منه حبة الجوافة صامتا، وفى عيني تساؤل، كأنى أسأله عن الطريق.

وبعد يومين.

يومين فقط.

استيقظت القرية كلها على لهب حريق كبير، يشتعل هناك.. بعيدا.. فى زراعة الدائرة.. وخرج الناس كلهم إلى أطراف القرية يراقبون السنة النار وهى تلتهم فى سرعة وجنون أعواد القمح الصفراء التى كانت على وشك الحصاد.. وألفت أبحث بين الناس عن رزق.. ولكن رزق لم يكن بين الناس.. ولم يهتم أحد غيرى بالبحث عنه.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

واستمر الحريق يوما وليلة.. والتهم أكثر من مائة فدان
قمح، فقد كانت الأعواد جافة والرياح هائجة.
وجن كامل مرتضى.
وجن الأمير في القاهرة.
وجنت وزارة الداخلية، والمدير، والمأمور، والضابط،
والعمدة، وشيخ الخفر.
ودار تحقيق قاس سريع.
وكان يمكن أن يقبض على أبي.. ولكن أبي كان قد سافر
منذ يومين إلى القاهرة ليحاول أن يقابل الأمير ليشكو له كامل
مرتضى، وثبت أنه قضى هذين اليومين على باب الأمير.
لم تثبت التهمة على أحد.
حجزوا العشرات في المركز، ولم تثبت التهمة على أحد.
ولم يكن أحد يعلم من أشعل الحريق.. أبي كان صادقا وهو
يقسم أنه لا يعلم من الجاني.. وكل الناس لا يعلمون.
أنا وحدي الذي كنت أعلم.
إنه رزق.
وذهبت ليلة الحريق أبحث عن رزق في كل بيت من بيوت
القرية، فلم أجده.. وذهبت إلى شجرة الجميز وانتظرته تحتها..
انتظرته طويلا.. وعند الفجر رأيته قادما من بعيد يعرج على
ساقه اليمنى، ويرفع كتفه الكتعاء، وصندوقه الصفيح تحت
أبطه.. وما كاد يقترب حتى لمحت عينيه متسعيتين اتساعا غريبا،
تطلان من خلال الطين الذي يكسو وجهه وتلمعان لمعة
الجنون، وصرخ بمجرد أن رأيته :
- شفت النار يا مأمون.. النار.. النار.. النار أكبر من كرش
كامل مرتضى.. أكبر.

■ عليه من الصفيح الصدى ■

وجلس بجانبى تحت الشجرة.
 وقلت له مبتسما كأنى أستدرجه :
 - كنت فين يا رزق ؟
 ونظر إلى بعينيه المجنونتين، ثم قال بصوته المحشرج الذى
 يتعثر فى عاهته :
 - النار يا مأمون.. النار.. النار..
 ثم مدد جسده على الأرض، وألقى رأسه على ساقى، ونام..
 كالطفل البرىء.. وفمه لا يزال مفتوحا ولعابه يسيل.. وعلبته
 الصفيح الصدئة فى يده يضغط عليها بكل أصابعه.
 وركزت عيني فوق العلبة الصفيح.
 إنى أعلم ما فيها.
 أنا الوحيد فى القرية كلها الذى يعلم ما فى العلبة الصفيح
 الصدئة.

وقد حفظت سر رزق.
 ومع الأيام حفظ التحقيق فى حادث الحريق، وأضيف إلى
 رصيد كرامات أبى كرامة جديدة، فقد انتشرت بين الفلاحين
 قصة تقول إن الشيخ القماش ذهب وهو فى القاهرة إلى
 ضريح الحسين، وأشعل عودا من الثقاب وألقاه فى الهواء،
 فسقط العود مشتعلا فى بلدنا وأحرق قمح الدائرة.



وزوجوا «سبيلة» وهى فى الرابعة عشرة من عمرها..
 زوجها إلى كلاف كأبيها يعمل فى زرائب الدائرة.
 واستسلمت لزواجها.. حاولت قدر طاقتى أن أقنع نفسى
 بأن الأمر لا يهمنى.. تجمدت.. وازددت انطواء تحت الجدار
 الأسود العالى الذى يفصل بينى وبينها.. وأصبحت أتعلم أن

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

أتجنبها.. ألا ألتقى بها.. كأنى كنت أخشى لو واجهتها أن ينهار
الجدار العالى.. كأنى فى دخيلة نفسى كنت حريصا على
الإبقاء على هذا الجدار العالى أكثر من حرصى على الإبقاء على
حبى.

ولكننا التقينا.. فى صباح يوم زواجها.. التقينا فى حوش
دارنا.. ووقفت أمامى صامئة، تنظر إلى بعينها المستغيثتين..
وكانت استغاثتهما فى هذا اليوم أكبر وأعنف.. استغاثت
كالصراخ.. ولم أستطع أن أواجه نظرتها طويلا.. ماذا أستطيع
أن أفعل.. كيف أغيتها وأغيت نفسى.. لا شيء أستطيعه.. هذه
الجدر العالية قائمة، وستظل قائمة.. إنها أقوى منى ومنها..
ومن القرية كلها.. ومن مصر كلها.. ومن العالم أجمع..
وتمتت :

- حاتتجوزى الليلة يابت.
وأكدت على كلمة «بت» كأنى أصلب الجدار العالى الذى
يقف بينى وبينها.

ولم ترد على .. ظلت تنظر إلى بعينها المستغيثتين.
وعدت أتمم :

- والله كبرتى واتجوزتى يا سبيلة.. مبروك..
ولم ترد على أيضا.. وسحبت عينيها المستغيثتين وجرت
من أمامى، قبل أن أرى دموعها.

وأصبحت لا أطيق حياتى فى القرية.
بدأت أشعر بطاقة ثورية هائلة تتللمل فى صدرى، وتهدر
كأنها بركان على وشك الانفجار.. لم يعد شيء يرضينى،
ولا شيء يكفينى.. وهذا الشعب الصغير الذى يحيط به -
شعب القرية - أصبح يمثل حدودا ضيقة تلتف حولى كقضبان

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

السجن.. وعناد أبى وصلابته لم يعد يكفى لإقناعى.. إنى اتطلع إلى حدود أوسع.. إلى معركة أكبر.. وفترات طويلة من الزهق، والملل تنهشنى .

إلى أن نلت الشهادة التوجيهية ، والتحت بكلية التجارة ، وانتقلت إلى القاهرة لأقيم فى شقة صغيرة استأجرها لى أبى فى حى المنيرة.

وخلال الأسابيع الأولى من إقامتى فى القاهرة التقيت بعبد الحميد أبو الذهب.. طالب فى كلية الحقوق.. يكبرنى بثلاثة أعوام.. من عندنا.. من الدقهلية.. وهو جاد فى مظهره.. تبرق عيناه الضيقتان وسط وجهه الأبيض، وشفاته الرفيعتان مزومتان دائما كأنه يخفى خلفهما قنبلة، وأنفه الكبير مشفوط دائما كأنه يضيق بالهواء الذى يتنفسه وشعرات قد سقطت عن رأسه كأنها احترقت بنار فكره.. وبرغم مظهره الجاد فلم يكن عبد الحميد متزمتا لا ثقيل الظل، بل كان يبدو أحيانا مرحا، وكان يشارك زملاءه فى لهوهم وفى لعب البوكر والكونكان والكومى.. وكانت له قدرة عجيبة على اكتساب قلوب الناس.. وهو لم يكتسب قلبى فحسب، بل كسب اقتناعى.. وعلمنى.. علمنى الثورة.. وربما كان أول ما تعلمته منه هو أن كل هذه المظاهر السياسية والاجتماعية التى تحيط بى، ليست ظواهر طبيعية.. ليست حقائق علمية كدوران الأرض، وشروق الشمس.. ولكن الذى يصنع الحياة السياسية والاجتماعية هو الإنسان.. وهى تتشكل حسب قيمة الإنسان فى بلده.. حسب قدرته.. وحسب حاجته.. حسب ضعفه أو قوته.. واقتنعت.. اقتنعت بأن الملك ليس جالسا على عرشه لأن الطبيعة أرادت له أن يجلس عليه.. وهذه الأحزاب ليست كواكب نثرها الله فى

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

السماء.. وهذه الشخصيات الزعامية التي كانت تملؤنى رهبة وأنا أردد اسمها فى القرية، ليست شخصيات أنبياء، ولا رسل، ولا عباقرة، إنها مجرد ناس.. وكل شىء يمكن تغييره.. أسهل مما تغير فردة الحذاء.

وبدأت تجتاحنى شهوة عارمة للتغيير.. تغيير كل شىء.. حتى التقاليد الاجتماعية التى عشت حريصا عليها طول عمرى، يجب أن تتغير.. والسخط يستبد بى.. سخط عنيف يعذبنى.. يحرقنى.. وينطلق كالسنة النار ليحرق كل من حولى.. وكفرت بكل شىء.. كفر فيه مقت، وفيه كراهية، وفيه ازدراء.. لم أعد أومن بشىء إلا بمعان مجردة، ليس لها شكل، وليس لها مقر.. الحرية.. العدالة.. الشعب.. التقدم.. و.. و.. وأسير دائما خلف عبد الحميد.. يأخذنى معه إلى اجتماعات الثوار.. وأشارك معه فى تدبير المظاهرات، وطبع المنشورات وتوزيعها، وتدبير عمليات التخريب.. وكنت عنيفا حادا، واكتسبت اسما كبيرا بين ثوار الطلبة، وقبض على أكثر من مرة.. ويفرج عنى لأعود أكثر عنفا وحدة، ومجال ثورتى يتسع أمامى.. إنه يتسع ليشمل مصر كلها.. ولكنى مازلت أحس فى قرارة نفسى بأن كل هذه الثورة تنطلق من قرىتى.. وأن أساس كل التغييرات التى أسعى إليها هو تغيير ما يجرى فى قرىتى.. أن أعزل كامل مرتضى.. وأن أذل الأمير ولى الدين سامح.. وأن أهدم أملاك الدائرة التى تحاول أن تمتد لتبتلع الأربعين فدانا التى نملكها.



وجاءت أمى لتزورنى فى القاهرة تحمل أسبطة الفطير المشلتت، والزبد والقشطة، والعسل، وقفص الفراخ والبط، وتجر وراءها سبيلة.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

نعم، سبيلة.

حبيبتي سبيلة.

ونظرت إلى سبيلة فى هلع.. كنت أعلم لماذا جاءت بها أمى إلى.. فقد جرت التقاليد فى طبقتنا - طبقة أعيان الريف - عندما ترسل أحد أولادها إلى القاهرة ليتعلم، أن ترسل معه امرأة من الفلاحات.. قد تكون مطلقة، أو قد تكون زوجة.. ولا تكون أبدا بكرا.. لتخدمه، ولتشبع شبابه حماية له من نساء المدينة.. إنها تقاليد يقرها الآباء والأمهات ويقرها الفلاحون.. تقاليد، حتى لو كانت فى حقيقتها نوعا من الدعارة السرية.

وحاولت أن أجادل أمى :

- ليه يا أمه جيت معاك سبيلة.

ونظرت إلى أمى وقد شق وجهها الطيب ابتسامة خبيثة :

- أهى يا بنى تخدمك بدل ما تحتاج لحد من بتوع مصر..

دى بنت زى الجن.

قلت :

- بس دى مسئولية.. وأنا طول النهار برة البيت.. وأخاف

أسيبها لوحدها .

وقالت أمى وذكأؤها الطيب المسكين يلمع فى عينيها،

وابتسامتها الخبيثة تتسع :

- ما تخافش.. أنا ضمناها.. يعنى مش عارف سبيلة.

وعبثا حاولت إقناعها.

وقد عادت أمى إلى القرية بعد أيام، ورفضت بإصرار أن

تأخذ معها سبيلة.. تركتها لى.

وقضيت الليلة الأولى أتقلب فى فراشى.. عروقى تتمزق..

ضلوعى تنطبق على صدرى.. أكاد لا أستطيع أن ألتقط

■ عليه من الصفيح الصدىء ■

أنفاسى.. وسبيلة راقدة فى المطبخ، على البلاط.. هل يمكن أن
أدعوها إلى فراشى.. هل يمكن أن ينقلب كل هذا الحب الذى
عشت فيه عمرى كله، إلى مجرد امرأة فى الفراش.
وقمت من فراشى وخرجت من الغرفة.. لا أدري لماذا.. ربما
أقنعت نفسى بأنى فى حاجة إلى كوب ماء.. وما كدت أفتح
غرفتى حتى وجدت سبيلة مكومة على الأرض بجانب الباب..
ورفعت إلى وجهها الذى يختلط فيه لون الأرض بلون المرض،
وفى عينيها هذه النظرة المستغيثة.

إنها تعلم لماذا جاءوا بها إلى.

إنها تعرف دورها، وقد ارتضته، كالقدر.

ووجدت نفسى أصرخ فيها وأنا أرتعش :

- قاعدة هنا ليه با بت.

وقالت وهى تهب واقفة وتقف مرتعشة كرعشتى :

- يمكن تكون عايز حاجة يا سى مأمون.

ودون أن أدري، رفعت يدى وهويت على صدغها.. ثم أنهلت

عليها ضربا.. لم أكن أضربها.. كنت أضرب هذه التقاليد..

أضرب هذا الذل.. أضرب نفسى.. وأضرب حبنى.. وأنا أصرخ :

- اوعى تانى مرة تخرجى من المطبخ من غير ما قولك..

انجبرى قدامى.

وجرت من أمامى مذعورة.

ومضت ثلاث ليال وأنا أتعذب.

أتعذب بثورتى.

وأتعذب بشبابى.

وأتعذب بحبنى.

وأتعذب بهذه التقاليد.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

ثم لم أعد أطيع.. استيقظت فى الصباح، وصرخت فيها :
- لى هدمك يا بت.

ثم أخذتها وهى مستسلمة ودموعها تنبثق من عينيها
المستغيثتين، وعدت بها إلى القرية.. ركبت معها القطار حتى
محطة المركز، ثم تركتها تسير وحدها إلى الكفر وهى تتعثر
وتنتفض كالعصفور اللبل المكسور الجناح.. ولم أدخل أنا
القرية.. انتظرت فى محطة المركز حتى ركبت القطار الذى عاد
إلى القاهرة.

● ● ●

ومرت سنوات.

سنوات عنيفة.. وثورتي تزداد حدة وتهورا.. لم أعد أرى
شيئا إلا بريق الثورة.. ولم أعد أريد شيئا إلا أن تشد عاصفة
الثورة حتى تقتلع كل الأشجار، وكل البيوت وكل الجذور..
ودخلت السجن مرة أخرى.. وفى هذه المرة علم أبى، فجاء إلى
القاهرة ليتوسط حتى يفرج عني.. يتوسط لدى من.. لدى
الأمير ولى الدين سامح.. وقد أفرج عني فعلا، ولا أدرى هل
أفرج عني بفضل وساطة الأمير، أو لأن الحكومة رأت الإفراج
عني بلا وساطة.. لا أدرى.. ولكنى أحسست بدمائى كلها
تنزف من أعصابى عندما علمت أن أبى كان يتوسط لى لدى
الأمير.. إنه لا يعلم أن ثورتي ثورة على الأمير.. إنه لا يعلم أنى
سأسير إلى آخر الطريق حتى أحطم هذا الأمير، وكل الأمراء..
سواء سجنتم أو شفت.. ومن هذا اليوم تعودت أن أحتفظ فى
البيت بمجموعة من الخطابات كتبتها مقدما إلى أبى، حتى إذا
سجنتم مرة أخرى تولى أحد أصدقائى إرسالها إليه الواحد بعد
الأخر، فيطمئن إلى أنى خارج السجن.

■ ٣٣ ■ عليه من الصفيح

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

وأذكر أيامها أن أبى سألنى بعد أن أفرج عنى، وهو جالس
فى شقتى بالمنيرة، ومسبحته بين يديه، والوقار والهيبة
يكسوان وجهه، ولحيته البيضاء تشع نورا :
- أوعى يا بنى تكون شيوعى.

وسكت.. ترددت.. لم أدر بماذا أجيبه.. وعاد صوت أبى
الوقور يردد :

- إوعى يا بنى.. دول كفرة وملحدين.

وقلت فى اختصار وأنا أدير عينى عنه :

- لا.. مش شيوعى.

والواقع أنى لم أكن شيوعيا.. ولم أكن أيضا شيئا آخر..
لا شيوعى.. ولا إخوانى.. ولا وفدى.. ولا دستورى.. فقط
ثائر.. ثائر من أجل المعانى المجردة التى تملأ رأسى، وقلبى،
وأعصابى.. الحرية.. العدالة.. التقدم.. مصر.

والثورة تستبد بى.

إلى أن حدثت.

تحققت ثورة ٢٣ يوليو.

وبسرعة.. أسرع من خيالى.. سقط كل شيء كالأوراق
الهشة المحترقة.. سقط الملك.. وسقط الأمراء.. وسقطت
الأحزاب.. وسقط كامل بك مرتضى.. وسقطت دائرة الأمير..
لقد استولت الثورة على كل الأرض، ووزعتها على الفلاحين..
صغار الفلاحين.

وذهبت إلى قريتنا لأحضر الاحتفال بتوزيع الأرض.

ولم يشهد أبى هذا اليوم.. لقد مات فى يوم ٢٦ يوليو.. بعد
الثورة بثلاثة أيام.. ودفنوه تحت هذه القبة الخضراء.

وفى هذا اليوم.. يوم الاحتفال بتوزيع الأرض.. اقترب منى

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

رزق العبيط، وفمه مفتوح، ولعابه يسيل، ثم نظر إلى بعينين خيل إلى أن فيهما لمحة من الخوف، وصاح كأنه رأى فى وجهى شيئاً أخافه :

— حاسب يا مأمون.. حاسب لتقع.
ثم ضحك ضحكة كبيرة كريهة وانصرف عني بسرعة كأنه يخاف منى.

ولم أعلق يومها أهمية، لما يقوله رزق.. إنه عبيط.
وعدت إلى القاهرة وأنا أشعر براحة.. راحة عميقة حلوة شملت كل كياني.. ارتخت أعصابى.. وهذا قلبي.. وخمدت النار فى رأسى.. إنى أحس أنى أديت واجبى وانتهيت.. من حقى الآن أن أستريح.

ونعمت بهذه الراحة.
ولعلى نسيت قريتنا.
تركت لأخى عبدالرحمن الأربعين فداناً كلها ليديرها..
وبقيت أنا فى القاهرة.
مستريحاً.



وسنوات الراحة تتوالى.
وكان صديقى عبدالحميد قد عين رئيساً لمجلس إدارة شركة المعادن، ولم يرشحه لهذا المنصب كفاءته فهو كخريج فى كلية الحقوق ومحام سابق، لا يفهم شيئاً فى المعادن، وإن كان يدعى الفهم.. ولكن رشحه لهذا المنصب ماضيه الثورى، وهو ماض لا يستطيع أحد إنكاره.

وعيننى عبدالحميد، مديراً عاماً للشركة.. فى الواقع أنه عين فى الشركة كل أفراد شلتنا القديمة.. إن العمل يتطلب تفاهماً

■ عليه من الصفيح الصديء .. ■

وتجانسا بين القائمين به خصوصا فى هذه المرحلة التى نجتازها، ولا يمكن أن يتحقق التفاهم والتجانس أكثر مما يتحقق بين أفراد الشلة الواحدة التى تزاملت منذ أيام الدراسة. وانتقلت من شقتى فى المنيرة.. إلى شقة كبيرة أنيقة فى الزمالك تطل على نادى الجزيرة.. شقة من شقق الحراسة دلتى عليها صديقى عبدالعزيز رفعت عضو مجلس إدارة شركة الحياة للتأمين، وهو من الثوار القدماء أيضا.. إنها شقة لقطة.. خمس غرف، والإيجار اثنا عشر جنيها فى الشهر.. ولم أرفع خلو رجل.. ولكنى كنت محتاجا لحوالى ألفى جنيه لأشتري أثاثا يليق «بالديكور» الذى تركه فيها صاحبها السابق الخواجة الذى هاجر من مصر.. وكان هذا سهلا أيضا فقد اقترضت المبلغ من بنك النهضة، بضممان صديقى على المرجوشى، عضو مجلس إدارة البنك، وهو أيضا صديق قديم من الثوار. إن تأنيث شقة ليس أمرا هينا كما كنت أعتقد.. لقد قضيت ستة أشهر مشغولا بتأنيثها قبل أن أستطيع الانتقال إليها، والإقامة فيها.

وأخذنى صديقى عبدالحميد إلى النادى يوما.. نادى الجزيرة.. ليعرفنى بخطيبته الأنسة نيفين.. إنها ابنة فؤاد باشا خليل.. باشا سابقا طبعاً.. وكل شىء فيه سابق.. إنه وزير سابق من وزراء ما قبل الثورة.. وصاحب ألف فدان، سابقاً.. وصاحب نفوذ، سابقاً.

وعندما قدمنى عبدالحميد إلى نيفين، قدمنى أيضا إلى شقيققتها مرفت.. وبسرعة أحسست كأنى واحد من العائلة.. عائلة مرفت.. أحسست بنفسى كأنى كنت أعرفها دائما.. كأنى كنت أبحث عنها دائما.. أنطلع إليها.. أتمناها.. إننا نتحدث حديثا

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

واحد.. ونبدو كأنى أنا وهى تربينا فى بيت واحد.. وممرت بخاطرى صورة السنين الماضية عندما كان يقف بينى وبين مرفت جدار أسود عال.. جدار يفصل بين شاب يمتلك أبوه أربعين فداناً، وفتاة يمتلك أبوها ألف فدان.. ووزير.. ولكن الثورة حطمت هذا الجدار.. حطمت الجدار الذى يفصل بينى وبين مرفت.. ولكن.. الثورة لم تحطم الجدار الأسود الذى يفصل بينى وبين سبيلة.. لم تحطم الجدار الذى يفصل بين «سى» و«اللاسى».. و..

وطردت كل هذه الخواطر من رأسى بسرعة.. مالى ومال سبيلة الآن.. مالى ومال القرية.. إن عملى ومسئوليتى هنا فى القاهرة.

ولم أكن أذهب إلى القرية خلال هذه السنوات إلا مرة أو مرتين فى العام.. لأقضى فى كل مرة، يوماً أو يومين.. وكان رزق العبيط كلما ذهبت يجرى إلى وهو يعرج بقدمه اليمنى، ويرفع كتفه الكتعاء، العلبة الصفيح الصدئة تحت إبطه، ثم يبخلق فى وجهى، ويصرخ بصوته المشلول :

- والله وقعت يا مأمون.

ثم يعود ويجرى من أمامى كأنه يهرب منى، وضحكته المجنونة تمزق أذنى.

أف.. لقد بدأت أزهد من رزق.. لماذا يتركون هذا العبيط مطلق السراح هكذا فى أزقة القرية.. إنه إنسان خطر.

وكنت أقضى اليوم أو اليومين فى القرية، وأنا أرقب أخى ساخرا وهو يحاول أن يقلد أبى.. يجلس جلسته.. ويلبس عمامته.. ويمسك مسبحته.. ويتحدث بصوته العميق المتزن.. ويمد فى كل ليلة صوانى العشاء. ولكن الملتفين حول

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

الصواني، تغيرت وجوههم.. إنهم ليسوا من أهل القرية
وقلاحيها.. إنهم ضابط المركز، والعمدة، وموظفو الجمعية
التعاونية، وأعضاء الاتحاد الاشتراكي، وموظفو الوحدة
الاجتماعية.. و..

والفلاحون تمد لهم صوان أخرى فى حوش الدار.
إلى أن كانت هذه المرة الأخيرة التى زرت فيها القرية.
ولا أدري كيف حدث ليلتها كل هذا.. لا أدري ماذا حدث
لى، ولا أى شيطان ركبني.. فقد ذهبت إلى غرفتي فى الدار،
بعد أن جلست مع أمي، وحضرت مجلس أخى.. وقبل أن أخلع
ثيابي، رأيت سبيلة تمر فى القاعة الخارجية، فناديتها..
واقتربت فى خطوات مترددة ووقفت عند الباب، وهى تنظر إلى
بهاتين العينين المستغيثتين.

وقلت لها بلهجة أمرة.. لهجة السيد.. إني سيدها فعلا :

- خشى يا بت.

ووقفت جامدة عند الباب.

فتقدمت منها وجذبتها من يدها فى عنف، وأنا أصرخ :

- باقولك خشى.

وأدخلتها غرفتي.

وأغلقت وراءها الباب.

وألقيتها على فراشي.

وشهوة قاسية، عريضة، مجنونة، تستبد بى.

لم أكن أشعر بجسد سبيلة.

ولكنى كنت أشعر بلذة قسوتى عليها.

ثم..

عندما أطلقتها.. وخرجت من غرفتي تترنح كالفرخة

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

المذبوحة.. أحسست بنفسى أتضاءل.. وأتضاءل.. إنى صغير.
إنى حقير.. وألم كوخز الإبر ينطلق فى صدرى.. ألم فظيع..
وانكفأت على وجهى أبكى..الرجل يبكى.. الثائر يبكى.. المدير
العام يبكى.

وخرجت فى الصباح أطوف بالدار، منكس الرأس.. جلست
مع أمى وأنا لا أستطيع أن أرفع عيني إليها.. وجلست مع أخى
وأنا أنظر بين قدمى.. وقابلت الناس وجلست وجفونى
مسدلة.. كأنى كنت أخشى أن يكتشف أحد أنى انتهكت
عرضا.. عرض القرية كلها.

وجاء رزق العبيط إلى البيت، ونظر فى وجهى ثم صرخ :
- كده يا مأمون.. كده تقع يا مأمون.

وهربت منه.

إنى أخافه.

وسألنى أخى فى المساء قبل أن يتجه إلى القاعة حيث مدت
صوانى العشاء :

- صحيح الكلام اللى بيقولوه ده.

قلت وأنا ما زلت منكس الرأس :

- بيقولوا إيه.

وقال أخى فى حدة :

- بيقولوا إنهم حايدحدوا الملكية بعشرين فدانا.

ولم يكن سؤاله مجرد سؤال ، كان فيه تمرد، وسخط،

وتربص.. ورفعت رأسى فى وجهه وفتحت عيني كأنى رأيت

الطريق الذى يقودنى إلى أن أرد للقرية عرضها الذى سلبته :

- ياريت يا شيخ.

وأشاح أخى بذراعه فى وجهى وهو يقول :

■ عليه من الصفيح الصدى ■ ..

- والله أنتم حاتودوا البلد فى داهية.
ثم قام إلى القاعة وأنا أسير خلفه، وأنظر إلى قفاه فى
شماتة.. شماتتى فيه يوم تحدد الملكية بعشرين فدانا.
وانتهى العشاء.
وانقض مجلس أخى.

وما كدنا نتصرف إلى النوم.. حتى علا صراخ عنيف فى
القرية، نزعنا جميعا من أسرتنا.. وجرينا إلى الخارج ورأينا
الناس متجمعين عند حافة القرية ينظرون إلى حريق بعيد.
إن الحريق فى أرضنا.
أرض أخى.

وهرع أخى إلى أرضه وخلفه خمسة من رجاله المدججين
بالسلاح.. وبقيت أنا فى مكاني، وعلى شففى ابتسامة
مسكينة.. إنه نفس الحريق الذى شب منذ عشر سنوات.. ولكنه
شب هذه المرة فى أرضنا.. وأنا أعلم من الجانى.
إنه رزق.

رزق العبيط.
ولن أدل أحدا عليه.
ولكن.

لماذا أحرق رزق أرضنا ؟

وبقيت فى القرية لاكتشف ما جناه أخى عليها.
لقد استطاع أخى أن يضع جميع أفراد عائلتنا فى قائمة
المعدمين الذين وزعت عليهم الأرض، وأضاف إليهم أسماء
جميع من ظن أنهم يدينون له بالولاء.. وبعد أن تسلموا الأرض
استولى عليها لنفسه، أصبح هو الذى يزرعها.. هو الذى يعطى
الحب، والمياه، والكيماوى.. و.. وفى آخر العام يختص

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

نفسه بمعظم الدخل، ويترك الفلاح بلا شيء.. وكان يؤجر أرضه للفلاحين بعقود سرية، ويطلب بالإيجار مقدما.. و.. و.. وضع أهل البلدة من جشع أخى.. وبدأوا يلتفون حول عوض إسماعيل.. إن عوض إسماعيل كان طفلا لا يتجاوز الثانية عشرة عندما تركت القرية منذ أكثر من عشر سنوات وهو يملك فى زمام القرية عشرة أفدنة، هو وإخوته.. وقد رفض أن يخضع لزعامة أخى وجشعه.. إنه يتحداه فى إصرار وعناد. كما كان أبى يتحدى كامل بك مرتضى.

وقبل أسبوع ذهب عوض اسماعيل إلى أخى، ليحاول اقناعه بعدالة مطالب أهل البلدة، فاحتد عليه أخى، وصفعه.

كما صفع كامل مرتضى أبى.

وحرق رزق أرض أخى كما سبق أن حرق أرض الأمير.

وقررت أن أعمل.. أن أتحرك.. أن أحاول استرداد صداقة الفلاحين وثقتهم بنا.. ولكن عبثا.. إنهم يستقبلونى كما كانوا يستقبلون كامل مرتضى.. وينافقونى.. ويكذبون على، كأنى عدو لهم لا يملكون إلا سلاح الكذب ليصدوا اعتداءه.

بقيت شهرا فى القرية.

ولا أمل..

ورزق ينظر فى وجهى ويصرخ :

— والله وقعت يا مأمون.

ثم يهرب منى.



وفى هذه الأثناء وقعت حادثة رزق.

لقد أراد بعض شباب القرية أن يداعبوه، فتركوه نائما تحت شجرة الجميز، وسرقوا عليه الصفيح من تحت ذراعه.

■ عليه من الصفيح الصدى .. ■

واستيقظ رزق.. وعندما لم يجد علبته، جن.. وجرى وراء الشبان، ولحق بواحد منهم، فأطبق على عنقه، وألقاه على الأرض، وظل يضغط على عنقه وهو يصيح «العلبة.. العلبة» إلى أن اختنق الشاب بين يديه ومات.

وقبضوا على رزق وهو لا يزال يصرخ بصوته المشلول :
- العلبة.. العلبة.

وهم يضربونه على قفاه.

وسجنوه في سجن المركز.

وقد درت أياما أبحث عن علبة رزق.. العلبة الصفيح الصدئة.. إلى أن وجدت لها ملقاة فوق أكوام السباح.. فحملتها وذهبت إلى المركز، وطلبت مقابلة رزق.. ومددت له يدي بها.. وما كاد يلمح علبته حتى انطلقت الفرحة في عينيه.. والتقطها مني في لهفة، وأخذ يمسح عليها بيده، ثم فتحها، وبعد أن اطمأن إلى ما فيها، أعاد إغلاقها.. ثم تردد قليلا ورفع إلى عينيه.. ورأيت في عينيه هذا الحب الذي لم أره في عيني صديق آخر.. ورأيت في عينيه شيئا آخر.. رأيت فيهما هذه النظرة التي كان أبي يستقبل بها الفلاحين الذين يطردهم من بيته عندما يعودون إليه بعد أن يطهروا نفوسهم.. وأحسست كأن هذه النظرة.. تغسلني.. تغسل روحي.. تغسل قلبي.. تغسل عقلي.. تطهرني.

ومد رزق إلى يده بالعلبة، وقال بصوته المحشرج الذي تمرقه عاهته :

- خليها معاك.. أسانة.

قلت :

- دى علبتك يا رزق.

■ عليه من الصفيح الصدىء .. ■

قال وهو يبتسم ابتسامته البلهاء :

— عليتنا احنا الاثنين.

ثم أدار لى ظهره، وتركنى، وسار بقدمه العرجاء ، وكتفه
الكتعاء، عائدا إلى سجن المركز.



والقطار يعود بى إلى القاهرة.

— العلية الصفيح الصدئة فى جيبى.

لا أعلم إلى متى أستطيع أن أحتفظ بها، وهل لى من القوة
ما يعيننى على الاحتفاظ بها.

لا أدرى.

كل ما أدريه أنى لن أتزوج مرفت.

كل هذا الحب

متى رأيته لأول مرة ؟ ..

لا أدري ..

ولا أدري متى اكتشفت أن ما بيني وبينها

هو الحب.



لقد فتحت عيني على الحياة وهي فيها.. تسكن في حيننا..
حي حدائق القبة.. في نفس الشارع.. في البيت المجاور..
والعائلتان تتزاوران.. وهي صديقة لأختي..
وكنت أكبرها بعامين.

ووجدت نفسي دائما معها.. منذ كنت تلميذا في روضة
الأطفال، وأنا أعود من المدرسة لأجدها في بيتنا تلعب مع أختي ..
وكنت ألعب معهما .. لا لم تكن تلعب .. كانت أختي عادة
تنصرف إلى اللعب، وأجلس أنا وصفيّة نتحدث.. ربما كنا نحكي
حكايات الأطفال.. ولكنه كان دائما حديثا هادئا ناعما.. ليس فيه
صراخ الأطفال ولا مشاداتهم.. وكانت صفيّة، ونحن مازلنا في

■ كل هذا الحب ■

ذلك العمر، تشعرني دائما بأنى أكبر منها.. وأنى أفهم كل شئ لا تفهمه.. وكانت تستمع إلى كل ما أقوله وهى مبهورة مستسلمة، كأنى أفتح لها أبواب دنيا عجيبه.. وكنت أنا أحس - منذ ذلك العمر - بإحساس غامض بمسئوليتى عن صفية.. كنت أدخر نصيبى من مكسرات رمضان، ومن كعك العيد ومن قطع الشيكولاتة التى توزعها علينا أمى فى المناسبات، لأعطى لصفية.. وكنا عندما ننزل إلى الشارع.. لألعب أنا الكرة مع الأولاد، وتلعب هى الحجلة، أو «نط الحبل» مع البنات، أجد نفسى التفت بين الحين والحين باحثا عنها.. عن صفية.. كأنى أطمئن عليها.. فإذا حدث لها شئ.. أى شئ.. كان وقعت وانجرحت ركبته، أو عاكسها، أحد الأولاد، جرت إلى باكية، وهى تصرخ :

- محمد.. محمد..

ثم تشكو إلى..

وكنت دائما قادرا على أن أجفف دموعها، وأرضيها، وأحميها.. وكانت العائلتان معترفتين بهذا الصداقة، أو هذا الحب، أو هذا الإندماج.. لا أدري ماذا أسميه.. ماذا أسمى ما كان بينى وبين صفية ونحن مازلنا طفلين.. لا ادري.. فكانت أمى لا تسأل عنى إلا ويشمل سؤالها صفية :

- محمد وصفية راحو فين ؟..

وكانت أم صفية ترسل وراءنا الخادمة.

- روى شوقى محمد وصفية فين ؟

دائما، محمد وصفية.

وربما كانت هذه العاطفة الحلوة المبكرة هى التى جعلت منى

■ كل هذا الحب ■

هذا الطفل الهادئ، العاقل الذى تفتخر به أمى.. لقد كنت طفلا أكبر من عمى.. لم أكن متعاليا على أصحابى الذين فى مثل عمى.. ولا جافاً.. لا.. كنت ألعب مع الأطفال، وأتحدث حديثهم، ولكنى كنت أكثر منهم جدية.. أو على الأصح كنت أكثر منهم اكتفاء وشبعا عاطفيا.. لم أكن أرتكب حماقات الأطفال.. لم أفكر يوما فى أن أعاكس المدرس.. أو أسرق شيئا من وراء ظهر أمى.. فكنت رجلا فى عمر الأطفال.

ثم لا أدري متى بدأ يتطور حبنى لصفية.. ربما عند ما بلغت الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.. فقد بدأت أكتشف لون عينيها، وأنفها الصغير.. وشفتيها.. وتسريحة شعرها.. وبدأت أكتشف الثوب الذى ترتديه، والطريقة التى تنقل بها خطواتها فى مشيتها. وبدأ هذا الإحساس الجديد يقلقنى.. يحيرنى.. لم تعد صفية مجرد حقيقة بديهية فى حياتى، بل أصبحت موضوعا يأخذ تفكيرى.. وبدأت أعانى اللهفة عليها.

لم أعد أعود إلى البيت وأنا واثق من أنى سأجد فيه صفية.. أصبحت أتساءل هل سأجدها فى البيت.. ويغوص قلبى عندما يداهمنى الاحتمال بأنى قد لا أجدها.. وعندما كنت طفلا لم أكن واثقا ولا حائرا.. ولم أكن أعود إلى البيت لا ملهوبا، ولا غير ملهوف.. إن كل هذه العواطف والانفعالات.. الثقة والشك.. والتأكد والحيرة.. و.. و.. كل ذلك لا يخطر فى حياة الإنسان إلا عندما يبدأ الإنسان فى صنع حياته بنفسه.. والأطفال لا يصنعون الحياة، ولكن تصنع لهم الحياة. وكنت دائما - إلا نادرا - أجدها فى البيت.

■ كل هذا الحسب ■

وكنْتُ أَلحُ في عَينِها نَفسَ الحَيرةِ الَّتِي أَعانِيا.. الحَيرةُ في عَواطفٍ وأحاسيسٍ بَدأتْ تَمَلأُ صَدرَها كَالنِخارِ، دُونَ أنْ تَفَهمَها أو تَعرِفَ مِن أينِ انطَلَقَتْ ولا إلى أينِ تَستَقِرُّ.. وَكانَ يَبدو أَنِها لَم تَعدْ تَأتِي إلى بَيتِنا تَلقائِيا، وَلَكنْها كانَتِ تَأتِي عَن عَمدٍ، وَقد بَدأتْ تَعرِفُ أَنِها تَأتِي لَتَرائِي، لا لَتَزُورَ أُختِي.

وَتَطورَ حَدِيثُنا.. كَبرَ.. لَم يَعدْ حَدِيثُ أَطفالٍ.. ولا حَدِيثِ ناضِجينَ.. وَلَكنْه حَدِيثُ هَذا العَمرِ الحَلو الَّذِي يَختَلطُ فِيهِ الخِيالُ بِالوَاقِعِ، وَتَبدو فِيهِ البَديهيَّاتُ كَأَنِها اكْتِشافاتٌ، وَيَبدو فِيهِ كُلُّ شَئٍ كَأَنِه شَئٌ جَدِيدٌ يَثيرُ الدَهِشَةَ.. وَلَكنْ صَفيَّةُ خَلالَ أَحادِيثِنا لَم تَتَغيرَ، إِنِها لا تَزالُ دائِما تَشعُرُنِي بِأَني الأَكَبَرُ مِنِها.. وَأَني أَفَهمُ كُلَّ شَئٍ لا تَفَهمُه.. وَأَني المُسئولُ عَنها.. نَكاذُ تَشعُرُنِي بِأَني رَجلُها.

وَأَنا أَكَبَرُ.

وَكلِّما كَبُرَتْ عَذبَني شَئٌ غامِضٌ لَم أَكنُ أَدرى سَرهَ.. وَلَكنِّي أَشعُرُ بِهِ كُلِّما اسْتَوَعَبَتْ عَيناي تَفاصيلَ أَكثَرَ مِنَ الخُطوطِ الَّتِي تَرسُمُ صَفيَّةَ.. خُطوطَ وَجْهِها.. وَخُطوطَ قَوامِها.. وَهَذهُ الخِصَلَةُ مِنَ شَعرِها الناعِمِ الَّتِي تَقعُ أَحيانا فِوقَ جَبينِها، فَتَزيحُها بِيدِها كَأَنِها تَتنَهرُها.. وَهَذهُ النَظَرَةُ المُتَسائِلَةُ المُترَقِّبةُ الَّتِي تَطلُّ مِنَ عَينِها كَأَنِها تَبحثُ عَن شَئٍ جَدِيدٍ.. وَهَذهُ الِابْتِسامَةُ الهادِئةُ الناعِسةُ الَّتِي تَرقُدُ في اسْتِسلامٍ بَينَ شَفتيها، كَأَنِها مُستَسلَمةٌ لِي.

وَقد عَرفتُ الآنَ أَني أَحَبُّ صَفيَّةَ.

وَلَكنْه لَيسَ الحُبُّ الَّذِي يَعدِبُنِي.. إِنَّه شَئٌ آخَرُ.

■ كل هذا الحب ■

شئ ربما كان داخل الحب، وربما كان خارجه.
وكان هذا الشئ يتطلب كل إرادتى ، إرادتى الفجة الصغيرة
لأقاومه.. وكلما شعرت بحاجتى لبذل مجهود أكبر فى المقاومة،
انتابنى شعور غريب بالخوف.. نعم، الخوف.. لا أدرى من
ماذا.. ولكن بدأت تمر على فترات كثيرة أشعر فيها بهذا
الخوف.. الخوف على حى.

وفى هذه السن.. وكنت فى الخامسة عشرة، وصفية فى
الثالثة عشرة.. لاحظت لأول مرة أنها قد بدأت تسوى حاجبيها
بالمقاط وثرث على غير عادتى، وصرخت فيها :

- إيه اللى عاملاه فى حواجبك ده ؟

ونظرت إلى بعينين مرتعشتين وقالت فى ذهول :

- مش عاجبيك ؟

قلت وأنا ما زلت أصرخ :

- لا.. مش عاجبنى.

ونظرت إلى صفية برهة ثم انبثقت الدموع من عينيها،
وجرت من أمامى وهى تبكى.

ولم أشعر يومها بدموع صفية، ولا جريت وراءها
لأصالحها، فقد وقعت ساعتها فى نوبة عارمة من هذا الخوف..
الخوف الذى بدأ ينتابنى منذ شهور.. ولكنه فى هذا اليوم كان
خوفاً أكبر.. أحسست أنى بدأت أكتشف سر هذا الخوف.. إن
صفية تكبر أسرع مما أكبر.. إنها ليست أصغر منى.. إنها
أكبر.. وستكبر أكثر.. وأكثر ولن أستطيع أن ألحق بها أبدا..
ستضيع منى.

■ كل هذا الحب ■

ولم تعد صفية إلى تسوية حاجبيها بالمقاط. وكنت ألحظ الشعيرات الخضراء تنبت حول حاجبيها دون أن تنزعها، فلا أبتسم لها، ولا أعلق بشئ.. ولا حتى أشعر بالامتنان لها لأنها أطاعت كلامي.. فقد كنت أشعر بالغيظ.. الغيظ منها لأنها تكبر في عمرها أسرع مما أكبر في عمري.. وامتناعها عن تسوية حاجبيها لن يوقف سرعة عمرها.. لن يعيدها إلى عمري.

وجاءت يوما.. ودخلت هي وأختي إلى حجرتي.. وكنت جالسا إلى مكتبي أستذكر دروسي.. والتفت إليهما وبدأنا نتحدث.. وقد كنت ألاحظ في نفسي أني بدأت أتحدث كلما كانت صفية معي بلهجة فيها كثير من التعالي والغرور، كأنني أحاول دائما أن أقنعها بأنني أكبر منها، ومازلت أفهم مالاتفهمه.. مازلت رجليها.

وتركتنا أختي وخرجت من الحجرة لبعض شأنها، كما تعودت أن تفعل في كثير من الأحيان.. لا تعمدا منها، ولكن لأن صفية لم تكن أبدا ضيفة في بيتنا.. إنها واحدة منا.

وانحنى صفية على مكتبي تقلب في الكتاب الذي أقرأ فيه.. كما تعودت أن تفعل منذ كانت طفلة.. ووجدت نفسي فجأة أعاني هذا العذاب الذي عانيت منه طويلا.. أعانيه وصفية قريبة جدا مني.. كتفها تلامس كتفي.. وعطر أنفاسها يملأ أنفي.. وشعرها الناعم المسترسل يهف على وجهي.. وهي تتكلم.. ولكني لا أسمعها.. إن كل حواسي مركزة في استجماع إرادتي لأقاوم بها هذا العذاب الذي يمزق عروقي.. وبدأ كلام صفية

■ كل هذا الحسب ■

يتقطع.. ثم صمتت.. وأنا صامت.. ومضت برهة طويلة..
طويلة.. ونحن صامتان.. ثم رفعت إلى عينيها.. والتقت نظراتنا
لقاء طويلا.. صامتا.. وأنفاسنا مبهورة.. وشئ كصهد النار
يلف وجهينا.. ثم اقتربنا، وجهى من وجهها.. ثم استقر خدها
على خدى.. برهة.. لحظة.. ثم رفعت وجهها فى انتفاضة كأنها
خافت أن تحرقها النار، وجرت متعثرة خارج الغرفة.. خارج
البيت.

وكانت هذه قبلتنا الأولى.

أول قبلة فى حياتها.

وأول قبلة فى حياتى.

ولم تكن قبلة.

كانت مجرد لمسة.

وانحنيت فوق مكتبى أرتعش.

ولم أستطع النوم ليلتها.

إنى مازلت أرتعش.. وفى طيات رعشتى أشياء كثيرة.. فيها
عذاب، وفيها فرحة.. فرحة كبيرة.

وفى اليوم التالى جاءت خادمة صفية الصغيرة إلى بيتنا
تبحث عنى.. وأعطتنى كتابا قالت إن صفية ترسله لى كما
وعدتنى.. كتاب من كتب المدرسة لا قيمة له.. وقبل أن أتعجب
اكتشفت أن بين صفحات الكتاب خطابا كتبته لى صفية.

أول كتاب تكتبه لى.

وبدأنا عصر الخطابات.

والعجيب أن هذه الخطابات أبعدت بيننا أكثر مما قربتنا..

■ كل هذا الحب ■

فلم تعد صفية تأتي إلى بيتنا كل يوم كما تعودت.. ربما لأن حبنا منذ أن تلامسنا بدأ يرتبط بالواقع الإنساني.. وهو واقع نخافه نحن الاثنين منذ أن اكتشفناه.. نخافه ونتعذب به.

وعندما جاءت صفية بعد أربعة أو خمسة أيام، تبادلنا خلالها في كل يوم خطابا.. جاءت - لا كواحدة منا - ولكنها جاءت كأنها ضيفة.. اختارت ثوبا أنيقا لا تلبسه إلا وهي ضيفة.. وصفت شعرها بعناية كأنها ذاهبة إلى حفلة.. وعندما نظرت إلى حاجبيها لاحظت أنها عادت وسوتهما بالمقاط.. ولم أثر.. ولم أغضب.. لقد شعرت يومها أنها سوتهما من أجلى.. حتى عندما شعرت أنها تجملت بحيث تبدو كبيرة.. لم أغضب، فقد شعرت أيضا أنها كبرت من أجلى.

ولم نستطع يومها ولا بعدها، أن نتبادل النظرات بنفس البساطة التي كنا نتبادلها بها.. ولم نستطع حديثنا أن يتصل بيننا بنفس السهولة التي كانت تجرى بها.. كان كل منا يعلم أنه أصبح في حاجة إلى أكثر من النظرات وأكثر من الأحاديث.. وكل منا يتقرب اللحظة التي ستركنا فيها أختى وحدنا.. وربما خيل إلينا يومها أن أختى تتباطأ في الخروج عن عمد.. لتفيظنا.

وبرغم ذلك فعندما خرجت أختى تسمرنا في مكاننا.. احترنا ماذا نصنع.. كيف أقوم من مكاني إليها، وكيف تقوم من مكانها إلي.. بل ربما احترنا فيما نريد.. ماذا يريد أحدها من الآخر.. ولفتنا عاصفة عصبية من الارتباك، والخفر واللهقة.. ولم أعد أستطيع أن أنظر في عينيها.. ولم تعد تستطيع أن تنظر في عيني.. ثم فجأة.. وكأننا خفنا أن يسرقنا الزمن

■ كل هذا الحسب ■

ونشيخ ونحن متباعدان.. اندفع أحدها إلى الآخر.. ورقد خدها على خدى.. وقلبي يخفق بخفقات قلبها.. ثم طافت شفثاى تمسحان على خدها.. من الذى علمنا أن الشفاه تحمل كل هذه الحساسة.. كل هذه المعانى.. كل هذه الدنيا.. لست أدرى.. ورثاى تتنفسان من أنفاسها.. وأعصابى تنبض بنبضات أعصابها.. ثم فجأة أيضا ابتعدنا أحدها عن الآخر.. كيف تنتهى القبله.. ولماذا تنتهى.. بل لماذا تتوقف، لست أدرى.. وهى تنظر إلى بعينين مبهورتين، مالبثتا أن ارتختا ونامتا تحت جفניה كأنهما طفلتان شبعتا.. وخرجت أنا من الحجرة فى خطوات بطيئة كأنى أسير على قطع من السحاب.. وذهبت إلى حجرتى.. ورقدت فى فراشى.. مستسلما فى هدوء إلى رعشتى.. رعشة قلبى.

وكان هذا هو كل ما بيننا.

هذه القبلات.

وهذه الخطابات.



وكننت فى الثامنة عشرة، وصفية فى السادسة عشرة، عندما خطبت، خطبت صفية إلى رجل يكبرنى باثنى عشر عاما، ويكبرها بأربعة عشر عاما.

وتلقت الخبر فى استسلام عجيب، كأنه حدث كنت أنتظره منذ زمن طويل.. ربما منذ ولدت.. وكان إحساسى بانتظاره مختبئا فى منطقة اللاشعور.. أشياء كثيرة ننتظرها دون أن نحس بانتظارها.. الموت.. إننا ننتظر الموت دون أن نتعمد

■ كل هذا الحب ■

انتظاره.. ومهما بكينا وصرخنا فإننا لانستطيع أن نصد الموت.. ولا نحاول أن نعيد الحياة. إننا فى قرارة أنفسنا مستسلمون له، وكنا دائما فى انتظاره.. وكذلك.. زواج صفية من رجل آخر.. وكانت التقاليد الاجتماعية متمكنة منها ومنى إلى حد الإيمان.. كالإيمان بالموت.. فلم نحاول أن نثور، كما لا يثور الناس على الموت.. ولم نحاول أن نهرب، كما لا يهرب الناس من الموت.

وحدد يوم الزفاف على عجل.. بعد أسبوعين.. فالرجل مسافر فى بعثة إلى إنجلترا وسيصحب صفية معه.

ولم أر صفية خلال هذين الأسبوعين.. وكنت خلالهما أعيش صامتة واجما كالمصعوق وأتحرك فى خطوات بطيئة متئدة كأنى أحكم الحكماء أو كأن فى صدرى قنبلة أخشى أن تنفجر لأقل حركة.

وفى صباح يوم زفافها جاءت.

جاءت إلى بيتنا.

شعرها مهوش فوق رأسها.. ووجهها ممتقع.. وبصمات الأرق تحت عينيها.. وشفاتها ترتعشان وقد بهت لونهما.

واتجهت إلى غرفتى مباشرة، كأن ليس فى البيت أحد غيرى. وألقت نفسها بين ذراعى.. ورأسها على كتفى.. ثم أجهشت بالبكاء.. وهى تتمتم :

- محمد.. محمد..

ثم أخذت وجهى بين كتفيها.. وأصابعها ترتعش.. وألقت بشفتيها بين شفتى.. قبلة كبيرة عصبية عنيفة.. ليس لها طعم،

■ كل هذا الحب ■

عنفا يغلب طعمها.. كأنها كانت تحاول أن تأخذ منى فى قبلة واحدة مايكفيها عمرها كله بعيدا عنى وأختى كانت واقفة على الباب، تنظر إلينا، وتبكي.

إن أختى خطبت فى نفس العام.. قبل صافية.. ومن يدرى ربما كان لها هى الأخرى حب ودعته.

وأنا جامد.. لا يستطيع إحساسى أن يلتقط شيئا.. ولا حتى قبلة صافية.. لم أبك معها.. ولا لففتها بذراعى.. ولا بادلتها قبلتها.. ولا كلمة.. إني جامد.. كل شئ فى قد توقف.. وكل ماحولى توقف.. إني ميت.

وجرت صافية خارجة من البيت تتعثر فى دموعها.
وأنا جامد.

ميت.

وفى المساء كان مفروضا أن أذهب إلى حفل الزفاف.. وأمى تتعجلنى - ياللا يامحمد.. مايصحش نروح متأخرين.. ده احنا أهل.

وخرجت وراء أبى أمى وأختى.. وأنا مازلت جامدا.. تائها.. أسير فى خطوات ساهمة وثيدة، وفى صدرى هذه القنبلة التى أخشى فى كل خطوة أن تنفجر.. وما كدت أقترّب من بيت صافية حتى دهمنتى أضواء الزينة.. حرقت عيني وأصابتنى برعشة كرعشة الحمى وخفت.. هلع.. أحسست بالمصاييح الملونة كأنها عيون شياطين تنطلق فى وجهى.. كأنها فوهات مدافع تطلق على النار.
وتراجعت فى خوف.

■ كل هذا الحب ■

تركت أبى وأمى وأختى يدخلون.. واستدرت أنا وجريت..
جريت بكل قواى.. قواى.. جريت إلى أن اجتزت حتى حدائق
القبة.. ثم هدأت خطاى وأنا أتجه إلى حى العباسية.. وسرت..
سرت طويلا.. وأسياخ من الألم تشق كل قطعة منى.. سرت
إلى أن وصلت إلى صحراء العباسية.. وأقدامى قد ثقلت وهى
تتعث فوق الرمال.. والليل يتكاثف حولى حتى لم أعد أرى
شيئا.. والألم.. ألم قاس.

ثم شعرت بشئ يسقط على الرمال.. إنه أنا.. وإذا بى أبكى..
أبكى فى عنف.. كل قطعة منى ترتعش وتبكي معى.
وكانت المرة الأولى التى أبكى فيها كل هذا البكاء.. والمرة
الأخيرة.

ورطب البكاء أعضابى.. هدأت.. وسكت عنى الألم.. ورفعت
رأسى الذى وقع منى فوق الرمال، وإذا بى ألمح نورا.. نور
ينطلق من داخلى.. من صدرى.. إنه نور الحب.. إن الحب
لا يزال معى.. لم يأخذ أحد الحب منى، الحب لم يتزوج رجلا
آخر.

والحب هو صفية.
وشعرت بابتسامة تمسح الأسى من شفتى.. ورموشى تهتز
وتنفض عنها الدموع، كما تهتز أجنحة العصفير لتنفض عنها
الندى.

وعدت.

هادئا.. مستقرا.. تملأ السكينة نفسى.. ورقدت فى فراشى
لأقرأ كتابا.. والحب يحملنى فى حنان ودعة إلى النوم.



■ كل هذا الحب ■

كم مضى ؟

عشر سنوات..

وقد حدثت أثناء هذه السنوات أشياء كثيرة.. نلت بكالوريوس الهندسة.. واشتغلت مهندسا فى إحدى الشركات.. وتزوجت أختى وأصبح لها بيت وأولاد.. وأحيل أبى إلى المعاش، وفضل أن يأخذ أمى وبقينا فى بلدتنا.. واستأجرت أنا شقة صغيرة فى شارع القصر العينى، جمعت فيها كل حياتى.. كتبتى.. واسطواناتى.. ومائدة الرسم.. وهذه الأشياء الصغيرة الكثيرة التى تخلق من كل فرد شخصية متميزة مستقلة بذاتها، شئ واحد لم يتغير خلال هذه السنوات.

حبنى.

صفية.

إنى أعيش فى انتظارها كل يوم.. ليس انتظارا.. ولكنه انتظار يسرى فى هدوء خلال أعصابى، كما تتردد أنفاسى. انتظار كانتظار المتصوف للقاء ربه.. انتظار حلو هادىء، مستسلم.. وكلما دق جرس الباب مر بى خاطر سريع.. إنها قد تكون صفية.. وكلما دق جرس التليفون رفعت السماعة بلهفة فقد تكون صفية.. وكلما ذهبت إلى زيارة أختى خيل إلى أنى سأجد صفية معها.. وكلما ذهبت إلى حدائق القبة ومررت ببيتنا القديم خيل إلى أنى سأجد صفية تطل من الشرفة.. وأخرج خطاباتها وأقرؤها ولم أكن أقرأها بعينى.. ولكنى أقرأها بأذنى.. إنى أسمعها.. ليس مجرد خيال.. ولكنى أسمعها.. كان صوتها حقيقة يملأ كيانى كله.. ثم أعود وأنتظر.

■ كل هذا الحب ■

كان هذا الانتظار هو نبضى.
ولم تدخل حياتى خلال هذه السنوات العشر أية امرأة.
ولا حتى امرأة عابرة.
هل هذا شذوذ.. أبدا.. إن الذى يرسم تصرفاتنا هو
ما نريده.. وأنا لا أريد أية امرأة.. إنى أنتظر صفية.
وأمى تلح على فى كل يوم أن أتزوج.. وأضحك.. إن أمى تعتقد
أن فى الدنيا فتاة أخرى غير صفية.. لا.. لا.. بالنسبة لى.. لا.
وفى يوم.
بعد عشر سنوات.
دق جرس التليفون فى مكتبى بالشركة.
وما كدت أسمع كلمة : الو.. حتى صرخت :
- صفية.
لقد عرفت صوتها قبل أن تتكلم وبعد عشر سنوات من الصمت.
وقلنا فى التليفون كلاما كثيرا مرتبكا، كأننا كنا نحاول فى
هذه اللحظات أن نسترد كل ما فاتنا من كلام خلال عشر
سنوات.. ومن ضحكات.. ومن عتاب.. و.
واتفقنا ببساطة على اللقاء فى مقهى هادىء منزو فى
شارع الهرم.
هى التى اختارت هذا المقهى للقائنا.. وقالت لى إنها كانت
تمر بهذا المقهى منذ خمس سنوات.. وكلما مرت به تمنّت أن
تجلس فيه معى.. رفضت أن تدخله إلا معى.
والتقينا.
ووقفنا ينظر كل منا للآخر وبين شفاهنا ابتسامتان
حائرتان مترددتان لا تدريان أى معنى تحملانه.

■ كل هذا الحب ■

ولكنى وجدت نفسى أعود عبر الزمن إلى عمر الثامنة عشرة.. وصفية تعود إلى السادسة عشرة.. ربما كانت صفية قد سمنت قليلا، وربما كان فى حديثها معان لم أسمعها منها من قبل.. ولكنها لا تزال فى عمر السادسة عشرة.. لم تمر بنا عشر سنوات.. لم نفترق أبدا.. إنها كانت معى بالأمس.

ويدى فى يديها.

ونتكم.

لم تترك يدى يدها.

ولم نكف عن الكلام.

وأصبحت تتصل بى كل صباح بالتليفون.

وعشت فى كل تفاصيل حياتها.

وعاشت فى كل تفاصيل حياتى.

ثم كان لقائنا الثانى بعد أسبوعين.

فى شقتى.

وأحاسيسنا أكثر نضجا.

وقبلاتنا أكثر وعيا.

وكانت صفية أول امرأة فى حياتى.. كما كانت أول فتاة فى

حياتى.. الفتاة الوحيدة، والمرأة الوحيدة.

وصفية !!؟

لا.. لا تقلها.. لم يكن فى حياة صفية رجل آخر.. إنك لا تفهم

ما تقول.. إنك تعلم أن كل إنسان له حياة عامة يعطيها للمجتمع،

وحياة خاصة يحتفظ بها لنفسه.. إنه دين عليك نحو المجتمع

الإنسانى أن تخصص جزءا من حياتك له.. والجزء العام.. أو

■ كل هذا الحب ■

الحياة العامة.. وإلا كنت إنساناً أنانياً تافهاً.. ودين المجتمع الإنسانى نحوك أن يترك لك حياتك الخاصة تتصرف فيها كما تريد ما دمت لا تعتدى بتصرفاتك على أحد.. وحياتى العامة التى أعطيها للمجتمع، هو عملى كمهندس.. والحياة العامة التى تعطيها صافية للمجتمع.. هو عملها كزوجة وأم.. ليس معنى هذا «رجل آخر».. إنه مجرد عمل.. كعملى فى الشركة.. وأنا أحترم زوج صافية احترامى لرئيس الشركة.. ما دام يقوم بواجبه نحو الشركة.. صحيح أنه فى حالات كثيرة تستطيع المرأة أن تجمع فى بيتها بين حياتها الخاصة وحياتها العامة.. كأن تتزوج رجلاً تحبه.. ولكنها إذا لم تستطع ذلك فإن هذا لا يحرمها من حياتها الخاصة، ولا يعفيها من واجبها نحو تقديم حياتها العامة للمجتمع.. أن تقدم للمجتمع شيئاً.. ولو كانت صافية قد استكملت دراستها وقدمت للمجتمع عملاً، كأن تكون طبيبة لأعفاها هذا من الزواج من شخص لا تحبه.. ولكنها لم تكن تستطيع أن تقدم للمجتمع إلا عملها كزوجة وأم.. فاضطرت.

هل تفهمنى ؟

إنى أرفض أى تفسير آخر.. وأرفض كلمة «رجل آخر».. إنه عمل.. مجرد عمل.. مهما تسامت فيه العواطف، فهو عمل.. وانتظمت الحياة.. هادئة، حلوة، رقيقة، بينى وبين صافية.. كانت تحادثنى صباح كل يوم فى التليفون.. لا تحادثنى فى المساء، ولا فى أيام الجمع.. ونتلاقى فى فترات متباعدة.. أحياناً كل أسبوعين.. وأحياناً كل شهر.. وكانت أحياناً تسافر مع زوجها عندما ينتدب للعمل فى الخارج.. وتغيب شهوراً..

■ كل هذا الحب ■

وفى مرة غابت سنتين.. وأنا أنتظر.. هذا الانتظار الذى يسرى
فى هدوء خلال أعصابى، كما تسرى أنفاسى.
ولم نعتد على أحد بحبنا.
بالعكس.

إنى عندما استكملت سعادتى بحبى، استطعت أن اقدم
إنتاجا أكثر فى عملى.. وعندما سعدت صفية استطاعت أن
تضفى على بيتها وأولادها سعادة أكبر.. أن الإنسان الناقص
لا يمكن أن يقدم شيئا كاملا.. وأنا لم أكتمل إلا بصفية..
ولم تكتمل صفية إلا بى.. وعند ما اكتملنا استطعنا أن نقدم
للناس عملا كاملا، يسعدهم كسعادتنا.



كم مضى ؟
عشرون عاما.
أصبحت فى الثامنة والخمسين من عمرى، وصفية فى
السادسة والخمسين.
واتصلت بى بالتليفون وصوتها يرتعش.
لقد مات الزوج ؟؟
وكنت أول من تبلغه النبأ كعادتها منذ كانت طفلة.. تلجأ إلى
كلما ألمّ بها حدث.
وحزنت صفية على زوجها حزنا عميقا صادقا.
وحزنت معها.. حزنا حقيقيا، لا رياء فيه.
ومضى أكثر من عام قبل أن يتبدد جزننا إلى ذكرى عاطرة.
وأنا وصفية كما نحن.. تتصل بى صباح كل يوم فى

■ كل هذا الحب ■

التليفون.. لم تكن تتصل بى فى المساء، ولا فى أيام الجمع..
حتى بعد أن مات الزوج.. ثم كنا نلتقى فى فترات متباعدة..
أحيانا كل أسبوعين وأحيانا كل شهر.

ثم قلت لها :

– أظن من حقنا نتجوز بأه يا صافية.

ورفعت إلى عينيها الناعستين الهادئتين، وصمتت.

ولم يكن هناك ما يمنع من زواجنا.. فأولادها قد كبروا
واستقل كل منهم فى بيته.. وهى مصممة على ألا تعيش مع
أحد منهم.. إنها تعيش فى بيتها وحيدة مع مربية أولادها.
ولكنها ظلت صامئة.

وعدت أقول :

– إيه رأيك ؟!

وتلونت وجنتها بلون الخفر، وقالت وهى ترخى رموشها
فوق عينيها :

– مش عارفه يا محمد.. أنا عمرى مافكرت إننا نتجوز..
متهىأ لى إن حبنا أكبر من الجواز.

قلت :

– حبنا من حقه يستريح ولو اليومين اللى فا ضلين.

قالت :

– أنا خايفة يا محمد.. خايفة على حبنا من الجواز.. مش
عارفة ليه.. بعد ده كله، نبتدى حاجة جديدة.

وفى الواقع أنى كنت أشاركها نفس الخوف.. ونفس التردد.
لقد عاش حبنا طويلا، واكتسب عادات معينة، وطريقة

■ كل هذا الحب ■

للتعبير عن نفسه.. وارتقى بنا إلى أعلى قمم السمو.. قمم أعلى من كل القمم التي وضعها المجتمع للحياة الفاضلة.. وربما لو نزلنا بحبنا إلى تقاليد المجتمع، لفقد روعته.. وفقد صلابته وعناده.. فقد أفضل مافيه.

ولم نتزوج.

أصرت صفية على ألا نتزوج.

ومضت ست سنوات ولم يزد علينا شيء، إلا أنى بدأت أقوم لها ببعض مطالب حياتها التي لا يستطيع أن يقوم بها إلا رجل. ولم تقدمنى صفية إلى أولادها بعد أن مات زوجها، ولكنها كانت تحدثهم عنى قليلا كصديق من أصدقاء عائلتها منذ أيام حداث القبة.

ثم مرضت صفية.

وعندما مضى أكثر من شهر وهى لا تستطيع أن تغادر الفراش.. صممت على أن أزورها.. وكانت المرة الأولى التي أزورها فيها فى بيتها.. دخلت البيت كأنى أدخل قدس الأقداس، خاشعا لرهبته.

وقالت فى ضعف :

- ماكنتش عيزاك تشوفنى وأنا عيانة يا محمد.

إنها لا تدري.

لا تدري أنى مازلت أراها إلى اليوم كما كانت وهى فى السادسة عشرة.. أراها بعينى، لا بخيالى، ولا بأوهام حبي، أرى عينها الناعستين الهادئتين، ووجنتيها العاليتين، وشفتيها المكتنزتين المملوءتين بالحب، وبشرتها الناعمة السمراء،

■ كل هذا الحب ■

وشعرها الأسود المسترسل.. إنها لم تكبر أبدا.. أبدا.. إنها الفتاة التي أحبها.
وذات ليلة.

صحوت منزعجا من نومي.. وارتديت ثيابي بسرعة،
وجريت إلى الجراج، وقدت سيارتي إليها.. إلى صفية..
والساعة حوالى الثالثة صباحا.
فضغط على جرس الباب.
وعدت أضغط بإصرار
يجب أن أراها الآن.. الآن.

وفتحت لى بعد فترة طويلة، المربية العجوز.. وهرعت إلى
غرفتها وكانت راقدة فى فراشها.. بيضاء فى لون الفل،
وشفتاها ترتعشان.. وفتحت عينيها عند ما اقتربت منها..
وبرقت ابتسامة خاطفة بين شفتيها.. وسمعتها تهمس.
- محمد.

ثم ارتخت يدها فى يدي.



إنى الآن فى السادسة والستين من عمري.
وقد مضت أربع سنوات وأنا فى انتظار صفية.. هذا
الانتظار الهادئ المتصوف الذى يسرى فى أعصابى كما
تسرى أنفاسى.. وأنا واثق أنها ستأتى يوما وتدعونى إلى
لقائها فى مقهى صغير منزو ترفض أن تجلس فيه إلا معى.
مقهى فى الجنة.

الله .. الله .. يا سيدي

بدأ أفراد الشلة يتوافدون على منزل السيد المهندس محمد برعى أحد مديري العموم بوزارة الأشغال.. وقد تعودوا أن يجتمعوا فى مثل هذا اليوم من كل شهر، فى منزل أحدهم، لسماع حفل السيدة أم كلثوم المذاعة من الراديو. وكان أول الوافدين السيد إسماعيل سكر مدير مكتب وزير الأوقاف والسيدة حرمه.. واستقبله محمد برعى فاتحا ذراعيه، واحتضنه إلى صدره صائحا : - ازيك يا أبو السباع.. وحشتنا. وتبادلت حرم إسماعيل سكر وحرم محمد برعى طرقة القبلات. وقالت حرم محمد برعى : - ازيك يا إنصاف.. ازي عروستنا الحلوة. وقالت إنصاف وشفاتها مشدودتان إلى آخرهما ترسم ابتسامة مفتعلة :

■ الله .. الله .. يا ست ■

- ازيك إنتى يا دودى، وإزى الولاد.
وشدتها دودى من يدها وجلسا فى الركن البعيد من غرفة
الصالون.. وأخذ محمد برعى صديقه اسماعيل سكر وجلسا
فى الركن الآخر بجانب الراديو.. وهو يقول :
- اقعد يا اسماعيل.. إزى الحال.. خصموا منك كام الشهر
ده.. وتنهد إسماعيل قائلاً :
- ميتين خمسة وأربعين قرش.. زيادة ضريبة الدفاع،
والادخار.

وقال محمد برعى وهو يقهقه :
- يعنى كمان حفلتين لأم كلثوم والماهية ما يفضلش مېها
حاجة.

وقال اسماعيل :
- والله ما فى حاجة بتخفف المصايب إلا أم كلثوم.. الواحد
يقبض من هنا، ويتغم.. ويفضل مغموم لغاية ما يسمع الست.
ودق جرس الباب، ثم دخل الأستاذ عبدالعزيز على المحامى،
والسيدة حرمه.. وتكررت الأحضان وطرقعة القبلات.. ثم
وصل السيد شكرى ناجى، الموظف بالاستعلامات والسيدة
حرمه.. والدكتور رفعت عبدالله طبيب مستشفى الرمد والسيدة
حرمه.. وتجمعت السيدات فى الركن البعيد، والتف الرجال فى
الركن الآخر حول الراديو.

وعاد محمد برعى يقول :
- اللى عايز أعرفه الخصومات اللى نازلة ترف على
الماهيات دى آخرتها إيه.

وقال السيد شكرى :
- أنا مش مجننى إلا الادخار ده.. طيب واحد مش عايز
يدخر حد شريكه.

■ الله .. الله .. يا ست ■

وقال الاستاذ عبدالعزيز :
 - يا جماعة، لا تنظروا إلى الموضوع من وجهة المصلحة
 الفردية.. البلد عليها التزامات كثير ولازم كلنا نتحملها.
 وقال الدكتور رفعت :
 - التزامات إيه بأه يا سى عبدالعزيز.. آه.. قول لنا إيه هى
 الالتزامات دى.
 وأطلقت دودى ضحكة مججلة لوت أعناق الرجال.. ثم
 خفضت صوتها وقالت :
 - ده الراجل يا حبة عيني ماخذش منهم يومين.. ويا أختى
 ماتعرفيش إزاي لفوه.. وراح متجوز الست الكركوبة.
 وقالت قدرية حرم السيد شكرى ناجى :
 - يعنى بالميت ما يجيش عندها أربعين سنة.
 وقالت إنصاف :
 - وأكثر.
 وقالت خديجة حرم الاستاذ عبدالعزيز :
 - إنما صحيح حاتعمل فرح وزفة ؟
 وقالت سوسن حرم الدكتور رفعت :
 - دى كانت تبقى فضيحة.. دى تبقى فضيحة. دى تالت
 جواز.. فرح إيه وهباب إيه.
 وارتفع صوت إسماعيل سكر :
 - الساعة كام يا جماعة.. اوعى تكون الست ابدتت.
 ونظر شكرى ناجى فى ساعته وقال :
 - ياه.. الساعة عشرة ونص.. دى زمانها ابدتت من زمان.
 وقام محمد برعى وأدار مفتاح الراديو، ثم التفت قائلاً :
 - طيب لو كانت البلد عليها التزامات، وكلنا لازم نتحملها

■ الله .. الله .. يا ست ■

يبقى لازمة الأرباح اللي بيوزعوها دي إيه.. طيب ما بلاش أرباح، ويسيبوا ماهيتنا فى حالها.

وقال الأستاذ عبدالعزيز :

- الأرباح دي لها هدف تانى.. هدفها إشعار العمال بأنهم ملاك.

وقال شكرى ناجى :

- واشمعنى يا أخى العمال وموظفى الشركات يبقوا ملاك.. واحنا يا بتروح الحكومة.. احنا يا لللى شالين الهم على دماغنا، اشمعنى احنا كمان ما نبقاش ملاك.. ليه ما يوزعوش علينا نسبة من أرباح الحكومة.

وقال الدكتور رفعت :

- مش مفروض الحكومة تربح.

وقال محمد برعى :

- بلاش نقول ربح.. نسميه دخل.. نسميه إيراد.. الحكومة إيرادها بيزيد كل سنة، ليه ما يوزعوش علينا نسبة من زيادة الإيراد، باعتباره أرباح.

وقال الأستاذ عبدالعزيز :

- يا جماعة ماتنسوش أن الموظفين كانوا دايما متمتعين بضمانات كافية.. عندهم معاشات، وأجازات وحماية من الرفق.. إنما العمال ماكانش عندهم حاجة أبدا.. ومن حقهم أنهم ياخدوا حقهم.

وقال شكرى ناجى :

- طيب بلاش الموظفين.. الفلاحين.. فلاحين الإصلاح الزراعى.. مش الإصلاح الزراعى بيحقق أرباح .. طيب

■ الله .. الله .. يا ست ■

الفلاحين اللي بيشتغلوا فيه واللى ما أخذوش خمس فدادين.
ما بياخدوش أرباح ليه.

وقال الدكتور رفعت :

- والله الكلام دم لازم يتكتب فى الجرايد.

وقال الأستاذ رفعت :

سيبك من الجرايد.. كل اللى بيتكتب فى الجرايد نوع من
اللى نسميه مقالات تبريرية.. يعنى الحاجة تتعمل الأول
وبعدين الصحافة تبررها، تقول اتعملت ليه.. ما عندناش
مقالات توجيهية.. ولا كاتب توجيهي.

وقال شكرى ناجى موظف الاستعلامات :

- لا.. مالکش حق يارفعت.. الجرايد مش ساكتة.. ده احنا
عندنا كل يوم ميت شكوى من الجرايد بيبعتها الوزراء
ورؤساء مجالس الإدارات.. هو بس.

وقطعت حديثه دودى وقد قامت تطوف بعربة الشيكولاتة.

وقال الدكتور رفعت وهو يلوك قطعة من الحلوى فى فمه :

- ما تخرجش من الموضوع.. تعرفوا العامل النهاردة
بتوصل ماهيته كام.. أربعين وخمسين جنيه.. وامبارح عبدالله
خليل المهندس فى مطبعة النهضة قاللى إن الأسطى عندهم
ماهيته وصلت لمائة جنيه.

وقال اسماعيل :

- والله أنا بافكر ما ادخلش ابنى الجامعة ووديه يتعلم
صناعة.

وقال عبدالعزيز :

- صح.. ده اللى لازم يحصل.. جامعة إيه وبتاع إيه.

وقال محمد برعى :

■ الله .. الله .. يا بست ■

- برضه يا عبدالعزيز.. يعنى لو جالك عامل يخطب بنتك
ترضى .

وقال عبدالعزيز :

- ما أرضاش ليه.. مادام بيكسب، ويقدر يعيشها كويس.
وقالت دودى وهى تسحب صندوق الشيكولاتة من تحت
يده :

- إزاي بأه يا عبدالعزيز بيه.. بأه ده كلام.. الأصل برضه
عليه عمل.

وقال عبدالعزيز :

- أصل إيه يا دودى هانم.. ده كلام بتاع زمان.

وقال محمد رفعت :

- والثقافة .

وقال عبدالعزيز :

- الثقافة فى القراية، مش فى الشهادة.. يعنى أنا كنت
اتثقت فى كلية الحقوق.. أبدا والله، لولا الكام كتاب اللى
قريتهم كان زمانى حمار.

وابتعدت دودى بعلبة الشيكولاتة واتجهت إلى ركن
السيدات.. واستقبلتها إنصاف قائلة :

- إلا قوليلى يا دودى.. أنتى لقيتى رز الشهر ده .

وقالت دودى :

- أبدا والله يا أختى.. بعث الواد النهاردة الصبح رجع من
غير رز.. إنما أنا دايمًا عاملة حسابى.. مخزنة شهرين لقدام.

وقالت قدرية :

- أنا مريحة نفسى.. عملت ماهية ثابتة للموظف بتاع
الجمعية. جنينه فى الشهر.. ومافيش جنس حاجة أطلبها

■ الله .. الله .. يا ست ■

مالقيهاش... وأول الحاجة ما تنزل الجمعية، أبس ألاقها عندي
فى البيت.

وقالت خديجة :

- أنا الشهر اللى فات كنت حاجيب لهم البوليس..

وقالت إنصاف :

- أوعى.. ده اللى بيحبيب البوليس.. بيفضل بعد كده جعان

طول عمره.. الموظفين بتوع الجمعية بيطلعوا دينه.. أوعى
تروحي للبوليس.

وقالت سوسن :

- أنا يا أختى عارفة الحاجات دى كلها بتروح فين.. دى

الحاجة يدوبك تنزل الجمعية أول الشهر، تبصى ماتلقيهاش
بعد ساعتين.

وقالت دودى ضاحكة :

- يمكن بيودوها غزة بدل البرفانات وعلب البلوبيف اللى

بتيجى من هناك.

وقالت إنصاف :

- يا أختى الناس هى اللى فجعانة.. والفلوس بقت كتير فى

أيدين اللى يسوى واللى ما يسواش.. وكل واحد همه على
بطنه.

ومد محمد برعى عنقه من ركن الرجال، صائحا :

- مش نتعشى بأه يا دودى !

وقالت دودى :

- هى الوصلة خلصت.

والتقت محمد برعى إلى الراديو، ثم عاد إليها قائلا :

- آه.. خلصت من زمان.

■ الله .. الله .. يا ست ■

وقالت دودي :

- طيب اتفضلوا.

وقام الجميع يتدافعون إلى حجرة الطعام.. وقال الدكتور
رفعت للأستاذ عبدالعزيز :

- تفتكر الست حاتغني إيه الوصلة الجاية ؟

وقال عبدالعزيز :

- أمل حياتي طبعاً.

وقال شكرى :

- يا سلام.. عظيمة الست دى.

المدرسة الحديثة

أنا رجل حرفتى الكلام .
لست محاميا .

لا .. إن المحامى يتحرك لسانه فى أفق ضيق محدود ، ومهما كان عبقرى فإن عبقريته سجيئة وراء قضبان من نصوص القوانين .. أما أنا ☐ فلسانى مطلق ، وعبقريتى مطلقة .. إنى أضع العالم كله على طرف لسانى ، وعبقريتى تجوب السماء والأرض بلا حدود .. وبلا قوانين .. بلا أى شىء .ولست خطيبا .

لا .. إن الخطيب يخاطب عواطف الجماهير .. أما أنا فحرفتى مخاطبة عقول الناس .. ليس كل الناس .. إنى أكره مخاطبة كل الناس .. ولكنى أخاطب مجموعة الأفراد الذين يملكون مصائر الناس .. الأفراد العباقرة الممتازين ، الذين تتطلب مخاطبتهم عبقرية خاصة ، عبقرية إنسان موهوب .. ويساوى إقناع الواحد منهم ، إقناع شعب بأكمله . والانتصار على واحد منهم - الانتصار بالمنطق - يساوى الانتصار على أمة .. يساوى فتح بلد واحتلاله .. أما الخطيب فهو ليس أكثر

■ المدرسة الحديثة ■

من راعى ماشية .. كل قدرته - مهما تفوق - هو أن يتجه بالماشية إلى حيث يريد .. ثم إن الخطيب يحتاج إلى صوت عال .. وأنا أكره الصوت العالى .. حديثي كله همس .. وصدقوني أن الكلمة الخفيفة الصوت أقوى ألف مرة من الكلمة العالية .. أقوى من كل صراخ العالم ، لو قالها لسان موهوب مثل لساني.

أنا - ببساطة - دبلوماسي .

لست وزيرا ولا سفيرا .. لا يمكن أن أضحي بمواهبى لأحمل هذه الأعباء الإدارية ، وأعباء البروتوكول وأعباء التحركات والإجراءات الرسمية التي حملها الوزير أو السفير .. وبرغم ذلك فإن لي مركزا في حكومتى لا يقل خطورة عن مركز الوزير أو السفير .. مركز خاص ممتاز ، برغم أنى لا أتردد كثيرا على الحفلات الرسمية .. ولا يشاهدنى أحد في الاجتماعات العامة ، ولا تتحدث عني الصحف إلا نادرا .. ولكنى دائما في مقابلات .. مقابلات هادئة حول فنجان شاي أو فنجان قهوة أو كأس من النبيذ .. مقابلات تنتهى دائما بحدث كبير .. حدث سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى .. ولا يهم بعد ذلك أن صورتي لا تبدو في هذا الحدث .. وأن الفضل فيه لا ينسب إلى .. لا يهم ..

وفي كل حكومات العالم رجل مثلى .. رجال لهم أهميتهم القصوى .. ولكنهم لا يظهرون على المسرح ، إنهم دائما بين الكواليس البعيدة ، الهادئة .. الخافتة الضوء .. في لقاءات مع رجال الدول الأخرى .. ويتكلمون .

والكلام ليس مجرد حرفة .

إنه فن .

فن اختيار الكلمة .

■ المدرسة الحديثة ■

وفن النطق بالكلمة .

إن اختيار الكلمة ، بمثابة اختيار اللون عند ما يهم الرسام برسم لوحة .. الكلمة هي اللون الذى يرسم آراءك ، ويرسم أهدافك .. والنطق بها بمثابة وضع اللون على اللوحة .. هل تضعه فى خط عريض .. أو تضعه فى خط رفيع .. وهل تضعه فاقعا أو تضعه خافتا .. وهل تضعه فى جرة فرشاة واحدة متصلة .. أو تضعه فى نقط مبعثرة .. و .. وأنت تختار الكلمة بعقلك .. أما لسانك فهو الفرشاة التى ترسم بها كلامك .
إنه فن .

فن كبير .

وهو فن يتطلب إعدادا خاصا لا يستطيعه أى واحد من هواة الكلام .. إنه يتطلب كنزا من المعلومات .. ليس فقط معلومات عن الموضوع الذى تتكلم فيه .. بل معلومات عن كل موضوع ، حتى نكون دائما على استعداد لنتكلم فى أى موضوع .. وأنا - بكل تواضع - أحمل فى رأسى معلومات تكفى لتوزع على ألف رجل كل منهم متخصص فى موضوع ، ويحمل فيه شهادة دكتوراه .. إن رأسى أنسكلوبديا قائمة بذاتها .. لا تقل اتساعا عن دائرة المعارف البريطانية .

والكلام فن يتطلب أيضا إجابة أكبر عدد من اللغات ، فإنك عندما تتحدث بنفس لغة محدثك تستطيع أن تكسبه بسهولة أكثر .. ثم إن استعانتك بمترجم تفقدك ثلاثة أرباع تأثيرك .. إن المترجم صديق تشك دائما فى خيانتك لك مع زوجتك .. وأنا أكره المترجمين ، ولا أثق فيهم ولست فى حاجة إليهم .. إنى أجيد سبع لغات .. أجيدها قراءة وكتابة وكلاما .. فما حاجتى إلى مترجم .

وفن الكلام يحتاج أيضا إلى قدرة على التمثيل .. لا يكفى

■ المدرسة الحديثة ■

أن تتكلم بلسانك .. بل بعينيك .. ويديك .. وأنفك .. وليس معنى هذا أن تقوم بحركات تمثيلية بحيث تبدو كممثل .. لا .. ولكن يجب أن يبدو الصدق فى عينيك عندما تريد أن تبدو صادقاً حتى لو كان كل كلامك كذباً .. ويجب أن يبدو التساهل على وجهك حتى لو لم تكن متساهلاً .. و.. لا تنس أبداً أن الذى تتحدث إليه ينظر إليك بعينه ، وأن كلامك يجب أن تكون له صورة على وجهك .

وأخيراً فإن فن الكلام يحتاج إلى مرونة .. مرونة فى كل شىء حتى فى مبادئك .. فليس المهم هو المبادئ .. ولكن المهم هو أن تصل إلى ما تريد .. وبعد هذا فإن الخطيئة يمكن أن تلبسها ثوب الفضيلة .. والنفاق يمكن أن تلبسه ثوب الصداقة .. و.. إن ألعن أنواع المتحدثين هم هؤلاء الذين يتحدثون باسم المبادئ ، إنهم غالباً لا يصلون إلى شىء .
إنه فن شاق .

وثقوا أنى ألث عقب كل لقاء أتكم فيه .. إن ما يتطلبه الكلام من القدرة على تركيز الذهن .. والسيطرة التامة على خلية من خلايا عقلك وعضلاتك ، عملية منهكة .. عنيفة .. إنى أحتاج إلى راحة ست ساعات على الأقل عقب كل ساعة كلام .. وبرغم ذلك فإن تعبى لا يهم مادمت أستطيع أن أرسم بلسانى هذه اللوحات الرائعة .. اللوحات التى أقنعت وآمن بها كل من تحدثت إليهم ، وانتهت بعقد كثير من المعاهدات بين حكومتى والحكومات الأجنبية ، وكثير من الاتفاقات التجارية والمالية ، بل حلت كثيراً من الأزمات السياسية .

ولا تعتقدوا أنى كبير فى السن .. لا .. فبرغم موهبتى ونجاحى ، فأنا اليوم لا أتجاوز الأربعين من عمرى ، وكنت فى الثامنة والثلاثين من عمرى عندما التقيت بكوثر لأول مرة .

■ المدرسة الحديثة ■

التقيت بها فى حفل صغير ضم بعض الرجال الدبلوماسيين - أمثالى - وزوجاتهم .. ووقعت عليها عيناي وهى ترقص « التويست » .. آسف لعلها كانت ترقص « الباسانوفيا » .. وجدت نفسى أتتبعها باهتمام كبير حتى إنى - ربما لأول مرة - نسيت أن وزير خارجية بولونيا يجلس بجانبى وأنها فرصة مناسبة لأرسم له بلسانى لوحة من لوحاتى .

إن كوثر رائعة .. إن جسدها ينساب وهى ترقص كأنه قطعة موسيقية قائمة بذاتها .. وكل قطعة من جسدها ترقص فى رقة وبساطة وحلاوة حتى أصابع يديها ترقص .. ليس فيها قطعة واحدة ليست متأثرة باللحن ومنساقة إليه .. واستنتجت أن كوثر لا بد أن تكون كريمة أحد الزملاء المدعويين .. فعمرها لا يمكن أن يزيد على الثانية والعشرين .. والأسلوب الذى ترقص به لا يمكن أن يكون أسلوب سيدة متزوجة .. ونظرات عينيها فيها هذه اللمعة وهذا النشاط الذى لا تجده فى الزوجات ، وشعرها الفاتح الساقط على عينيها لا يمكن أن يكون شعر زوجة .. إنى خبير ، وأستطيع أن أفرق بين « الزوجة » و « الكريمة » فى لمحة واحدة .

وأخذت أسأل نفسى : ترى كريمة من من الزملاء ؟

وقبل أن تدلنى فراستى على أبيها انتهت الرقصة .. وجاءت كوثر وجلست بجانبى ولا أدري هل جاءت بجانبى بمجرد الصدفة ، أو لأن المقعد الذى اختارته كان أقرب مقعد إليها ، أو أنها تعمدت أن تختارنى لتجلس بجانبى .. لا يهم .. لقد التفت إليها وعلى فمى هذه الابتسامة التى تعودت أن أفتح بها قلب محدثى وأجذب بها اهتمامه .. إنى أثق كثيراً فى هذه الابتسامة .. إنها فى قوة الافتتاحية الموسيقية التى تعزف قبل رفع الستار عن الأوبرا .. ولكن يبدو أن كوثر كانت مشغولة

■ المدرسة الحديثة ■

عن ابتسامتى .. فقد جلست بجانبى وهى تدق على الأرض
بقدمها الصغيرة الأنيقة على نغمات الموسيقى الراقصة ..
وجسدها يتميل فى هزات رشيقة .. وتطرق بأصابعها بين
الحين والحين .. وهى تغنى فى صوت خفيض هامس :
- تويست .. تويست .

لا يهم .. إنى واثق أنى أستطيع أن أرسم لها بلسانى لوحة
شائقة تبهرها وتجذب انتباهها .. وقد كنت دائما قادرا على أن
أبهر النساء .. بل إنى كنت أتعلم أن اجتذب اهتمام السيدات
كوسيلة من وسائل إقناع أزواجهن ، وكان مبدئى : « إذا
كسبت الزوجة فقد كسبت الزوج » ، وقد كسبت جميع زوجات
الرجال الكبار الذين كلفتنى حكومتى بالتحدث إليهم ..

وقلت لكوتر بادئا الحديث معها ، وقد وضعت فى عيني
نظرة فيها بعض البريق ، وبعض الحنان ، وبعض الجدية ،
وجعلت صوتى مليئا ولكن لا يخلو من المرح :

- إنتى بترقصى مدهش يا آنسة .. تعرفى أن الرقصات
الحديثة دى زى التويست والباسانوفيا ، دى فى الواقع مش
حديثة .. دى مأخوذة من الفولكلور الإنسانى .. أقدم فولكلور
فى العالم .. يعنى أيام ما كان الإنسان لسه عايش فى الغابة ..
كان يرقص كده . وعلشان كده أول ما ظهرت الرقصات دى
كانت قريبة من قلب الإنسان و ..

وقاطعتنى كوتر قائلة بسرعة :

- واحد قلبه وقف نزل يرقه .. ها .. ها ..

وانطلقت تضحك ، ضحكات رقيقة ناعمة لها صوت كصوت
الأجراس المعلقة فى رقاب البقر وهى ترعى فى جبال سويسرا.
وارتبت أنا ..

الواقع كانت مفاجأة لى .. ولكنى تماكنت نفسى بسرعة ،
وضحكت معها .

■ المدرسة الحديثة ■

ثم كفت كوثر عن الضحك ، وعادت تتمايل وتدق بقدميها على أنغام الموسيقى الراقصة .. وعدت أنا إلى رسم لوحتي بلساني ، وقلت :

الواقع مش بس الرقص هو اللي أصبح يستمد خطواته من الفولكلور القديم .. الحلى مثلا .. يعنى الأساور اللي بنشوفها النهارده فى أيدين الستات و .. وعادت كوثر تقاطعنى قائلة :

– مرة واحدة حلق والثاني غويشة .. ها .. ها ..

وسخسخت على نفسها من الضحك .. وارتبكت مرة ثانية ، ولكنى بسرعة ضحكت معها .. سخسخت أنا الآخر .. ثم عدت أقول بعد أن أفقنا من السخسخة:

– أنا مرة كنت فى إنجلترا وزرت قصر اللورد . وقاطعتنى كوثر

– واحد نوبة راح قصر الدوبارة اتكعبل .. ها .. ها .. واستطردت بسرعة :

– واحد نوبة ربي فراخ فى قفص صدره ، ها .. ها .. ها .. و ..

– واحد راح سينما رياتو نزلت .. ها .. ها .. و ..

– واحد قالوا له الصالون الأخضر فاتح ، راح لقاء غامق .. ها .. ها .. ها ..

ولم تسكت إلا عند ما تقدم لها أحد الضيوف وطلبها للرقص .

وتركتنى مذهولا ..

لا يمكن أن تكون كوثر سخيصة وتافهة إلى هذا الحد .

■ المدرسة الحديثة ■

لا .. ليست سخيقة ولا تافهة .. أفهمونى ، كل ما هنالك أن
كوثر تؤمن بمدرسة فنية غير المدرسة التى أوّمن بها .. إنها من
أنصار المدرسة التجريدية .. والتجريد فى الرسم معناه أن
تجرد اللوحة من الموضوع ، وتقتصر فيها على الألوان
والخطوط . وتأثير الألوان والخطوط يغنى عن الموضوع .. أى
أن تضع اللون الأسود ، بجانب الأبيض ، بجانب الأخضر ،
بجانب الأسود .. وهذا يكفى .. يكفى لتكوين لوحة رائعة ..
لوحة تجريدية .. وكذلك فى فن الكلام ، إنك تستطيع أن تجرد
كلامك من الموضوع ، ثم تنتقى مجموعة من الألفاظ تضعها
بجانب بعضها البعض بحيث تترك تأثيرا على السامع .. أى
تأثير .. تأثير بلا موضوع .. وهذه هى المدرسة الحديثة ..
والمدرسة الحديثة فى الرسم لها أنصار كثيرون ، وبعض
اللوحات التجريدية تباع بالآلاف الجنيهات ، وكذلك المدرسة
الحديثة فى الكلام ، لها أنصار كثيرون ، ولها تأثير كبير .

وبدأت أراجع كلام كوثر :

- واحد حلق والثانى غويشة .. ها .. ها .. ها ..

ضحكت فعلا .. ضحكات من كل قلبي .

- واحد قلبه وقف نزل يزقه .. ها .. ها .. ها ..

إنى أضحك .. أضحك كما لم أضحك قط فى عمرى .. إن
المدرسة التجريدية لها تأثير كبير .. تأثير مباشر .

وكوثر ليست تافهة ولا سخيقة ، إنها من أكبر أنصار
المدرسة التجريدية .

ولا أطيل عليكم .

لقد تزوجت كوثر .

ومضى عام ونحن نكاد نظير من السعادة .. إننا فى جنة
صنعناها من حبنا ومن توافق أمزجتنا وشخصياتنا . وإيمانى

■ المدرسة الحديثة ■

بالمدرسة التجريدية يشتد ، وقد جمعت خلال هذا العام من لوحات الكلام التجريدى ، عشرات .. مئات .. ربما أكثر مما جمعت كوثر طول حياتها .

ثم لا أدري ماذا حدث .

ماذا حدث حتى تطردنى حكومتى من عملى هذه الطردة الشنيعة ، دون ذنب جنيته ، وبعد أن خدمت عشر سنوات ساهمت خلالها فى عقد كثير من المعاهدات والاتفاقات وحل كثير من الأزمات .

كل ما أذكره أن الوزير استدعانى مرة إلى مكتبه ، وبدأ يحدثنى عن الأوضاع السياسية فى الكونغو وقال فى ضمن كلامه :

— إن مبادئ المرحوم لومومبا لا تزال .. وقاطعته قائلاً :

— واحد لومومبا والثانى مالوش .. ها .. ها .. ها .

إنها لوحة تجريدية رائعة ..

ولكن الوزير لم يضحك .. لقد نظر إلى نظرة هائلة ، وزم شفتيه فى قرف .. لا يهم .. إن سيادته ليس من أنصار المدرسة التجريدية فى الكلام .. وأنا برغم إيمانى بالمدرسة التجريدية ، لست متعصباً لها ، إنى أقبل جميع المدارس الأخرى واحترمها .

ولكن السيد الوزير ظل ينظر إلى هذه النظرة الهائلة ، وشفته مزمومتان فى قرف .. ثم أنهى المقابلة فجأة ، وصرفنى من مكتبه .

وفى اليوم التالى تلقيت خطاب الاستغناء عن خدماتى .
لماذا ؟

لست أدري .

غاية من السينان ..

لم أكن أبدا هذا الإنسان.
كنت دائما إنسانا مثاليا.. ربما منذ ولدت وأنا
مثالى.. ولم أكن أدري أننى مثالى.. لم أر صورة
أخرى من صور الحياة حتى أقارن بينها وبين ☐
صورة حياتى، ثم اكتشفت من المقارنة أننى مثالى.. أبدا.. كنت
أعتقد أن الحياة كلها هى هذه الحياة التى أعيشها، الحياة
الهادئة، الجادة.. طريقها نور، وسماؤها عفة، وأرضها علم
وثقافة وعمل.

وبيتنا الكبير هادىء دائما، نظيف دائما، لم ترتفع فيه يوما
كلمة نابية، ولا دوى فيه صراخ، ولا مر بين جدرانها حادث
يمكن أن يضع معانى الفضيلة والعفة موضع مناقشة.. وأبى
يملا البيت بهيبته، وطيبة قلبه، وإحساسه الكبير بالمسئولية..
وأمى تملؤه بجمالها، وحنانها، وبأرقى صورة من صور
الأمومة الطاهرة.. وأنا أذهب إلى المدرسة وأعود لأستذكر
دروسى ثم أشغل نفسى بهوايتى للرسم، أو أذهب إلى النادى

■ غابة من السيقان .. ■

القريب لألعب التنس.. وهى هواية ثانية من هواياتى.. أو أنزل إلى ورشة النجارة الصغيرة التى أقامها لى أبى فى البدروم، لأصنع أشياء من الخشب.. فقد كانت النجارة هوايتى الثالثة.. أو أقرأ، فالقراءة أيضا إحدى هواياتى.. وإخوتى لكل منهم هوايته التى يشجعهم عليها أبى.. وكلنا نعيش فى هذا العالم المثالى النظيف.. عالم كله حب، وكله طهر، وعفة، وفضيلة، ومتع راقية عميقة.. متعة العقل.. متعة الروح.. متعة الرضا عن النفس.. متعة المثالية.

إلى أن تخرجت فى كلية الحقوق.

وعملت محاميا فى مكتب أبى.

ومكتبنا - أقصد مكتب أبى - كبيتنا.. مكتب نظيف، عف، مثالى.. لم يدخله أبدا مجرم، ولا تولى الدفاع أبدا عن جان.. وليس بين دوسيهاته قضية مخدرات أو زنا، أو أى قضية أخرى من هذه القضايا التى تمس الفضيلة والشرف.. كانت كل قضايانا قضايا أنيقة مهذبة، تقوم على خلاف فى تفسير القانون، أو على أخطاء فى الإجراءات، أكثر مما تقوم على نية الإجرام والتعدى.. قضايا الشركات والضرائب، والاستشارات القانونية للهيئات المحلية والأجنبية.. و.. و.. وكان أبى - رحمه الله - يقول لى دائما إن المحامى يجب أن يكون أولا قاضيا، يحكم فى القضية التى تعرض أمامه، قبل أن يعرضها على المحكمة.. ليس من مهمة المحامى أبدا أن يستغل علمه بالقانون ليتحايل على العدالة، ولا أن يبرىء مجرما.. إن مهمته هى نفس مهمة القاضى.. وكما يعد القاضى حيثيات حكمه.. فكذلك يعد المحامى دفاعه عن حكمه.. ولذلك سميت المحاماة : « القضاء الواقف » ، لأن القضاء الآخر « قضاء جالس » ..

■ غابة من السيقان .. ■

وعلى هذا الأساس كان أبى يرفض كثيرا من القضايا التى يأتى بها أصحابها إلى مكتبنا.. يرفضها مهما بلغ إغراء الأتعاب التى تعرض عليه.

وسلكت سلوك أبى فى المحاماة، السلوك العف النزيه الجاد.. وتفوقت.. تفوقت لأنى أحببت عملى.. بل إن المحاماة لم تعد مجرد عمل.. بل أصبحت هواية أضمتها إلى مجموعة هواياتى الكثيرة.. وعندما توفى والدى إلى رحمة الله، لم أخسر موكلا واحدا من موكلية.. كلهم وثقوا بى ثقتهم بأبى.. وفى نفس العام الذى تخرجت فيه فى كلية الحقوق، تزوجت نيفين.

تزوجت وأنا فى الثالثة والعشرين من عمري.. وكانت نيفين أجمل فتاة التقت بها عيناى فى حياتى.. وبرغم ذلك لم يكن جمالها هو كل شىء.. كان فيها هذا العبير الهادئ العميق الذى يفوح من بنات الناس الأصلاء.. عبير الحنان.. الطهر.. التعفف.. الرقة.. الطيبة.. الفهم.. عبير المثالية.. كانت نيفين مثالية مثلى.. ولم نكن فى حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لنشعر بارتباطنا إلى الأبد.. رباط الحب الأكيد، الحلو، الرائق كقطرات الندى.. وأصبحت زوجا مثاليا.

أذهب إلى المحاكم فى الصباح، وأعود فى الساعة الواحدة لأتناول طعام الغداء، وأستريح قليلا ثم أذهب إلى النادى للعب التنس.. وفى المساء أذهب إلى المكتب لأبقى فيه حتى التاسعة وأعود إلى بيتى لأجلس مع أولادى، أو أمارس إحدى هواياتى، إن لم تكن - نيفين وأنا - مدعوين على العشاء عند أحد من أصدقائنا الكثيرين.

■ غابة من السيقان .. ■

خمسة عشر عاما مرت وأنا هذا الزوج المثالى.. عشتها بين عيني نيفين الهادئتين، وابتسامتها الحلوة، وحنانها الفياض، وروحها النقية. وأولادنا حولنا ملائكة، أى والله.. ملائكة. إلى أن دخلت حياتى سميحة.

سميحة هانم.. حرم المهندس المعروف مصطفى الشريف. جاءت إلى مكتبى تستشيرنى فى مشكلة خاصة بضريبة التركات المستحقة عليها بعد وفاة والدها.. ولم أكن أعرفها.. ولكنى كنت أسمع عن زوجها المهندس الكبير مصطفى الشريف.. وكنت أحد المعجبين بفنه العمارى الرائع.. ومن أجل زوجها، واسمه الكبير، استقبلتها باهتمام واحترام شديد.

ولا أدري كيف وجدت نفسى بعد دقائق من دخولها إلى مكتبى، أستمع إليها وهى تحدثنى فى مواضيع بعيدة كل البعد عن ضريبة التركات.. كانت تحدثنى عن حياتها العائلية، وعن الناس الذين تعرفهم وعن الأفلام، وعن الكتب.. وكان حديثها من هذا النوع الذكى الذى يشدك إليه.. ولا تمله.. الحديث الذى يوقظ انتباهك كلما فتر.. ويثير فيك كل ما تملكه من عواطف.. إثارة عابرة.. لقد جعلتنى أضحك.. وجعلتنى أحزن.. وارتفعت بى وانخفضت بى.. إنى لم أقابل أبدا مثل هذه السيدة.. واكتشفنا أنه مرت بنا ساعة.. ربما أكثر.. ونحن لم ننته بعد من بحث موضوع ضريبة التركات.

وانصرف على أن تعود.

وليلتها قلت لزوجتى نيفين :

— جاءت إلى المكتب الليلة سميحة هانم حرم المهندس مصطفى الشريف.. أتعرفينها ؟

قالت فى صوتها الهادىء ولسانها العف :

■ غابة من السيقان .. ■

- سمعت عنها .
قلت :
- إنها سيدة مليئة بالحيوية .
وقالت نيفين :
- كلها نشاط .. إنها فى كل مكان .
والواقع أن سميحة لم تترك فى أثرها بعد لقائنا الأول إلا
انبهارى بشخصيتها النشيطة المتدفقة .. انبهار كاد يتلاشى مع
الصباح .
ثم عادت سميحة .
وعادت مرة أخرى .
إنها قطعاً ليست أجمل من نيفين .. ولكن فيها شيئاً .. ليس
فى نيفين هذا التدفق .. هذه القدرة الطاغية على جذب كل
خيوط انتباهك .. وتحريك مشاعرك .. إنه شيء ليس فى نيفين .
وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقارن فيها بين نيفين وأى
امراة أخرى .. بل كانت المرة الأولى التى أعتقد فيها أن هناك أى
امراة يمكن أن تقارن بنيفين .. أكثر .. كانت المرة الأولى التى
أرى فيها بعينين يقظتين متعمدتين امراة أخرى غير نيفين .
وجاءت سميحة ذات مساء .
وجلست تستولى على كل اهتمامى .. كأنها تنيمنى تنويماً
مغناطيسياً .. ثم قالت :
- ليس معى سيارتى .. هل توصلنى بسيارتك .
ونظرت فى ساعتى .. التاسعة ، موعد انتهاء العمل .
- لا مانع .
وركبت بجانبى ، وحديثها لا يكف عنى .. تجعلنى أضحك
وتجعلنى أفكر معها .. أفكر فى أشياء تافهة لم يكن يخطر ببالى

■ غابة من السيقان .. ■

أنى سأفكر فيها يوما.. الأزياء، نجوم السينما، أى شىء..
ووقفت بها أمام بيتها.. وقالت فى بساطة :
- هل لك فى كأس ؟

وترددت.. فعادت تقول :

- قد نستطيع فى جلسة عائلية أن نحصر تفكيرنا فى
موضوعنا.. أقصد قضية الضرائب.
وعدت أنظر فى ساعتى.
التاسعة والنصف.

أستطيع أن أتأخر قليلا عن البيت.
ودخلت معها.. وكنت أعتقد أنى سأقابل زوجها المهندس
مصطفى الشريف.. ولكنه لم يكن فى البيت.. إنه فى
الاسكندرية.

وعدنا إلى حديثنا.

وشىء أكثر صراحة ينطلق من عينيها، وينطلق فى كلماتها..
ولم أكن ساذجا إلى هذا الحد.. إنى أعرف بالضبط ماذا تريد..
ويجب أن أقاوم.. يجب.. إنى رجل مثالى.. وزوج مثالى.. وهى
زوجة.. وزوجها معروف.. إنى أحترم زوجها.. ولكنى كنت قد
نسيت الزوج.. نسيته ربما من أول لقاء.. إن شخصيتها الطاغية
لا تترك مجالا لذكر زوجها.. ومقاومتى تضعف.. وتضعف..
إلى أن وجدت عمرى كله ينهار.. ثمانية وثلاثون عاما من
المثالية تتساقط هشة كالأوراق المحترقة.

وعدت إلى بيتى.

ولأول مرة لا أستطيع أن أواجه نيفين بعينى.. ولا أولادى..
عيناى منكستان.. رأسى منكس.. قلبى منكس.. ضميرى
منكس.. فى ضميرى حسرة صارخة كأنى خسرت كل رأس

■ غابة من السيقان .. ■

مالى على مائدة القمار فى لحظة واحدة.. ولم يكن لى رأس
مال أعز على من مثالىتى.
ولم أنم..

ونسيت فى الصباح أن أقبل أولادى.. وأقبل نيفين.. وجرت
نيفين ورأى، ولحقت بى عند الباب وهى تنظر إلى فى دهشة
بريئة.. ومدت إلى خدها، فقبلتها قبلة سريعة كأنى كنت أخشى
على خدها الطاهر أن تلوثه شفتاى.
وكان يجب أن أقاوم.
أقاوم سميحة.

وقد استطعت أن أقاومها فى التليفون، ولكنى لم أستطع أن
أستمر فى مقاومتها عندما جاءت إلى مكتبى بنفسها لتأخذنى
إليها.. إن سحرا طاغيا يرقد فى عينيها السوداوين الكبيرتين..
سحر الخطيئة.. وانهرت.. أنا الذى كنت أفخر دائما بقوة
إرادتى.. انهرت.. ربما لأن كل قوى فوقه من هو أقوى منه..
وهاتان العينان السوداوان الكبيرتان أقوى منى.
والانهيار يأكل أعصابى.

إنى أتغير.. إنى لم أعد هذا الإنسان الهادىء الطاهر المثالى..
إنى إنسان عصبى.. تافه.. ضائع.. أهملت جميع هواياتى بما
فيها هواية الحمامة.. أسرح كثيرا.. وكما وخزنى ضميرى
صرخت فى وجه نيفين.. كأنى أحاول أن أسكت صوت
الضمير تحت صوت الصراخ.. أو كأن نيفين هى ضميرى الذى
أحاول أن أسكته. وهى تنظر إلى فى رهبة تشوبها الشفقة،
وفى عينيها تساؤل حائر.. ماذا بى.. لعل مريض.
وسميحة تتحدث كثيرا عن نيفين.

إنها تريد أن تتعرف إليها.

■ غابة من السيقان .. ■

— لماذا ؟

— لأزداد قربا منك.. يا حبيبي.

ولم أرد.

إنى لا أريد أن أجر خطيئتي إلى بيتي.

ثم فوجئت يوما بنيفين تقول لى فى صوتها الهادىء،
ولسانها العف :

— أتدرى.. تعرفت اليوم إلى سميحة هانم حرم المهندس
مصطفى الشريف.. إنها سيدة رائعة.. دعوتها غدا إلى الشاي
مع بعض الصديقات.. دعوة للسيدات فقط.
وذعرت.

لقد وصلت الخطيئة إلى بيتى.

ولكن.

هل الخطيئة هى سميحة ؟

وأنا.. ألسن النصف الآخر من الخطيئة.. وأنا أقيم فى هذا
البيت.. فلماذا لا تأتى إليه سميحة أيضا.
وسكت.

وجاءت سميحة.

وزوجتى مبهورة بها.. إنها تتحدث عنها كأنها تسير فى
مظاهرة تهتف باسمها.. تحيا سميحة.. تعيش سميحة.. إلى
الأمم يا سميحة.. وشعرت بنوع من الزهو الخبيث المريض،
وزوجتى تتحدث عن إعجابها بسميحة.. شعرت كأن زوجتى
تهنئنى على ذوقى فى اختيار النساء.. كأنها تهنئنى على هذا
الانتصار يوم نلت سميحة..

وسميحة تتحدث كل يوم فى التليفون مع زوجتى.. فى
البيت.

■ غابة من السيقان .. ■

وتتحدث معى كل يوم فى التليفون.. فى المكتب.
ثم مفاجأة أخرى.
إن سميحة تدعونا - زوجتى وأنا - إلى العشاء عندها.
وقد وجهت سميحة الدعوة عن طريق زوجتى دون أن
تخبرنى بها.. كأنها بذكائها النسائى كانت تعلم أن زوجتى
أقدر على إقناعى بقبول الدعوة.
لا.. لن أقبلها.. إنى مشغول.. مشغول.
وزوجتى تلح.
ثم فوجئت بالمهندس مصطفى الشريف يتحدث إلى فى
التليفون.. وارتعشت يدى التى تحمل السماعة عندما نطق
اسمه.. وسقط قلبى.. ولكنه يشكرنى.. يشكرنى على اهتمامى
بقضية زوجته ويكرر دعوة سميحة التى وجهتها إلى زوجتى..
كل الأصول روعيت.
هى دعت زوجتى.
وزوجها دعانى.
فلا أستطيع الرفض.
وذهبنا.. وكل شىء منى ليس فى مكانه.. ابتسامتى ليست
فى مكانها المعتاد فوق شفتى.. ونظرتى ليست فى مكانها
المعتاد من عيني، وقلبى ليس فى مكانه المعتاد بين ضلوعى..
وأشياء فى داخلى ترتعش.. كأنى آلة انفكت صواميلها..
وخفت.. خفت أن يلمح الناس عى وجهى بصمات خطيئتى..
خفت أن يكون فى صدرى ميكروفون يذيع على الناس كل
ما فيه من أسرار.
ولكن لا شىء حدث.
سميحة تبدو طبيعية.. مرحة، رائعة.

■ غابة من السيقان .. ■

ولابد أنى أنا الآخر أبدو طبيعيا.
إن الخطيئة تتحرك ببساطة فى بيوت الناس دون أن يلحقها
أحد.. الخطيئة ليس لها وجه.. ليس لها رائحة.. ليس لها
صوت.

وراعتنى هذه البساطة التى يمكن أن تعيش بها الخطيئة
فى المجتمعات، ووجدت نفسى أتساءل.. إذا كانت هذه هى حال
الخطيئة فى المجتمع.. لماذا لا يكون فى هذا الحقل خطايا أخرى
غير خطيئتى أنا وسميحة.. لماذا أفترض أنى بين كل هؤلاء
الدعويين الزوج الخائن الوحيد.. ولماذا أفترض أن سميحة هى
الزوجة الخائنة الوحيدة؟

وبدأت دون أن أشعر أبحث عن خطايا الناس فى
تصرفاتهم، وفى كلماتهم، وفى نظراتهم.. إن فلانا ينظر إلى
فلانة طويلا.. وفلانة تركت يدها مدة أطول من المعتاد فى يد
فلان وهى تصافحه.. و..

وأصبحت هذه هى هوايتى الجديدة.
هوايتى الوحيدة.

وقد أصبحنا - نيفين وأنا - نخرج كل مساء مع سميحة
وزوجها.. وكنت أضحك فى صدرى ونحن نتحرك معا.. إن
عددنا ليس أربعة.. عددنا ستة.. زوج وزوجته، وزوج آخر
وزوجته، ثم عشيق وعشيقتة.. والمجموع ستة لا أربعة.. ها..
ها.. ها.. فلسفة، عبقرية.. وفى كل مكان كنا نذهب إليه، سواء
ذهبنا إلى حفلة أو إلى سينما أو إلى ملهى.. أبدا فى ممارسة
هوايتى.. اكتشف خطايا الناس، واستنتجها من تصرفاتهم
وهمساتهم.. وكنت أجد لذة فى ممارسة هذه الهواية.. لذة
فائقة.. أسابيع طويلة مرت وأنا أمارسها.. ولذتى بها تكبر.

■ غايبة من السيقان .. ■

ثم..

وكنا مدعويين نحن الأربعة.. آسف نحن الستة.. إلى حفل ساهر.. وسقطت عيناى على وجه نيفين.. زوجتى نيفين.. وإذا بى أتساءل : لما أعفيت نيفين من هوايتى.. لماذا لم أبحث فيها هى الأخرى عن الخطيئة.. لماذا.. لأنها مثالية ؟ ولكنى كنت أنا الآخر مثاليا، ولم أعف عن الخطيئة.. ربما هى الأخرى وقعت كما وقعت ؟

وبدأت أنظر إلى نيفين بعينين جديدتين.

وخيل إلى أنى أرى فى عينيها نفس اللعة التى أراها فى عيني سميحة.. وأرى على شفتيها نفس الابتسامة الواثقة المتحدية.. وألح فى حديثها نفس الذكاء ونفس الشخصية الجذابة.. و.. و..

وبدأت أختل.

إنى لا أرفع عيني عن نيفين.. وقد كنت أمارس هوايتى على الناس فى الحفلات والمجتمعات فقط.. فأصبحت أمارس هوايتى على نيفين طول النهار والليل.. فى البيت وخارج البيت.. إنى أتصنّت عليها وهى تتحدث فى التليفون.. وأفتح دواليبها فى غيبتها.. وأتظاهر بالنوم حتى تنام، ثم أفتح عيني وأبقى يقظا طول الليل لعلها تقول شيئا فى أحلامها يدلنى على ما فى ضميرها.

ونيفين صابرة.

وأنا أختل.. وفى كل يوم أختل أكثر.

إلى أن كان هذا اليوم.

وكنا مدعويين نحن الأربعة.. آسف.. نحن الستة.. إلى حفل عشاء يضم أكثر من عشرين مدعوا ومدعوة، التقوا جميعا

■ غابة من السيقان .. ■

حول مائدة واحدة كبيرة.. كل زوجة بجانبها رجل ليس زوجها.. وكل رجل بجانبه سيدة ليست زوجته.. هذه هي التقاليد.. التقاليد الاجتماعية المعترف بها.. ليس من حقك أن تطالب بأن تجلس زوجتك بجانبك.. عيب أن تجلس الزوجة بجانب زوجها.. فضيحة كبرى.. إن زوجتك بجانب رجل آخر.. وكأن زوجاتنا كلهن من بنات الجيشا، مفروض أن ترفه كل منهن عن الرجل الذي يوضع بجانبها تقول له كلاما حلوا.. وتبتسم له ابتسامة حلوة.. وتنظر إليه نظرة حلوة.. تقاليد الجيشا.

ووضعوني بجانب سميحة.. أو وضعوا سميحة بجانبى.. إنهم دائما يضعون أحدا بجانب الآخر وكأن هناك اعترافا ضمنيا من المجتمع بخطيئتنا.

ومدت سميحة ساقها ولفتها حول ساقى من تحت المائدة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى.

إنها دائما تلف ساقها على ساقى من تحت المائدة، وتخبط ركبتيها بركبتي، كلما جلست بجانبى.

واستسلمت ساقى لساقها.

نامت عليها.

ثم فجأة تذكرت نيفين.

من أدرانى ؟!

واعتدلت فى جلستى.

إنها تجلس فى الناحية المقابلة من المائدة.

ولا يبدو على وجهها شىء.

ولكن سميحة أيضا لا يبدو على وجهها شىء.. ولو نظر

■ غابة من السيقان .. ■

المهندس مصطفى الشريف فى وجه زوجته فلن يرى ساقها ملتفة حول ساقى.

إن الخطيئة لا تبدو فوق المائدة، ولكنها تعيش تحت المائدة. وتعمدت أن أسقط السكين الذى أكل به على الأرض، وانحنيت لالتقطه، ونظرت تحت المائدة.. ولكنها نظرة سريعة غير مركزة لم ألمح من خلالها شيئاً.

وبعد فترة عدت وأسقطت الشوكة.. وحاولت أن أنظر تحت المائدة.. كانت نظرة أطول وأكثر جرأة من النظرة الأولى .. ولكنى لم أتمكن أيضاً من التأكد من حقيقة ما يدور تحت المائدة.

وحاولت أن أهدأ وأن أنسى الموضوع.. ولكن رغبة جامحة عنيفة تتملكنى لأرى ما يدور تحت المائدة.. ولعل سميحة لحظت اضطرابى فبدأت تتحدث إلى وتحاول أن تثير اهتمامى، وحاولت أنا الآخر أن أستمع إلى حديثها وأهتم به، ولكن الرغبة الجامحة العنيفة تلح على.. وتستبد بى.. تستبد بعقلى.. بأعصابى.. بدمائى.. إن بى رغبة جامحة فى أن أرى ما يدور تحت المائدة.

ولم أعد أستطيع أن أقاوم.

أسقطت نفسى من فوق مقعدى، وزحفت على يدي وركبتي ودخلت تحت المائدة.. ووجدت نفسى فى عالم غريب.. عالم خافت الضوء.. مثير.. ومن حولى سيقان كثيرة.. سيقان فى بنطلونات.. وسيقان حريمى.. سيقان رفيعة، وسيقان مليئة.. إنها غابة.. غابة من السيقان، ولو هبت الريح لاصطدمت السيقان بعضها ببعض كما تتصادم أفرع أشجار الغابة.. تتصادم هكذا.. هكذا.. وبدأت أمسك بالسيقان من حولى

■ غابة من السيقان .. ■

والصقها بعضها ببعض.. وأنا أصرخ : الريح هبت.. الغابة..
الغابة.. الغابة.



لقد كنت يومها أدرى تماما ما أفعله.. كنت فى وعيى.. كنت
أعنى أنى اسقطت نفسى من فوق المقعد، وزحفت إلى تحت
المائدة، وأمسكت بالسيقان أضدم كل ساق رجل بساق امرأة..
وكنت أسمع صوتى وأنا أصرخ : الغابة.. الغابة.. لم أكن
مجنونا . كل ما هنالك أنى لم أستطع أن أقاوم هذه الرغبة
الجامحة العنيفة التى استبدت بى.

ولكنهم اعتبرونى مجنونا.

وجذبونى من تحت المائدة.

ونقلونى إلى مستشفى بهمان.

وكان آخر ما رأيته هو دموع زوجتى نيفين، قبل أن يسرى
المخدر الذى حقنوني به فى عروقى وأناام.

وقد قضيت فى مستشفى بهمان ستة شهور.

وبرغم ذلك.

صدقونى.

أنا لست مجنونا.

وأنا أبحث عن عمل.

عبد الله .. وظائفه

يا حضرات القضاة.

أنا لا أطلب الرحمة.. أنا أطلب العدل.. وإذا كان هناك من يقول «الرحمة فوق العدل»، فإنني أقول «العدل فوق الرحمة».. إنني أتمسك بالعدل، وأرفض الرحمة.. ولا أريد أن أخاطب قلوبكم لأبحث فيها عن الرحمة، بل أكتفى بمخاطبة عقولكم باحثاً فيها عن العدل.. ومهما بدا في حالتي التي أعرضها عليكم من غرابة تصل إلى حد الشذوذ، فإنني واثق من أن عقولكم التي تمرست طويلاً على اكتشاف خيط العدالة، قادرة على أن تنصفني.. قادرة على أن تعطيني حقي، وتأخذ للمجتمع حقه على.

كل ما هنالك يا حضرات القضاة أنني لا أريدكم أن تحكموا على الظروف التي أحاطت بي عند ما ارتكبت جريمتي.. بل أريدكم أن تبحثوا عما فعلته هذه الظروف في نفسي.. في داخلي.. إن نفس الإنسان عالم قائم بذاته.. في داخل كل إنسان مدينة كبيرة. أكبر من مدينة القاهرة.. مدينة فيها شوارع

■ عبدالله .. وفاطمة ■

وحوارى وأزقة.. وفيها أتوبيسات وترمويات وسيارات تاكسى.. وفيها عمارات تنهدم، وعمارات تبنى.. وفيها زحام من الناس.. ناس كثيرون، يضحكون ويبيكون، ويتناقشون، ويصرخون.. ناس أشرار، وناس أخيار.. ناس ضعفاء وناس أقوياء.. والجريمة التى ارتكبتها وقعت داخل هذه المدينة.. جريمتى لم تقع فى شارع «السد» بحى السيدة زينب، كما تقول أوراق التحقيق.. ولكنها وقعت فى شارع آخر له اسم آخر، وفى حى آخر، وفى مدينة أخرى.. إنها وقعت فى هذه المدينة التى تسمى مدينة النفس الإنسانية.. المدينة التى تعيش داخلى.. وأنتم لن تجدوا الحقيقة إلا فى هذه المدينة. الحقيقة التى ستهدىكم إلى العدالة.

يا حضرات القضاة.

إنى أرفض فى إصرار هذا التحليل الذى تقدم به الأستاذ المحامى الذى انتدب للدفاع عني.. إنه يحاول أن يبرر جريمتى بالجنون.. وبرغم أنى أقدر حسن نواياه، وأقدر أن محاولة إثبات جنون المتهم هى أسهل الطرق للدفاع عنه.. إلا أنى أرفض هذه المحاولة.. أرفض أن أكذب عليكم.. أنا لست مجنوناً يا حضرات القضاة.. أنا فى كامل قوائى العقلية.. ولو أحلتمونى على الطبيب الشرعى، فيسكتشف بعد دقائق أنى عاقل.. عاقل جداً.. ولكن الأجدى لعدالتكم أن تنتدبوا خبيراً من خبراء علم النفس لينير أمامكم هذه الشوارع والحوارى والأزقة التى تتكون منها هذه المدينة الواسعة التى ترقد بكل ضجيجه داخل صدرى.. وعندما يضاء النور ستكتشفون أنى عندما ارتكبت جريمتى كنت فى حالة يسمونها فى علم النفس، حالة ازدواج الشخصية.. لم أكن ساعتها شخصاً واحداً.. بل كنت

■ عبدالله .. وفاطمة ■

شخصين.. كنت عبدالله محمد على جابر وكنت فى الوقت نفسه فاطمة السيد شفيق.

نعم يا حضرات القضاة.. كنت شخصين.. اثنين.. ولكن الجريمة كما ثبت فى التحقيق ارتكبتها شخص واحد.. فمن الذى ارتكبتها؟

هل ارتكبتها أنا عبدالله محمد على جابر.

أم ارتكبتها أنا فاطمة السيد شفيق؟

وتحديد الشخص الذى ارتكب الجريمة، أو على الأصح تحديد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة، يتوقف عليه حكمكم.. فإن ظروف كل من الشخصين مختلفة، والدافع لكل منهما على ارتكاب الجريمة يختلف.. والظروف والدوافع هى التى تحدد الحكم.. قد تحكمون بالإعدام، وقد تحكمون بالحبس البسيط لمدة ثلاثة أشهر، وقد تحكمون بالبراءة.. ولكن يجب أولاً أن تحددوا الشخص الذى ارتكب الجريمة.. أقصد الشخص الذى كنته عندما ارتكبت الجريمة.

يا حضرات القضاة.

أرجوكم.. طولوا بالكىم على.. ولا تنظروا إلى هكذا كائن مجنون.. إن حديثى قائم على أسس علمية صحيحة.. وقد درست علم النفس.. قرأت فيه أكثر مما قرأ البكاترة المتخصصون.. وقد دفعنى إلى دراسة علم النفس هوايتى للأدب.. أنا أديب يا حضرات القضاة.. قصاص.. صحيح أنى مغمو، لم تنشر لى الصحف شيئاً، ولا صدر لى كتاب.. ولكن ليس معنى هذا أنى لست أرقى فى انتاجى الأدبى، وأعظم، وأكثر تمكناً، من كثير من الأدباء والقصاصين المعروفين الذين تنتشر أسمائهم فوق بقع سوداء كالبراطيش .. متى بدأت

■ عبدالله .. وفاطمة ■

هوايتى للأدب.. ربما منذ ولدت، فأنا لا أعى نفسى إلا وفى
يدى قلم.. إن الموهبة تورث يا حضرات القضاة.. وقد كان
جدى الشيخ على جابر أديباً موهوباً، وربما ورثت عنه الأدب،
كما ورث أسكندر ديماس الابن موهبته عن أسكندر ديماس
الأب.. وكنت أطمع دائماً أن يكون عندنا بين الأدباء العرب
«جابر الجد» و «جابر الحفيد» أى أنا.. و..

حاضر يا سيادة الرئيس.. سأختصر.. ولكنى يجب أن
أحدثكم عن هوايتى للأدب ولكتابة القصة حتى تصلوا إلى
الحقيقة.. الحقيقة التى دفعتنى إلى الوقوف أمامكم فى قفص
الإتهام.. إن هوايتى هى التى تحدد شخصيتى.. أو هى - كما
يقول الأستاذ العقاد فى كتب العبقريات - مفتاح شخصيتى ..
وقد حالت ظروفى دون أن أتم تعليمى.. انقطعت عن المدرسة
قبل أن أحصل على الشهادة الثانوية، وحصلت على وظيفة
ساع فى شركة المقاولات.. وقد أتاح لى انقطاعى عن المدرسة
فرصة أكبر للتفرغ لهوايتى.. قرأت.. قرأت كثيراً.. عشرات
الكتب فى الأدب، فى علم النفس، وفى التصوف، وفى العلوم،
وكتبت.. كتبت كثيراً.. عشرات القصص.. وعشرات البحوث
الأدبية القيمة.. إن ما كتبته يكفى لإنشاء مكتبة قائمة بذاتها..
مكتبة جابر.

وكانت لى دائماً قارئة وحيدة..

فاطمة.

جارتى فاطمة.

وكنْتُ أختص فاطمة بقراءة قصصى.. لا أكاد أنتهى من
قصة حتى أشير لها من الشباك، فتأتى إلى بيتنا، وتجلس
بجوار أمى وأقرأ عليها القصة وأنا أرقب عينيها وهما تسرحان

■ عبدالله .. وفاطمة ■

وراء أبطالى وبطلاتى.. وأرى صدرها يتهدج كلما قرأت عليها
مشهد غرام، وأرى وجهها يتقلص فى مواقف العذاب،
والضحكة تكاد تنطلق من شفثيها فى مواقف المرح.. لقد كانت
فاطمة معجبة بكل ما أكتبه، متأثرة به.. كانت مؤمنة بى،
وبأدبى.. بعقريتى.

إلى أن أحببت فاطمة.

لم تحبنى أنا.

ولكنها أحببت المجنى عليه، إبراهيم الدسوقي مرعى.

كان إبراهيم موظفا فى مصنع النسيج الذى تعمل به
فاطمة.. وقد أعجبت به فاطمة قبل أن يعجب بها.. وجاءت إلى
وصارحتنى بإعجابها وعواطفها، وآمالها.. ثم طلبت منى أن
أكتب لها خطابا ترسله إلى إبراهيم.. ولم أتردد.. كتبت لها
الخطاب ووقعته باسمها.. فاطمة.. وكان الخطاب يا حضرات
القضاة قطعة أدبية رائعة، بلغ من قوة تأثيره أن رد عليه
إبراهيم فى اليوم التالى.. إن إبراهيم أيضا صاحب أسلوب.. إنه
يستطيع أن يكتب هو الآخر.. ولكنه طبعا لا يستطيع أن يرتقى
إلى مستواى.. وقد فرحت فاطمة بخطاب إبراهيم، وطلبت منى
أن أكتب له خطابا ثانيا.. وثالثا.. ورابعا.. خطابات أكتبها
بلسان فاطمة، وبشخصيتها، وبعواطفها، وبعينها، وأوقعها
باسمها.

. يا حضرات القضاة.

هل تعلمون حال الأديب عندما يكتب بلسان فتاة، أو يعبر
عن شخصية فتاة.. إنه يتقمص هذه الشخصية.. إنه يصبح
وهو يكتب هذه الفتاة.. ينقلب فى داخله إلى فتاة.. ويفكر كما
تفكر.. ويحس كما تحس.. ويضحك كما تضحك.. ويبكى كما

■ عبدالله .. وفاطمة ■

تبكى.. وكلما استطاع أن يندمج فى شخصية الفتاة أكثر، تمكن من التعبير عنها أكثر.. إن الكتاب كالممثلين.. يمثلون.. يمثلون الشخصيات التى يرسمونها بأقلامهم والتى يعبرون عنها.. الممثل يمثل على المسرح.. ومسرح الأديب هو داخله.. إنه يقوم بالتمثيل داخل نفسه.

ومر عامان وأنا مندمج فى شخصية فاطمة.. أكتب كل يومين أو ثلاثة خطابا لإبراهيم.. أبثه عواطفى، وآلامى، وأحلامى.. أقصد عواطف فاطمة وآلامها وأحلامها.. وكانت فاطمة خلال هذين العامين قد بدأت تلقى إبراهيم، وكانت تعود لتروى لى كل ما حدث بينهما.. كل التفاصيل.. وكانت فى بادئ الأمر تتردد فى أن تروى لى كل شيء.. ولكنى أقنعتها بأنى لى أكتب لها خطابات صادقة يجب أن أكون فى نفس حالتها.. فلم تعد تتحرج.. كل شيء ترويه.. أدق التفاصيل.. وأنا أعيش فى هذه التفاصيل.. أحس بلمسات أصابع إبراهيم.. وأحس بقبلاته.. وأسمع كلماته.. أحس بكل ذلك كما تحس به فاطمة.. لقد أصبحت أنا فاطمة يا حضرات القضاة.. أصبحت فاطمة كاملة.. لم أكن أفيق من شخصية فاطمة إلا عندما أذهب إلى عملى فى الصباح.. ثم لا أكاد أعود إلى البيت حتى أصبح فاطمة.. أعيش فى قصة حبيبى لإبراهيم.. أقرأ خطابات.. وأكتب له خطابات.. وقد أصبحت أكتب لإبراهيم دون أن تطلب منى فاطمة أن أكتب له.. بل أصبحت أرسل له الخطابات دون أن تقرأها فاطمة.

إلى أن استسلمت فاطمة لإغراء إبراهيم.

أصبحت امرأة.

وجاءت تروى لى كل التفاصيل..

■ عبدالله .. وفاطمة ■

وأحسست بكل ضعف فاطمة، وكل خلجات عواطفها التي دفعتها إلى الاستسلام.. وعشت كما تعيش في الأمل الكبير.. الأمل في أن يتزوجني إبراهيم.. أقصد يتزوج فاطمة.. وأصبحت خطاباتى له تنبض بهذا الأمل.. خطابات فيها ضعف.. ضعف لحظة الاستسلام.. وفيها رجاء.. وفيها توسل.. وفيها استكانة وذل لجبروت إبراهيم بعد أن بدأ يتمرد.

وخطابات إبراهيم تبرد وتتباعد.

وتزداد برودا وتباعدا.

إلى أن تحرك الجنين في أحشاء فاطمة.. وفي أحشائى أنا أيضا.. وأحسست بكل آلام فاطمة.. آلام مريضة.. وكل ضياعها.. ضياع في دوامة هائلة مخيفة.

ولم يعد إبراهيم يكتب إلى.

عشرات الخطابات كتبتها إليه، ولم يرد على.. خطابات فيها توسل استغاثة.. وفيها تهديد.. توعده.

ولكن التوسل لم يحن قلبه.

والتهديد لم يخفه.

وبدأ يهرب من لقائى.. أقصد لقاء فاطمة.

إلى أن جاءت إلى فاطمة يوما وهى كالمجنونة.. لقد خطب

إبراهيم فتاة أخرى.

وإنهارت فاطمة.

وانهرت معها.

لم تعد المشكلة بالنسبة لى مشكلة شخص آخر.

لم تعد فاطمة فى هذه اللحظة شخصية أخرى.

أنا فاطمة.

■ عبدالله .. وفاطمة ■

وأنا الذى خدعت.. وأنا الذى يتحرك الجنين فى أحشائى..
وأنا الذى هجرنى إبراهيم للضياع، والعذاب، والتشرد..
وجلست أكتب له خطابى الأخير.. لم يكن عبدالله هو الذى
يكتب، ولكنها كانت فاطمة بكل آلامها وتمزقها النفسى.. وكان
خطابا رائعا.. قطعة من الأدب العاطفى تستحق أن أنال عليها
جائزة الدولة.

ولم يرد إبراهيم.

والغيظ يفرينى.. والحدق يمزقنى.. والرغبة فى الشار
تستبد.. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل فاطمة عن
أحاسيسها حتى أحس بما تحس، لقد أصبحت أنا فاطمة..
ودون أن أناقش فاطمة الحقيقية، بدأت أعد للجريمة.. إن فاطمة
الحقيقية يا حضرات القضاة لا تعلم شيئا عن هذه الجريمة،
ولم تشترك فى تدبيرها.. ولكن التى دبرتها هى فاطمة
الأخرى.. فاطمة التى تعيش فى داخلى.

وقد اشتريت زجاجة ماء النار الكاوية.. وأرجو أن تضعوا
فى حسابكم أن التفكير فى تشويه وجه المجنى عليه لا يمكن
أن يكون تفكير رجل.. ليس من طبيعة الرجل عندما يفكر فى
الانتقام أن يقرر تشويه وجه غريمه، ولكنه تفكير امرأة.. فلم
يكن عبدالله هو الذى يفكر، ولكنها كانت فاطمة.

وحملت الزجاجة فى جيبى، وذهبت إلى إبراهيم فى بيته..
وحادثته فى موضوع فاطمة، وحاول أولا أن ينكر علاقته بها..
ولكنه فوجئ بالتفاصيل الكثيرة التى ذكرتها له.. كأنى كنت
معهما فى كل لقاء، وفى كل لحظة، وفى كل خطاب.. لقد كنت
معهما فعلا.. بل كنت أنا فاطمة.. وحاولت كثيرا أن أقنع
إبراهيم بأن يصون وعده لى .. أن يتزوجنى .. حرام عليك

■ عبدالله .. وفاطمة ■

يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا
يا إبراهيم.. ارحم ابنك اللى فى بطنى يا إبراهيم.. وكنت أتنبه
أحيانا بأننى أحدث إبراهيم بلسان فاطمة .. كانى امرأة ..
فأحاول أن أتخلص من شخصية فاطمة ، وأحدثه كعبد الله..
رجل لرجل.. ولكنى لا ألبث أن أعود وأحدث كفاطمة.. حرام
عليك يا إبراهيم.. ماتسبنيش كده يا إبراهيم.. خاف من ربنا
يا إبراهيم.

وربما ظننى إبراهيم مجنونا، فبدأ يدفعنى خارج الغرفة..
بدأ يدفعنى فى عنف.. ولم أحتمل عنقه.. فرفعت الشمعدان
النحاسى، الذى كان قريبا من يدى وضربت به على رأسه..
وسقط تحت قدمى.. فأنهلت عليه ضربا، إلى أن سكت عن
الحركة.. ثم أخرجت ماء النار وسكبته على وجهه، ووقفت
أرقبه.

أتدرون ماذا كان إحساسى فى هذه اللحظة يا حضرات
القضاة.

أحسست بالدهشة.

نعم دهشت.. فقد أفقت فى هذه اللحظة من الشخصية
الأخرى، وعدت إلى شخصيتى الحقيقية.. أصبحت عبدالله..
وعبد الله لا يريد أن يقتل إبراهيم، ولم يفكر فى تدبير الجريمة..
ولكنها فاطمة.. فاطمة هى التى دبرت، وهى التى قتلت.

يا حضرات القضاة.

إن وكيل النيابة يقول إنى قتلت إبراهيم بدافع الغيرة، لأنى
كنت أحب فاطمة.

لا.. لم أكن أحب فاطمة.. كيف أحبها وأنا الذى كنت أكتب
خطاباتها لإبراهيم.. لا.. لم أحب فاطمة.

■ عبدالله .. وفاطمة ■

كنت أنا فاطمة.

فاطمة التي تعيش فى داخلى هى التى قتلت إبراهيم..
وفاطمة لديها أسباب مخففة.. القانون لا يمكن أن يحكم بإعدام
فاطمة، ولا العدالة.

وعدالتكم تأبى أيضا أن تحكموا بإعدام عبدالله، لأن عبدالله
لم يرتكب الجريمة.. عبدالله لم يقتل، وليس لديه دافع لقتل
إبراهيم مرعى الدسوقي.. والدافع شرط أساسى لتوفر أركان
الجريمة.

وأنا واثق من عدالتكم.

وعذرا إن كنت قد أطلت عليكم.

كل هذا الجمال

أنا هذه السيدة التى يعرف كل الناس أنها ليست جميلة.

وأقول : «ليست جميلة» لأنى لا أستطيع أن أقول «قبيحة» أو «دميمة» أو أى وصف آخر من هذه الأوصاف المباشرة القاسية التى يمكن أن يصفنى بها الناس.

والناس تتساءل دائما : كيف استطعت أن أحتفظ بزوجى كل هذه السنين برغم أنى لست جميلة ؟ وزوجى رجل وسيم، أنيق، ناجح، رائع، إنه حلم.. تحلم به أجمل الجميلات.. فكيف استطعت أن أحتفظ به.. أنا.. أنا التى ليست جميلة.

بعض الناس يعتقد أنى أحتفظت به بذكائى.. وعندما يصفوننى بالذكاء، لا يقصدون الذكاء الطيب الحلو، بل يقصدون الذكاء الشرير الخبيث.. الذكاء الذى استطاع أن يسجن هذا الرجل الرائع داخل سجن له عظام بارزة مديبة

■ كل هذا الجمال ■

كالشوك وله جلد أزرق مكرمش، وله وجه تعيس ليس فيه خط واحد من خطوط الجمال.

وبعض الناس يعتقد أنى أحتفظ بزوجى عن طريق إثارة إحساسه بالمسئولية نحو أولادنا الخمسة.. كأنى كنت أقصد أن أحمل وأن ألد لا لشيء إلا لأزيد عدد الحبال التى تربطه بى، وتقيدته إلى.

وبعض الناس يعتقد أن زوجى رجل طيب، وأنه أحتفظ بى بداعى الشفقة.. الغلابة.. المسكينة.. الوحشة.. إنه لا يستطيع أن يلقىها فى الشارع.. لن تجد رجلا آخر يأويها.. فأحتفظ بها.. شفقة عليها، وتقربا لله.

و.. كلام كثير يقوله الناس، ولكن لا أحد منهم استطاع أن يتصور قسوة العذاب الذى احتملته حتى أحتفظ بزوجى.. عذاب كل يوم.. عذاب كل ساعة.. عذاب كل دقيقة.. فانا أعلم - قبل أن يعلم الناس - أنى لست جميلة.. وأرى نفسى أكثر مما يرانى الناس.. وأكره نفسى.. أكره هذا الجسد النحيل الذى يلتصق جلده فوق عظامه.. وأكره لوني الغامق الذى يميل أحيانا إلى اللون الأزرق وأحيانا إلى اللون الأخضر.. وأكره أنفى.. وأكره شفتى.. حتى رموش عيني أكرهها.. وأنا أعلم أن المرأة لا يمكن أن تكون مجرد رفيقة حياة.. ولا مجرد صديق.. ولكنها يجب أن تكون شيئا جميلا فى حياة الرجل.. يتزين بها.. ويتباهى بها أمام أصدقائه.. وأنا لست جميلة.. لا يستطيع زوجى أن يتزين بى، ولا أن يتباهى بى.. ولذلك حاولت ألا أتزوجه.. حاولت.. حاولت كثيرا.. حاولت لأنى كنت أحبه، ولم أكن أريد له زوجة ليست جميلة مثلى.. إنه ابن خالتى.. وعلى عادة الدائلات القديمة تقرر زواجنا منذ ولدنا..

■ كل هذا الجمال ■

وربما ولدت وأنا أعد نفسي له.. ومنذ بدأت أرى نفسي فى المرأة وأنا أعرف أنى لست جميلة.. ولكن كنت دائما أتعلق بأمل كبيرة أن شيئا ما سيحدث لى أصبح بعده جميلة.. وكل صباح أطل فى المرأة لعل هذا الشيء يحدث.. ولكنه لم يحدث أبدا. وأطل فى عيني حسن فأحترار فيهما.. هل يرانى كابنة خالته، أو يرانى كحبيبته وخطيبته وزوجة مستقبلة.. إنه مرح دائما.. رقيق.. حتى هذه الأوامر الصغيرة التى يلقيها على بين الحين والحين.. ما تخرجيش.. ما تلبسيش الفستان ده.. و.. و.. قد تكون أوامر رجل يحب ويغار على حبيبته، وقد تكون أيضا أوامر أخ، أو ابن خالة.

وحيرتى تكبر مع عمرى.. إنى لا أستطيع أبدا أن أعرف إذا كنت حبيبته أم ابنة خالته.. ولم يكن بيننا هذه المواقف العاطفية التى قد تساعدنى على الخروج من حيرتى.. لا كلمات حب.. ولا قبيلات.. ولا خلوات.. إنه دائما فى بيتنا، وأنا دائما بين أفراد عائلتنا.. ودائما قد أكون بالنسبة له ابنة خالته، وقد أكون حبيبته.

وحبى يكبر مع حيرتى.. إنى أحبه.. إنه بالنسبة لى ليس ابن خالتي، إنه حبيبى.. إنه خفقات قلبى.. إنه دنياى.. لست حائرة فى حبى له، ولكنى حائرة فى حبه لى.

والتردد والشك يمزقنى.. هلى يمكن أن يحبنى.. هلى يمكن أن يحب هذه الفتاة الدمية.. هلى يمكن أن يتزوجها.. وإذا تزوجها، فهل تزوجها لأنه يريد لها أو لأنه مسئول عنها.. ولأنه يشفق عليها.. ولأنه تورط فى زواجها.

وبدأ الشك يغلبنى.

وبدأت أفكر فى الهروب من هذا الزواج، لا لأنى لا أريده،

■ كل هذا الجمال ■

ولكن لأنى لا أريد له أن يتزوج فتاة مثلى.. ليست جميلة.
إلى أن بلغت الثامنة عشرة من عمري، وبدأت العائلة
تتفاوض لتحديد يوم الزواج.. ولجأة وجدت نفسى أصرخ :
- مش عايزة أتجوز.
وبهت كل من فى العائلة.. كان زواجنا حقيقة بديهية بين
أفراد العائلة، منذ ولدنا، إلى حد أن تركت صرختى أثرا
كانفجار القنبلة الذرية.
وحاولوا معى كل الوسائل.
وحاولوا إقناعى بالرفق.. وحاولوا إجبارى بالتهديد.. ولكنى
استعنت بكل عنادى، وأصررت على موقفى، وكانت حجتى أنى
أريد أن أتم تعليمى الجامعى، ثم أبحث عن عمل.
إلى أن دخل حسن إلى غرفتى ذات يوم، وأنا مازلت
بقميص النوم.. ووقف أمامى وفى عينيه نظرة حازمة غاضبة،
وصرخ فى وجهى :
- اسمعى.. أنا مش عايز دلع.. حانتجوز يعنى حانتجوز..
وحانتجوز الخميس الجاى.. مش عايز اسمع كلام بعد كده.
وهم أن يتركنى ويخرج من الغرفة، ولحقت به، ورفعت إليه
عينين خائفتين متوسلتين، وقلت :
- حسن.. أنت صحيح عايز تتجوزنى ؟
ونظر إلى كائى مجنونة وقال :
- آمال يعنى عايز إيه ؟
وعدت أقول وعينائى فيهما هذا الخوف والتوسل :
- أنت متأكد يا حسن.. متأكد أنك عايز تتجوزنى.
ونظر إلى حسن نظرة ملؤها الحنان.. ثم جذبنى إليه
وضمنى إلى صدره فى رفق، وقال وهو يربت على كتفى :

■ كل هذا الجمال ■

- متأكد يا سعاد... ماتبيش عبيطة.
وكانت هذه أول لحظة حنان يمنحها لى حسن.
وعندما تركنى يومها قررت أن أتزوج.
وقررت أيضا أن أحتفظ به كزوج.. مهما كلفنى الاحتفاظ
به.

كيف ؟

كيف أحتفظ به والدنيا تزدهم بالجماليات، وأنا لست جميلة.
وخيل إلى أن الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ به هى أن أجمع
كل حياته فى يدي.. كل حياته.. أدق التفاصيل، وأكبر
التفاصيل.. واستطعت بذكائى أن أحقق كل ذلك.. أصبحت حياة
حسن بين يدي، أنا التى أديرها، وأنا التى أشرف عليها.. أنا
التي أشتري له ثيابه وأعدها له.. وأنا التى تختار له أصدقاءه
وتجمعهم به أو تفضهم من حوله.. أنا ذاكرته فى عمله.. وأنا
البنك الذى يحتفظ فيه برصيده.. وأنا.. وأنا.. لقد أصبح حسن
طفلا لا يستطيع أن يتحرك بعيدا عن أمه.. وأنا أمه.. التى
تصنع له دنياه.. وقد صنعت له دنيا ضيقة ليس فيها ولا امرأة
جميلة.

ولكن الجميلات لسن فى المجتمع فقط.. إنهن فى المجالات،
وفى السينما، وفى التلفزيون.. وأطل فى مرأتى فأرى وجهى
ليس جميلا.. وأرى جسدى وقد التصق جلده فوق عظامه..
وألقت فأجد حسن يخلق فى صورة امرأة جميلة منشورة فى
مجلة، أو يخلق فى وجه امرأة تطل من شاشة التلفزيون،
فتنتابنى موجة قاسية من الخوف.. أخاف.. أخاف على حسن..
إن كل دقيقة من عمرى دقيقة خوف.
وانجبنا بنتنا فايزة.

■ كل هذا الجمال ■

ثم ابنتنا زياد..
وعندما حملت فى خالد قررت أن أتخلص من الحمل.. لقد
بدأت أحس بأنى قد لا أكون صادقة مع نفسى وأنا ألد هؤلاء
الأولاد.. خطر لى مثل ما خطر للناس الذين يتخذون عنى، من
أنى ألد لا حبا فى الأطفال، ولكن لأقيد بهم حسن إلى..
وحاولت فعلا أن أتخلص من حمل خالد.. وثار حسن.. إنه
يريده.. ويريد أن يملأ البيت بكثير من أولاده وبناته.
ولكن هذه الفكرة التى سيطرت على جعلتنى شبه مجنونة..
فعدت أحاول أن أتخلص من حملى دون علم حسن.. ولكنى
لم أفلح.. وجاء خالد..
والخوف يستبد بى..
ليس الخوف وحده، إنما بدأ الإحساس بأنى أحرم حسن من
حقه فى الجمال.. حقه فى أن تكون له امرأة جميلة، يتمتع بها،
ويتزين بها، ويتباهى بها..
والخوف يكبر..
والإحساس بأنى جنيت على حسن يكبر..
إنى امرأة معقدة..
عقدتى تمزقنى..
ويمزقنى أكثر محاولة أن أخفى عقدتى عن حسن، أن أبдо
أمامه دائما كامرأة طبيعية..
ثم لم أعد أحتمل كل هذا العذاب..
يئست من محاولتى الاستمرار فى كل هذه المعاناة..
وفى يوم قررت أن أغير كل هذه الحياة..
قررت أن أفرج عن حسن.. أن أطلق سراحه من هذه الدنيا
الضيقة.. من هذا السجن الدميم.

■ كل هذا الجمال ■

وبسرعة فتحت كل الأبواب على الدنيا الواسعة.. بدأت أتعرف على المجتمعات التى تضم أجمل نساء مصر.. كل ليلة فى حفلة.

وعيناي لا تطرفان عن حسن.

إنه يبدو مبهورا بالدنيا الجديدة التى فتحتها له.. يبدو كالطفل وهو يتفرج على الصواريخ الملونة.. وقد نجحت شخصيته بين النساء.. وسامته، أناقته، نجاحه، رفته.. يلتفتن حوله، يأكلنه بأعينهن، ثم يلتفتن إلى ويتهامسن.. وأنا أرقب حسن.. أرقب كل نظرة فى عينيه، وكل التواء بين شفتيه، وكل كلمة يقولها، مهما بعدت عنه لا يفوتني منه شيء.. وأكاد أسمع همسات الجميلات عندما ينظرن إلى.. أسمعها بخيالي.. إنهن يتهامسن بأنى وحشة، قبيحة، ويتساءلن كيف استطعت أن أتزوج هذا الرجل الرائع، وكيف استطعت أن أحتفظ به.

ونعود إلى البيت كل ليلة.. وحسن سعيد.. فى منتهى السعادة.. وأنا أكتم عنه عذابي ويأسى.

إلى أن تعرفنا بناهد.

إن نهاهد مطلقة شابة، شقراء، جميلة، رائعة الجمال.. أنا نفسى بهرنى جمالها عندما التقيت بها لأول مرة.

وبهرت حسن.

ومنذ اللحظة الأولى عرفت أن نهاهد قد أخذت من اهتمام حسن أكثر مما أخذت منه أى امرأة أخرى.. ولاحظت أنهما بسرعة.. فى ساعة واحدة.. أصبحا أصدقاء، إنهما يتحادثان فى بساطة وجرأة، ويتضحان كأنهما عاشا العمر كله معا.

وفى هذه الليلة.. الليلة الأولى التى التقينا فيها بناهد.. قررت أن أترك لها حسن ليتزوجها.

■ كل هذا الجمال ■

لم أتركه لها مرة واحدة.. ولكنى تعمدت أولاً أن أصادقها..
أصبحت أقرب الصديقات إلى.. نتحدث كل صباح فى
التليفون، ونخرج معا لنطوف بالبحال.. ودائماً معا على العشاء
أو الغداء.. فى بيتى، أو فى بيتها، أو مدعوين عند بعض
الأصدقاء.. وحسن دائماً معنا، ثم بدأت خطوة أخرى.. بدأت
أدعوها إلى الشاي أو العشاء، وقبل أن تصل أخرج من البيت
وأنا أقول لحسن :

- ناهذ جاية دلوقتى.. أقعد معاها لغاية ما أرجع.. مش
حاجيب.

ويأخذ حسن الأمر ببساطة.

وكننت بذلك أتعمد أن أدفعه إليها أكثر.. كنت أريده أن يصل
إلى القرار الذى اتخذته أنا، أى أن يتزوجها.. وكننت أتركهما
وحدهما فى البيت، وأخرج أجوب على قدمى ساعة أو ساعتين،
وأنا أحس بأنى شهيدة.. شهيدة تضحى بنفسها من أجل
إسعاد الرجل الذى تحبه.. إن هذا الإحساس.. الإحساس بأنى
شهيدة.. يريحنى من عقدتى بأنى دميمة.. يربط أعصابى..
يملؤنى اعتزازاً بنفسى وبقوتى.. ثم كنت أعود إلى البيت
لأجدهما.. حسن وناهذ جالسين أمام التليفزيون.. أو يسمعان
شرايط أم كلثوم.. وأبدو أمامهما مريحة وفى داخلى هذا
الإحساس الطافى الحلو بأنى شهيدة.

إلى أن كان يوم.

وخرجت من البيت وتركت حسن وحده.. وعدت بعد
ساعتين أسأله :

- ما حدث ضرب تليفون؟

وقال حسن فى بساطة :

■ كل هذا الجمال ■

- ناهد اتكلمت، وقعدت ترغى معايا ساعتين.
وجلست قبالة وه وأنا أبتسم له ابتسامة حزينة.. ابتسامة الشهيد.. وقلت فى صوت هادىء أسيطر عليه بكل إرادتى ;
- حسن.. أنت لازم تاخذ قرار فى الموضوع ده.
ونظر إلىّ فى دهشة، وقال :
- موضوع إيه ؟
قلت وأنا مسيطرة على كل عصب من أعصابى :
- موضوعنا أنا وأنت وناهد.. اسمع.. أنا مستعدة لكل حاجة، إذا حببت تخليينى أربى العيال وتاخذ أنت وناهد بيت تانى.. ما عنديش مانع.. إذا حببت تطلق أنا.
وصرخ حسن فى وجهى :
- إيه الكلام اللى بتقوليه ده.. انتى اتجننتى يا ست انتى.
قلت فى هدوء دون أن أهتز :
- أنا عارفة أن ناهد حلوة.
وصرخ حسن :
- وأنا مالى إذا كانت حلوة.. هى بتاعتى.
قلت :
- حاتبقى بتاعتك.. اتجوزها.
وصرخ حسن بأعلى صوته :
- انتى بتخرفى بتقولى إيه.. إيه اللى حصل فى مخك.
قلت وأنا مازلت هادئة :
- أنت لازم تتجوز واحدة حلوة.. حرام.
وعاد حسن يصرخ كأنه جن :
- وأتجوز واحدة حلوة ليه.. ما فيه ألف واحدة حلوة،

■ كل هذا الجمال ■

ما اتجوزهم كلهم.. اشمعنى ناهد.. ما خديجة حلوة.. وفيفى
حلوة.. وخيرية حلوة.. و...
وقلت وقد بدأ هدوئى يهتز :
- حرام إنك تقعد طول عمرك متجوز واحدة وحشة زىي.
وسكت حسن فجأة.. ونظر إلى طويلا.. ثم قال فى صوت
هادىء عميق :
- أنا ما أعرفش أنك وحشة يا سعاد.. أنا أعرف أنى بأحبك.
وبكيت.



صدقونى أنى لا أبذل مجهودا للاحتفاظ بزوجى.. أعنى أنى
لا أتعهد أن أبذل مجهودا خاصا أكثر مما تبذله أى زوجة
فاضلة.
وانى أؤمن الآن بأن ليس هناك زوجة جميلة، وزوجة ليست
جميلة.. ولا زوجة ذكية.. وزوجة غبية.. ولكن هناك زوجة
يحبها زوجها، وزوجة لا يحبها زوجها.. وعندما يوجد الحب
يوجد معه الجمال والذكاء.. يوجد ما يكفى للاحتفاظ بالزوج
مدى الحياة.

وزوجى يحبنى.
وحولنا كثيرات من النساء الجميلات.. وأنا بينهن قوية..
لم أعند معقدة.. إنى قوية.. أقوى منهن جميعا.. واثقة من
نفسى.. لأنى واثقة من حب حسن.

احتفالات الألو منيوم

عاد جمعة عبدالصمد إلى القرية وهو يرفل في جلاب حريري، وفي قدميه حذاء أصفر لامع، وعلى رأسه طاقية شبكية تميل فوق حاجبه.. ويوسع في خطاه فيخشخش طرف جلابه بين ساقيه، وكأنه، يهمس «اسكت ما اسكتش».. وفي ذراعيه سبت كبير من الخوص محمل بالهدايا.. معظمها هدايا لخطيبته بهية، ولأمه، وحمامته في المستقبل، وهدايا صغيرة لأبيه وإخوته وأولاد عمومته.. وفي عينيه نظرة فرحة لا تخلو من التعالي السانج والغرور الطيب.. ويتلفت حواليه فيرى كل شيء كما تركه منذ عشر سنوات.. أو أن خياله أبقى أن يعترف أن شيئاً يمكن أن يتغير في القرية وهو بعيد عنها.. فلم يلمح مبنى الوحدة الجمعة الذي أقيم خارج القرية.. ولم يلمح طلمبة المياه.. لم يلمح أى جديد.. عيناه ممتلئتان بصورة القرية كما تركها منذ عشر سنوات.. الساقية العتيقة في مكانها، ولا تزال تدور، وخيل إليه أن الثور الذي يدور بها هو نفس الثور.. وزرعة القطن هي التي تركها في الغيط.. وقبة الشيخ العتر..

■ اكتشاف الألومنيوم ■

والطرق المعفرة التى تكسوها طبقة من التراب الأبيض الناعم..
والمصرف.. وشجرة الجميز.. ومنذ عشر سنوات ترك جمعة
القرية، وانتقل ليعيش مع عمه فى البندر.. وكان عمه طباحا فى
سراى المحافظة.. وقد تغير المحافظون ولكن عمه لم يتغير.. ظل
طباحا فى السراى، منذ كان المحافظ «باشا» قبل الثورة، إلى أن
شهد محافظين، يأكلون الملوخية بأصابعهم كالفلّاحين..
واشتغل جمعة مع عمه.. فى المطبخ.. وعاش يسمع ترحم عمه
على أيام زمان، عندما كان يطبخ كل يوم خروفا وعشرة
أصناف من الطعام.. ولم يتأثر جمعة بأيام زمان ولا انصرف
إليها خياله، فقد كان كل همه أن يتعلم من عمه فنون الطهو..
وصاح فيه عمه وهو يرقب تلهفه على تلقى أسرار المهنة :

— يا ابنى هو فيه حد بيطبخ الأيام دى.. دول كلهم صنفين
تعملهم أمك وهى مغمضة.

وبرغم ذلك تعلم جمعة طهو أصناف من الطعام لا تعرفها
أمه، ولا تذوقها فى بيته.. تعلم كيفية عمل اللحمة الرستو،
والحمام الكولباست والسّمك الميونيز.. و.. و.. وعندما مرض
عمه تولى مكانه.. ولم يشك البيه المحافظ.. بل أشاد بمهارة
جمعة.. ثم.. مات العم.. وأصبح جمعة هو طبّاح السراى.

وفكر جمعة فى الزواج.. وكان تفكيره محصورا فى الزواج
من إحدى بنات البندر، فهو قد تغير، لم يعد من أبناء القرية..
إنه أحد أبناء البندر.. يلبس الجلابيب الصوف والحريز، وأحيانا
يلبس القميص والبنطلون، ويجلس فى قهوة المحطة، مع
أصدقاء كلهم أفندية ويقرا الأهرام كل مساء.. يقرؤه بصعوبة..
ولكنه يقرؤه.. لقد تغير كثيرا، ولم تعد تصلح له إلا إحدى
بنات البندر. وبرغم ذلك تردد طويلا.. لا يدرى لماذا.. إن
تفكيره فى الزواج ينقصه الاندفاع.. كان يفكر فى الزواج وهو

■ اكتشاف الألومنيوم ■

جالس فى المقهى.. أو وهو جالس فى غرفته يتحدث مع جيرانه.. ولكنه لا يكاد يتحرك من مجلسه حتى ينسى موضوع الزواج.

إلى أن جاء إلى البندر مدبولى عبدالرحمن ليجرى عملية جراحية فى المستشفى الأميرى.. وعم مدبولى يملك ثلاثة أفدنة فى القرية.. وكان بينه وبين والد جمعة - حميدة عبدالصمد - الذى يملك فدانين فى نفس الحوض، حزازات قديمة، ومشاحنات كانت تتسع حتى تخرج العائلتان لتواجه إحداهما الأخرى فى معارك عنيفة، ولكنها كانت كلها معارك بيضاء قد يسقط فيها جرحى، ولكن لم يحدث أن سقط فيها قتيل.. وقد هدأت هذه الحزازات مع الزمن، وبعد أن استقر العرف الذى يحكم مياه الرى بين أرض عم مدبولى، وأرض عم عبدالصمد.. وأصبحت العائلتان على علاقات طيبة وإن ظلت كل منهما محتفظة بشخصيتها وبكيان زعامتها.

وقد أرسل عم عبدالصمد إلى والده جمعة يخبره بوصول عم مدبولى إلى البندر لإجراء عملية فى المستشفى.. وأوصاه بأن يزوره ويرعى شئونه.. وكان عم عبدالصمد يبدو فى خطابه سعيدا معتزا بابنه الذى يقيم فى البندر والذى طلب منه مدبولى أن يوصيه عليه.. وفرح جمعة أيضا وازداد اعتزازا بنفسه وهو يشعر أنه سفير القرية فى البندر والمسئول عن شئون رعاياها.. وذهب لتوه لزيارة عم مدبولى.. وهناك التقى بابنته بهية.. ولم يصدق أن هذه هى بهية.. والله البت كبرت.. ونظر فى عينيها، تطلان عليه من فوق الشال الذى تلفه حول طرف أنفها فى حياء وخفر، وأحس أنه وجد بيته فى هاتين العينين.. قرر منذ اللحظة الأولى أن يتزوجها.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

وفاض جمعة بكرمه على عم مدبولى وبهية، واستعمل نفوذ المحافظ، ونقل عم مدبولى إلى سرير فى الدرجة الثانية، وخصص بجانبه سريرا آخر لابنته التى تقوم على خدمته.. وهو دائما معهما.. عم مدبولى راقد فى سريره، وهو مع بهية يحدثها عن حياته فى البندر، ويبهرها بحكاياته، ولم يكن يحدثها عن فنون الطهو.. إن الطهو هو عمله، وليس من شيمة الرجل أن يحدث المرأة فى شئون عمله.. وبهية تنظر إليه وفى عينها أمل كبير.. أمل لم تكن تعتقد أنه قد يتحقق.. إن جمعة يبدو أمامها إنسانا كبيرا من عالم بعيد، لا يمكن أن تصل إليه، ولا يصل إليها.. وبرغم ذلك فالأمل لا يريد أن يخبو، وعيناها تزدادان قربا من عينيه.. وكما رأى فى عينها صورة بيته، رأت فى عينيه بيتها.

وما كاد عم مدبولى يعود إلى القرية بعد شفائه ومعه ابنته، حتى أرسل جمعة خطابا مستعجلا إلى أبيه يطلب منه أن يخطب له بهية، وأن يتفق نيابة عنه على كل التفاصيل.



وعاد جمعة إلى القرية بعد عشر سنوات ليعقد قرانه على بهية.

ورحبت به القرية.. وذبح أبوه خروفين أمام ضريح الشيخ العتر احتفالا بعودة ابنه.

وجلس جمعة مع بهية يحدثها وقال فى سخط :

- وما نكتبش الخميس الجاى ليه.. ايه لزمة اللكاعة دى..

وقالت بهية وهى تنظر إليه بعينين متوسلتين حتى لا يغضب:

- أصل لسه النحاس.

ونظر إليها جمعة بعينيه الساخطين وقال :

- نحاس إيه.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

· قالت :

- النحاس.. الحلل، والطشب.. أبويا بيقول إن الحلة اللي أد الكوز بقت بأربعة جنيهاات.

وقال جمعة :

- ومين قال له احنا عايزين نحاس.

ونظرت إليه بهية فى دهشة وقالت :

- نتجوز من غير نحاس يا جمعة.

وصرخ جمعة :

- نحاس إيه يا بت.. النحاس ده بطل من زمان.. وقالت

بهية ودهشتها تشتد :

- آمال الناس بتطبخ وتغسل فى إيه بأه.

وقال جمعة وهو يبتسم فى وجهها ابتسامة ساخرة :

- فى الألومنيوم.

قالت بهية :

- فى إيه ؟

وقال جمعة وهو يضغط على مخارج ألفاظه:

- الألومنيوم.

وقالت بهية وهى تمصمص شفقتها تعجبا:

- وإيه بأه الألومنيوم ده.

قال جمعة :

- ده أحسن من النحاس.. أخف، وأرخص، وعمره

ما يجنز.. مش عايز تبييض ووجع قلب زى النحاس.

ونظرت إليه بهية كأنها تنظر إلى مجنون، وعادت

تقول :

- نتجوز من غير نحاس يا جمعة.. نحاس أحمر.. البلد

تقول علينا إيه ؟.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

وصرخ جمعة :

- يا بت انتورى بأه.. ماحدش دلوقتى بيحب نحاس.. دى سراية البيه المحافظ كلها مافيهاش حته نحاس واحدة.. كله ألومنيوم.

وقالت بهية كأنها لم تسمعه :

- نحاس أحمر أفرح بيه.

وعاد جمعة يصرخ :

- وما تفرحيش بالألومنيوم أبيض ليه.. اسمعى يا بهية.. كلمة واحدة.. أنا مش عايز نحاس فى بيتى.. ولو أبوكى جاب نحاس حايبعه واشترى ألومنيوم.

وردت بهية والدموع تنبثق من عينيها :

- أتجوز من غير نحاس يا جمعة.. أنا أتجوز من غير نحاس.. ويخلصك برضه يا جمعة.

ثم فرغت من جانبه وجرت إلى أمها تسبقها دموعها.



فى صباح اليوم التالى دخلت أم بهية على أم جمعة،

وجلست بجانبها وقالت :

- إيه يا ست أم جمعة الحكاية.. يعنى إيه سى جمعة مش عايز نحاس.. احنا كنا اشتكيننا ولا قصرنا.. النحاس حايبجى لو دفعنا بدل الجنه ألف.

وقالت أم جمعة :

- يا أختى ماحدش قال كده.. بس أصل ابنى جمعة متتور وعایش طول عمره فى البندر.. وبرضه يفهم أحسن مننا يا فلاحين. وقالت أم بهية :

- ودى عايزة فهم.. هو فيه جوازه من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

■ اكتشاف الألومنيوم ■

- أصل سى جمعة يقول النحاس بطل.. والناس بتطبخ
ويتغسل فى حاجة مش عارفة اسمها إيه كده.

وقالت أم بهية :

- بأه فى ذمتك يوم ماتجوزى بنتك فردوس، ترضى
تجوزيها من غير نحاس.

وقالت أم جمعة :

- والنبي لو بنتى لقت راجل زى ابنى جمعة لأمشى كلامه
عليها وعلينا وعلى البلد كلها.. الركب يا أختى ع الراجل.

وقالت أم بهية :

- والراجل ييهدلنا فى وسط البلد.. وده كلام تقولييه
برضه.. والله بنتى ماتتجوز من غير نحاس أبدا.. نحاس أحمر
وملعلع.. واللى مش عايز نحاس مايتجوزش بنتى.

وقالت أم جمعة وهى تصرخ :

- لا يا أم بهية.. ماتغلطيش.. إالى مش عايزنا مش عايزينه
ده ابنى كانت بتجري وراه كل بنات البندر.. غيرش أنه ابن
أصل وحب ياخذ من بلده.

وقالت أم بهية وهى تصرخ هى الأخرى :

- والله يا أختى ضفر بنتى بكل بنات البندر.. هو حد كان
شده من قفاه وقاله تعالى اتجوز من عندنا.. وعلى إيه..
ما بلاش.. بلاش خالص.. بلاش نحاس وبلاش جواز.
وقامت من جانبها تدب الأرض بقدمها الثقيلة..



وفى المساء اجتمع عم مديولى، وعم عبدالصمد، والشيخ
يحيى إمام الجامع، وإخوة جمعة، وأولاد مديولى، ودار
الحديث حول النحاس والألومنيوم.. وقال جمعة وهو يحاول
أن يسيطر على أعصابه ويبدو هادئا :

■ اكتشاف الألومنيوم ■

- اسمع يا عم مدبولي.. دى شغلتي.. أنا طباخ وأعرف اللي ينقع واللى ماينفعش.. والنحاس الأحمر ما بقاش ينفع.. الناس الأكابر بتستعمل دلوقتى الألومنيوم.. حلل الألومنيوم.. وطشت الألومنيوم.. وأطباق الألومنيوم.. ليه.. أشمعى الألومنيوم ومش النحاس.. لأن الألومنيوم مابيجنزش.. مافيش خوف أنه يسم حد زى النحاس المجنر ما يسم الناس.. ومش محتاج نجيب مبيض نحاس يبيضه كل يوم والثانى.. ووزنه أخف.. يعنى بدل البت من دول مأتشيل حله واللاطشت نحاس يقسم وسطها، تشيل حله الألومنيوم خفيفة.. زى الريشة.. ثم إن الألومنيوم أرخص.. و.

وقاطعه عم مدبولي قائلًا وهو يستغفر الله :

- شوف يا ابني.. الصراحة أحسن.. أنت دفعت مهر ستين جنيه، وأنا لغاية دلوقتى دفعت فوقهم أربعين.. جبنا السرير، والمراتب، والحصر، والدولاب، وفاضل النحاس.. والنحاس متأخر علشان الفلوس. والله شهيد على ما أقول.. أنا مستعد أدفع فوق الأربعين أربعين كمان.. وإذا كنت فاكرك أنك بتوفر على.. لا والله.. أنا بنتى لازم تتجوز كاملة من كله.. والنحاس جاي يعنى جاي.
وصاح جمعة :

- يا عم مدبولي مش مسألة فلوس.. أنا عايز أعيش زى الناس المتعدنة.. حد شريكى يا عالم.. أنا عايز الألومنيوم.. ما أبقاش حر فى بيتى يعنى.. وبكره حاتعرفوا أن الألومنيوم أحسن من النحاس.

وقال عم عبدالصمد وهو غير مقتنع تماما بكلام ابنه :

- ماتسيبه يا مدبولي.. خده على عقله.. مادام مش عايز نحاس.. خلاص.. يوفر.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

وقال الشيخ يحيى :
- الواقع أننا نحكم على مجهول، فليس منا من يعرف هذا الميموم.

وقال جمعة :
- اسمه الألومنيوم.
وقال الشيخ يحيى :
- لا نعرفه.

وقال مدبولي :
- نعرفه واللاما نعرفوش.. مش ممكن بنتى تتجوز من غير نحاس.. عابزين تقضحونى فى وسط البلد.. وبلاد المركز كله..
عيب يا عبدالصمد.. عيب يا جمعة..



والقرية كلها تتحدث عن النحاس والاكتشاف الجديد الذى يسمى الألومنيوم.

وفى الصباح الباكر ذهب جمعة إلى البندر واشترى مجموعة من الأوانى الألومنيوم.. وعاء كبير أكبر من أكبر حلة.. ووعاء آخر.. وأصغر، وطشت.. ومجموعة من الأطباق.. كلها من الألومنيوم وعاد بها إلى القرية فى المساء.
والتف أهل القرية يتفرجون على الألومنيوم.

وقال الشيخ يحيى وهو يقلب فى يده طبقاً من الألومنيوم :
- هذا صفيح، أو كالصفيح.

وصرخت أم بهية :
- يا خرابى.. بنتى تتجوز بصفيح.

قال شحاته :
- لا.. مش صفيح.. ده زنك.
وقال عباس :

■ اكتشاف الألومنيوم ■

- دى حاجات بتاعة المستشفيات.. يكونش جمعة ناوى
يسكن فى مستشفى.
وقال عوضين :
- دى حاجات خوجات وأنت الصادق.. الخواجه اللى كان
فاتح فى المركز كان بيطبخ فى بتاعة زى دى.
وقالت بهية والدموع فى عينيها :
- أنا عايزة نحاس أحمر.
وصرخ مدبولى :
- اسمع يا جمعة.. الجوازة مش نافعة.. بهية مش لك.. من
بكره حايكتب كتابها على عباس.. احنا لا من أهل البندر..
ولا خوجات.
وصرخ جمعة :
- بهية بتاعتى.. مراتى.. قرئت فاتحتها.. ماحدش يقدر
يتجوزها غيرى.
واشد الصراخ.
وتجمعت عائلة مدبولى فى جانب.
وعائلة عبدالصمد فى جانب.
وارتفعت أعواد الشوم الغليظة فى الهواء.
وفى المساء.. نفس المساء.. تسلل بعض أولاد عبدالصمد إلى
أرض مدبولى وقطعوا المياه عنها.. ولحمهم أولاد مدبولى..
وانطلق الرصاص.. وخرج جمعة من البيت يجرى.. لم يكن
يعلم مايجرى.. ولم يكن يعلم من أين ينطلق الرصاص.. وشق
طريقه بين الجانبين.. فى الظلام.. وأصابته رصاصة.. لا أحد
يعلم حتى اليوم، هل هى رصاصة أطلقها إخوته، أو أطلقها
إخوة بهية.
وقتل جمعة.

■ اكتشاف الألومنيوم ■

وبعد أربعة أيام قتل شحاتة بن مدبولى وأخو بهية.. ثأرا لجمعة.

وبعد شهور مات عبدالصمد حسرة على ابنه.
ومات فى نفس الشهر مدبولى حسرة هو الآخر على ابنه..



ونسيت القرية مشكلة النحاس والألومنيوم.
والثأر لا يزال قائما بين العاثلتين.
ثأر لا موضوع له.. ولكن له ضحايا.
وخرجت فردوس أخت المرحوم جمعة تحمل على رأسها
الوعاء الألومنيوم الكبير الذى اشتراه جمعة يوماما.. وقالت لها
فتحية :

- والنبي يا أختى ده أخف من الداهية النحاس اللى أنا
شايلها على دماغى.

وقالت عزيزة :

- ويستحمل زى النحاس وأكثر.

وقالت فتحية :

- ولا يصدى.. ولا يجنزr، ولا عايز تبيض ولا حاجة.

وقالت سنية :

- وبيقولوا أرخص.

وبدأت نساء القرية وبناتها يستعملن الأوانى الألومنيوم..
دون أن تتذكر واحدة منهن جمعة.. شهيد الألومنيوم.
واحدة فقط كانت تذكره وفى قلبها حسرة كبيرة.
بهية.

وعندما تزوجت بهية كانت كل أوانيها من الألومنيوم..

الهزيمية

أحمد.. عزيزى :

رأيتك أمس.

بعد خمسة عشر عاما، رأيتك.. أتدرى.. إنك لم

تكبر.. بشرتك السمراء المشدودة.. أنفك المستقيم

الذى يحمل ملامح شخصيتك القوية.. عينك الجادتان

الحازمتان كأنهما تلقيان فى كل لفظة أمرا عسكريا.. ابتسامتك

الدائمة التى تشق خطا رفيعا بين شفتيك الغامقتين المثلثتين..

و.. كم عمرك الآن.. الخامسة والخمسون على ما أعتقد..

وبرغم ذلك فإنك ما زلت تبدو كما تركتك فى الأربعين.

والحمد لله أنك لم ترنى عندما رأيتك، وإلا لما عرفتني.. أنا

تغيرت كثيرا يا أحمد.. جلدى ارتخى فوق عظام وجهى..

جفناى سقطا فوق عيني.. تشققت شفتي.. لم أعد هذه الزوجة

الصغيرة الحلوة التى عرفتها منذ خمسة عشر عاما.. بل لم أعد

أبدو فى سنى.. سن الثامنة والثلاثين.. إنى أبدو أكبر بكثير..

وأحاول كثيرا أن أنكر هذه الحقيقة، فأقف أمام مرأتى وأشد

جلد وجهى بكفى، وأفتح عيني على وسعهما لأدأرى تجاعيد

■ الهزيمة ■

جفنى، ولكن لا أكاد أرفع كفى، حتى يعود جلدى ويرتخى،
ويسقط جفناى.. وأرى نفسى كما أصبحت.
نعم.. لقد تغيرت كثيرا يا أحمد.

وعندما رأيتك، وتداريت خلف فانوس النور أرقبك وأنت
تركب سيارتك، أحسست فى لحظة واحدة أنى عدت إلى عمرى
معك.. إلى شبابى.. إلى أيماننا.. وابتسمت ابتسامة كبيرة
زغردت فى صدرى بل كدت أضحك كما تعودت أن أضحك
وأنا صغيرة.

وبعد أن ابتعدت، واختفيت عن عيني ربما لسنوات طويلة
أخرى، تذكرت، وابتسامتى لا تزال تزغرد فى صدرى، أنى
لم أقل لك حتى اليوم لماذا هجرتك هكذا فجأة.. وتركتك حائرا،
تردد فى دهشة.. مجنونة.. مجنونة..

وربما كنت مجنونة فعلا.

ولكن كل مجنون له منطق.

وأنت لم تعرف بعد منطق المجنونة التى هجرتك فجأة.

عزيزى أحمد.

أتذكر.

لقد عرفتك وأنا فى الثامنة عشرة من عمري عندما التحقت
طالبة بكلية الآداب.. وبهرت بك منذ اليوم الأول الذى دخلت
فيه علينا لتلقى محاضرتك فى تاريخ الفلسفة.. ولم أكن وحدى
التي بهرت بك.. كل بنات الكلية كن يبهرن بك.. لا لأنك أستاذ
فحسب، ولا لأنك رجل وسيم فحسب، بل لأنك أيضا أنيق،
ولأنك تملك سيارة أنيقة تقف على باب الكلية كالفرس الأصيل
فى انتظار فارسها.. وكل ذلك كان يجعل منك حلما جميلا لكل
بنت.. ولكنى لم أبهر برجولتك ولا بسيارتك، ولكنى بهرت
بعلمك.. هذه هى الحقيقة.. ومنذ أن انساب صوتك إلى أذنى

■ الهزيمة ■

عمقا رزينا يروى لنا قصة الفلاسفة.. استغرقت، فيك كما أستغرق فى كتاب ممتع.. اخذتني كلى.. عقلى، وخيالى وأعصابى.. وأصبحت أنتظر.. أو على الأصح أنتظر محاضرتك.. بشوق ولهفة. كآنى أنتظر اللحظة التى أدخل فيها إلى فراشى وأستغرق فى كتابى المفضل.

وكننت أيامها مجنونة بشيء اسمه الثقافة.. كنت أريد أن أكون مثقفة، وأن أحس بأنى مثقفة.. لا مجرد طالبة، بل مثقفة.. وكننت أعيش مع أمى وحدنا ننفق من معاش أبى الذى توفى منذ سنوات.. لم يكن لى أخ ولا عم ولا خال.. عم واحد سافر إلى كندا وبقي هناك وانقطعت الصلة بينه وبيننا.. وربما كانت هذه الوحدة.. وحدتى فى الحياة.. هى التى دفعتنى إلى القراءة والثقافة، لقد قرأت كثيرا، أكثر مما تتصور.. ووجدت اخوتى وأبائى، وأعمامى وأخوالى، فيمن قرأت لهم.. كانوا هم الذين يصنعون لى مبادئى وتقاليدي، وشخصيتى.. وكننت أحبهم كما أحب عائلتى.. لقد جعلت منهم عائلتى.. وكننت أخاف من الفيلسوف « بيكون » كما أخاف من أبى.. وأحترم أرسطو كما أحترم جدى.. وأناقش سارتر كما أناقش ابن عمى.. إلى أن التقيت بك.. فأصبحت أنت أقرب واحد إلى ممن أقرأ لهم.. ربما لأن كل الذين قرأت لهم كانوا مجرد حروف ترسم لى ثقافتى، أما أنت فكننت ثقافة حية.. كننت لحما ودما.. وكننت صورة حلوة للثقافة.. صورة أنيقة جذابة.

وبرغم ذلك فلم أحاول أن أعرفك وأنا طالبة.. لم أحاول أن أجرى وراءك بعد المحاضرة كما تجرى وراءك بقية الطالبات.. فإن ثقافتى أشاعت فى نفسى نوعا من التعالى، أو من مركب العظمة، إذا أردنا أن نستعمل التعبير العلمى.. ولا شك أن هذه الثقافة قد حمتنى فى هذه السن من كثير من نزوات الشباب..

■ الهزيمة ■

بل إنها فى الواقع كانت تنفر منى كل الشباب والرجال الذين يحاولون مغازلتى، فقد كان الواحد منهم لا يكاد يقترب منى حتى أبدأ معه مناقشة علمية فى الفلسفة أو فى الأدب، أحاول خلالها استعراض ثقافتى، فلا يلبث أن يتضاءل أمامى، ويفر.. ولكن.. إذا كانت الثقافة قد حمتنى.. فقد أصابتنى أيضا بهذا التعالى، وهذا الكبر، وهذه الحساسية المرهفة بكل ما يمكن أن يمس كبريائى.. وفى كثير من الأحيان كانت هذه الحساسية تنطلق من تفسير كاذب غبى لتصرف من التصرفات، وينبنى عليها معركة كاذبة وهمية دفاعا عن كبرياء كاذب أيضا.

لهذا لم أحاول أن أقدم لك نفسى كأى طالبة تقدم نفسها لأستاذها، وكنت أنت كريما مع نفسك معتزا بشخصيتك، فلم تحاول أن تقرر نفسك على، كأى أستاذ يفرض نفسه على طالبة.. ولكن أكثر من مرة التقت نظراتنا وأنت تلقى محاضراتك، ورأيت فى عينيك تساؤلا عجيبا مهذبا كأنك تسألنى فى أدب : متى وأين.. ولعلك رأيت فى عيني هذا الإصرار العجيب الذى يثيره إحساسى بالتعالى مختلطا بإعجابى وإيمانى بك.

وقد بقى هذا الإصرار قائما.. برغم أن إعجابى بك بدأ يتطور.. بدأت صورة الأستاذ المثقف تختلط بصورة الرجل.. بدأت أحبك.. ولكنى قاومت بعنف.. قاومت حبك، وقاومت فى صورة الرجل.. وحاولت أن أتشبث بكل قواى فى حائط الثقافة الذى يحمينى من الرجال.. من الحب.. أنت لا شىء سوى كتاب.. ثقافة.. هكذا كنت أحاول أن أقنع نفسى.

إلى أن انتهى العام الدراسى.. ونجحت فى مادتك بأعلى درجة حصلت عليها طالبة، ربما حتى الآن.
وفى فترة الأجازة، مرضت أمى.

■ الهزيمة ■

واشتد بها المرض.
وبدأت بين أمهاتها التي تنطلق من آلامها الفظيعة تلج على أن
أتزوج.. كانت تحس بأنها على وشك الموت، وكان الزواج هو
الحل الوحيد لإعالتى بعد أن تموت.. فلم يكن لى أحد، ولم يكن
لى سوى ما يتبقى من معاش أبى.
وثار كبريائى.
وثار عنادى.

إن الزواج معناه القضاء على كل أحلامى.. ولكن تأوهات
أمى وذبولها يوماً بعد يوم، كان ينقلنى من سماء كبريائى،
ومن أحلام ثقافتى، إلى الواقع.. إلى الأرض.. إنى فعلا
وحيدة.. وفعلا ليس لى من يعولنى بعد أمى.
وبدأت أفكر فى الزواج.

ولكنى لم أفكر فى الزوج.. رضيت بأول الواقفين على
الباب، وكان أكثرهم إلحاحاً، وكان أيضاً أغناهم.. إنه تاجر..
يعمل بالتصدير والاستيراد.. ويملك مصنعا صغيرا للطلوى..
وعماره.. وخمسين فدانا.

ولم أكن أنتظر أن يكون مثقفا.. ولكن غرورى جعلنى
أتصور أنى أستطيع أن أجعل منه إنسانا مثقفا.. أن أضع كل
ما فى عقلى من كتب، فى عقله.. وربما كان استسلامه لى فى
فترة الخطوبة القصيرة، واحتماله فى صمت لمحاضراتى
الطويلة التى ألقىها عليه قد أثار غرورى أكثر، وطمأننى أكثر
إلى أنى أستطيع أن أجعل منه الرجل الذى أريده.

وتزوجنا بعد شهرين من إعلان خطوبتنا.. وانتقلت معه إلى
بيتى الجديد.. شقة فاخرة كان زوجى قد أثثها بنفسه أثاثا
بانحاً.

وماتت أمى بعد زواجى بأسبوعين.. راضية.. مطمئنة على.

■ الهزيمة ■

ولم يبق لى إلا زوجى، وثقافتى بكل ما تثيره فى من تعال وكبرياء كاذب.

وقبل أن ينقضى الشهر الأول بدأت أكتشف هذا الرجل الذى تزوجته، بعد أن أزاح عن وجهه الصمت الذى كان يختفى وراءه فى فترة الخطوبة، اكتشفت أنه لم يكن يريدنى كإنسانة مثقفة مهذبة، ولكنه فقط كان يريدنى كامرأة.. وقد عرف منذ الليالى الأولى أنى لا أستطيع أن أكون المرأة التى يريدناها.. واكتشفت أيضا أن هذه الشقة الفخمة الباذخة الأثاث لم يؤثثها لى، ولكنه أثثها ليصطاد فيها عملاءه الذين يتاجر معهم، أو يستفيد منهم فى تجارته.. ويوما بعد يوم، أصبح أكثر صراحة.. إن موائد القمار تمتد فى بيتى كل ليلة.. وزجاجات الويسكى.. وجوزة الحشيش.. ونساء لسن بالزوجات يصبحن الرجال.. وهو يريدنى أن أَرْضَى بكل ذلك، بل أن أشارك فيه.. يريدنى أن أَلْعَب القمار، وأن أَسْكُر، وأن أدخن الحشيش، وأن أصادق هؤلاء النساء.. بل أكثر من ذلك.. يريدنى أن أكون سهلة مع أصدقائه الرجال.. أن أكون لطيفة.. دُمى خفيف.. أتحمل غزلهم.. و.. واعترضت.. حاولت أولا أن أعترض فى هدوء.. أن أقنعه بأن هناك طريقا آخر للحياة أنظف وأجدى من هذا الطريق.. كنت أريد أن أقنعه بمتعة العقل.. إن العقل وحده يستطيع أن يحقق شيئا أكثر مما تحققه الشهوة، والغريزة الإنسانية البدائية السخيفة.. ولكنه كان يسخر منى ومن ثقافتى.. ويتهمنى بالبرود ويصفنى بثقل الدم.. وكنت أصرخ، فيصرخ أكثر منى.. إلى أن، ضربنى مرة.. ضربنى لأنى أهنت رجلا من أصدقائه حاول أن يشد امرأة جاء بها فى إحدى هذه الليالى، ويدخل بها إلى فراشى.

ولم أستطع أن أهجر هذا الزوجة حتى بعد أن ضربنى،

■ الهزيمة ■

فلم يكن لى مكان أذهب إليه إذا تركته.
كل ما فعلته أنى تعاليت عليه.. واجهته وواجهت أصدقاءه
باحترامى.. وانزويت فى مكان ضيق من البيت أنا وكتيبى،
أقرأ.. وأقرأ.. ولا أعترض على شىء مما يجرى فى بيتى..
ولا أطلب من زوجى شيئاً.. الشىء الوحيد الذى طلبته هو أن
يسمح لى باستكمال دراستى الجامعية، بأن أعود إليك.. ولكنه
رفض ساخراً.. وقال لى إن الأجدى على أن أتعلم كيف أكون
امرأة.. ولم أرد عليه.. ولم أتمسك بالعودة إلى الجامعة، وأقنعت
نفسى بأن الثقافة فى الكتب وليست فى الجامعة.. وبينى وبين
هذا الزوج معركة رهيبة صامتة.. معركة بين كبرياء الإنسان
المثقف وكبرياء الإنسان الغنى.. معركة بين الثقافة والمال..
ولم أكن أحس بلحظات الهزيمة إلا عندما يأتى إلى ويطلب
بحقه فى جسدى كزوج.. وأعطيه جسداً أبعد من لوح الثلج،
أحس به يذلنى.. يهيننى.. يصفعنى.
عزيزى أحمد.

فى هذه الأثناء بدأت أتصل بك فى التليفون.. كنت فى حاجة
إليك.. كنت فى حاجة إلى إنسان من عالمى يشعرنى بأنى
مازلت على قيد الحياة.. كنت فى حاجة إلى نافذة أفتحها وسط
هذا الظلام البشع، ليطل على من خلالها قيس من النور
النظيف.. نور العقل والروح.. وكنت أنت هذه النافذة.. وقد
تذكرتني منذ مكالمتنا الأولى.. هل تذكر.. كأنك كنت دائماً فى
انتظارى.

وتعددت مكالماتنا فى التليفون كل يوم نتحدث.. أناقشك
فيما أقرؤه.. وأطير معك فى عوالم الثقافة.. ولكن.. لم يكن هذا
كافياً، كان لابد أن نلتقى.. وأنت تلح على لأحد لك موعد
اللقاء.. وأنا أرفض فى رفق.. ولم تكن تدري كم أتعذب وأنا

■ الهزيمة ■

أرفض.. وكـم أدفع من أعصابى ثـمنا لإرادتى.. لقد كنت أيامها أحبك.. أحبك حبا كاملا، وعندما كنت فتاة كنت أحبك بعقلي، وخيالى، وعواطفى.. ولكنى بعد أن تزوجت أصبحت أحبك بجسدى أيضا.. إن الزواج يربط الجسد بالعاطفة.. والعاطفة بالجسد.. ليست هناك امرأة تستطيع أن تحب بعواطفها فحسب.. إن الفتاة بعد أن تصبح امرأة لا تستطيع أن تفصل خيالها عن واقعها.. لأنه لا يصبح هناك شىء من التقاليد ولا من الإحساس الفسيولوجى يفصل بينها وبين الواقع، وهكذا كنت أحبك.. خيالى وواقعى.. كنت أريدك أن تعطينى كل ما حرمنى منه هذا الزوج، العقل، والقلب.. والجسد.. وبرغم ذلك قاومت، لأن استسلامى كان معناه هزيمتى.. هزيمة كبرىائى.. كان معناه أنى لم أعد أفضل من هذا الزوج الذى أحقره.. كان معناه أن كل ما يفصل بينى وبينه هو اختلاف فى المزاج لا اختلاف فى المبادئ وفى المستوى الثقافى.

وكان زوجى قد بدأ يسافر كثيرا إلى الخارج، ويغيب فى كل مرة شهرا وشهرين.. ورغم ذلك كنت أرفض أن أذهب إليك.. وأنت صابر يا حبيبى.. لا تملنى.. وتعطينى من روحك قوة أستعين بها على حياتى.

إلى أن عاد زوجى مرة من الخارج.. وجاء إلى.. وأسلمته هذا الجسد البارد، وأنا أحقره وأزدريه.. وفجأة انتفض بعيدا عنى وهو يصرخ ويعلن فى وجهى خطة انتقامه الرهيب.. إنه لن يعود إلى.. سيتركنى.. ولكنه لن يطلقنى حتى لا يتزوجنى رجل آخر.. وسيترك لى هذه الشقة، ويدفع إيجارها.. ولكنه لن يدفع أكثر من ذلك.. سيتركنى أعول نفسى.. ولنر إذا كانت ثقافتى ستفغننى.. وقبل أن يخرج من البيت جمع كل مصاغى وكل قرش، وأخذته معه.

■ الهزيمة ■

خطة دبرها صاحب مال، يريد أن يخنقنى بحاجتى إلى المال.
وقد قلت لك كل ذلك فى التليفون.. وكنت رقيقا حنونا
ورجوتنى أن أعتبرك مسئولا عنى إلى أن أستطيع أن أدبر
أمرى.. وعرضت على أن ترسل لى مبلغا من المال.. ولكنى
رفضت.. قلت لى أن أعتبر المبلغ على سبيل القرض، ولكنى
رفضت.. وقلت لى وأنت تحتد احتداد إنسان يحب، إنه لا يعقل
أن تحبنى وأحبك، دون أن أعتبرك رجلى المسئول عنى.. ولكنى
رفضت.

وبدأت أواجه أياما غريبة.
إنى أقيم فى شقة فخمة، وفى أرقى حى من أحياء القاهرة،
وليس معى ولا قرش.. كيف آكل.. وكيف أدفع حساب
التليفون، والنور، وبائع الصحف.. و.. أشياء كانت تبدو
صغيرة فى حياتى، أصبحت مشاكل ضخمة.. معضلات.
واقترضت من صديقتى فتحية التى تقيم فى الشقة
المجاورة، عشرة جنيهات.

وبعد أيام وجدت فى البيت بضع زجاجات الويسكى التى
تركها زوجى وراءه، فأعطيتها لفتحية.. وأعطتني ثلاثين جنيها
بعد أن خصمت العشرة جنيهات التى أقترضتها منها.
وأنا حائرة.. يائسة.. ولم أكن أستطيع وسط هذه الحيرة
البائسة أن أستمر فى مقاومتك.. فى مقاومة نفسى.
ذهبت إليك.

ولم تكن فى حاجة إلى مقدمات.. لقد استمرت المقدمات
بيننا أكثر من عامين.. وكان توتر أعصابى كفيلا بأن يدفعنى
إليك كلى.. أعطيتك نفسى منذ اللقاء الأول.. لا.. لم أعطك
نفسى، بل أخذتك، فربما كنت فى حاجة إليك، أكثر من حاجتك
إلى.

■ الهزيمة ■

وقبل أن أنصرف من بيتك.. لمحتك تدير ظهرك وتخرج
محفظتك وتلتقط منها مبلغا من المال، وتدسه فى حقيبتى..
لمحتك.

وأحسست بتيار بارد كريح الثلج يسرى فى عروقى كلها..
ولكنى سكت..
لم أتكلم.

حملت حقيبتى كأنى لم ألمح شيئا.. وتركتك تقبلنى على
جيبى البارد، وخرجت عائدة إلى بيتى، وفى كل خطوة تكتمل
فى خيالى صورة بشعة لنفسى.. خط بعد خط يرسمه خيالى
حتى اكتملت الصورة.. صورة مومس.. نعم صورة مومس..
امرأة تبيع جسدها.. وصدقنى أنى حاولت كثيرا أن أبعد هذه
الصورة عن خيالى.. حاولت أن أقنع نفسى بأنك تحبنى، ولأنك
تحبنى فأنت مسئول عنى كزوجى وأكثر.. وحاولت أن أقنع
نفسى بأن ما أعطيته لى هو مجرد قرض.. حاولت كثيرا..
ولكن عيئا.. صورة المومس تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر..
لقد ذهبت إليك وأنا إنسانة مثقفة وزوجة التاجر الكبير
عبدالقادر عبدالله، وخرجت من عندك.. مومسا.

ووصلت إلى بيتى وانكفأت على وجهى أبكى.
بكيت كثيرا.

بكيت الإنسانية المثقفة التى فقدتها.

بكيت كبريائى وعنادى.

بكيت هزيمتى أمام الزوج الذى أكرهه.

وأفقت من بكائى وفى رأسى قرار حاسم.. لن أراك بعد
اليوم.. لا أريد أن أراك كمومس.. ولم يكن هناك شىء يستطيع
أن يقنعنى يومها بأنى لست مومسا، وأننى فقط امرأة فى
حاجة إلى معاونة حبيبها.

■ الهزيمة ■

كنت أعرف أنى لن أذهب إليك بعد اليوم إلا وأنا أشعر
بحاجتى إلى النقود، وأنت تشعر بواجبك الذى يحتم عليك
إعطائى النقود.. سئظل النقود بيننا عنصرا من عناصر حبنا..
أو علاقتنا.. ولم يكن هذا فى حسابى أبدا.. لم أحبك أبدا وأنا
أشعر بحاجتى لأن تنفق على.. كنت أحبك وأنا أشعر بحاجتى
إلى ثقافتك، وإلى رجولتك.. وإلى حنانك.. ولن أذهب إليك أبدا
وأنا فى حاجة إلى مالك.. إنى لا أحبك وأنت تعطينى مالا.. إنك
تجرحنى.. تهيننى.. لا تقل لى أن أعتبرك زوجى، فأنت لست
زوجى.. إن الزواج ليس علاقة بين شخصين.. ولكنه علاقة مع
مجتمع.. مجتمع يسمح للرجل أن ينفق على المرأة.. وأنت وأنا
ليس لنا مجتمع.. إننا نختبئ من المجتمع.. والمجتمع لا يسمح
لك أن تنفق على إلا إذا اعتبرنى مومسا.. امرأة تبيع جسدها..
وأنا لا أريد أن أكون مومسا.. لا أريد.

ولن أراك بعد اليوم.

وعندما اتصلت بى فى التليفون تسألنى لماذا لم أتصل بك،
قلت لك فى صوت مبحوح خطير، كأنه بقايا روحى :

- أرجوك.. لا تتصل بى بعد الآن.

وسمعتك تقول كلاما كثيرا.. ثم تردد.. مجنونة.. مجنونة.

وتعود تقول كلاما كثيرا.

وأنا صامتة.

وأعدت السماعه إلى مكانها.

وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى سمعت صوتك فيها.

وبرغم ذلك.. فقد أنفقت النقود التى أعطيتها لى.. كنت فى
حاجة إليها.. كم أعطيتنى.. خمسين جنيهها على ما أذكر.. وقد
صرفت فى أقل من شهر.. وعدت واقترضت من صديقتى
فتحية.. وأنا أعيش حياتى كالمشلولة، ولا أدرى كيف أتصرف..

■ الهزيمة ■

ولا ماذا أفعل.. أفكر فى أن أعمل.. وفى أن أدرس.. ولكنى لا أعمل شيئا، ولا أدرس شيئا.. وفتحية تعرف عنى كل شىء.. وتعرف أيضا قصتى معك، وقد حاولت كثيرا أن تقنعنى بأن أعود إليك، على الأقل إلى أن أحل مشكلتى مع زوجى.. ولكنى أرفض فى عناد وفى كبرياء.. وأنت قد أخذتك العزة بنفسك بعد أن قطعت حديثك فى التليفون، فلم تعد تحاول أن تتصل بى.. وزوجى لا أدرى مكانة، ومكتبه يتولى دفع إيجار الشقة كل شهر.. فقط إيجار الشقة.

ودعتنى فتحية إلى قضاء السهرة عندها.. وكان هناك رجل وسيم مهذب.. أخذت فتحية تروى أمامه قصة زوجى معى.. وهو يواسينى.. ويقترح على الحلول.. ثم اتصل بى بالتليفون فى اليوم التالى.. و.. و.. ولا أطيل عليك.. ذهبت إلى لقائه.. واستسلمت وأنا مذهولة.. لم أكن أدرى أيامها أين أقف، ولا ما هى مبادئى، ولا ماذا أقاوم من أجله.. وفى نفس اللحظة الجارحة.. اللحظة التى انتهت فيها منى، وبدأت أرئدى ثيابى.. لمحتة كما سبق أن لمحتك.. لمحتة يفتح محفظته، ثم يدس فى حقيبتي مبلغا من المال.

وخرجت من بيته وخيالى يرسم لى نفس الصورة.. وخط وراء خط واكتملت الصورة.. صورة المومس.. والصورة تكبر فى خيالى.. وتكبر.. وتكبر.. وانكفات على فراشى أبكى.. ورفضت فى عناد عجيب أن أذهب إلى لقائه مرة أخرى.. وبرغم إلحاحه وتوسلاته، وبرغم كل محاولات صديقتى فتحية فى إقناعى.. لقد ذهبت إليه وهو يعتقد أنى إنسانة مثقفة وحرمة التاجر الكبير عبدالقادر عبد الله، ولن أعود إليه كمومس.. وبرغم ذلك أنفقت النقود التى أعطاه لى.. كم أعطانى..

■ الهزيمة ■

أربعين.. ربما كان ينوى أن يعطينى خمسين، ثم اختصر عشرة جنيتها في آخر لحظة.

و..

كم رجل.

كثيرون.. ولم أكن أقابل الواحد منهم إلا مرة واحدة.. كل منهم أذهب إليه كزوجة تخون زوجها، ثم أرفض أن أعود إليه كمومس.. ولم أكن أذهب إلى واحد إلا بعد أن تنتهي النقود التي أخذتها من الذي قبله، وبعد أن أقترض من فتحية عشرة جنيتها.. وفتحية تقول عني إنى مجنونة.

وكنت لا أزال أقرأ وأقرأ.. ولكنى لم أعد أحس بأنى محترمة وأنا ممسكة بالكتاب كما كنت أحس دائماً.. لم أعد أحس بأنى من عائلة أرسطو وهكسلى وسارتر.. حتى هذه العائلة فقدتها. يتيمة.. بلا عائلة.. وبلا مال.. وبلا زوج.. وبلا ولد.. وبلا حبيب.. بلا أحد يحترمنى واحترمه.. حتى نفسى لا أحترمها ولا تحترمنى.. وانطلقت أضحك ضحكات مجنونة.. لقد هزمت.. هزمت منذ زمان طويل، وهزمت أمام صاحب المال.. المثقف هزمت حاجته إلى المال.. وقسوة الإنسان الغنى، هزمت كبرياء الإنسان المثقف.. وبسرعة جريت إلى التليفون، واتصلت بمدحت درويش.. إن مدحت كان أكثر أصدقاء زوجى إعجاباً بى، وأكثرهم جرأة على مغازلتى، وكنت أصده واحترمه.. وكان زوجى يجن كلما صدده.. إنه موظف كبير.. صاحب نفوذ.. فكيف أعامله هذه المعاملة.. لن أعامله هذه المعاملة.. وضحكت له نى التليفون، ودعوت له لقضاء السهرة معى.. فى بيتى.. وذكرته بأن يأتى معى بزجاجة ويسكى..

وجاء مدحت.

وزجاجة الويسكى.

■ الهزيمة ■

ولم يترك لى شيئا فى حقبة يدى قبل أن يتركنى، ولكنه
اقتنع بأن زوجى يجب أن يعود إلى وتعهده بأن يعيده.. وقهقهه
قهقهة عالية فظيعة وهو يقول : هو جوزك حايلاقى واحدة
زيك فين.

وعاد الزوج.

وعادت مائدة القمار، وزجاجات الخمر، وجوزة الحشيش،
والنساء اللاتي لسن زوجات.. وأنا أشارك فى كل ذلك.. ألعب
القمار، وأدخن الحشيش، وأسكر.. و.. كل شيء.

إننى أعيش فى هزيمتى.

وزوجى يعيش فى انتصاره.

شيء واحد حميته من هزيمتى ومن انتصار زوجى.. حبى
لك، حميته بابتعادى عنك.. فقد أحبيتك كما كنت، منتصرة..
لا كما أصبحت، مهزومة.

عزيزى أحمد :

الآن.. وبعد خمسة عشر عاما.. لعلك تستطيع أن تفهمنى.

وشكرا لأنى رأيتك.

وشكرا لأنك لم ترنى.

لا تدبحوا الفراعنة ..

لا تقتربوا منى..

أنا مجنون..

وجنوني قاتل

ولكنى اختلف عن بقية المجانين بأننى أعرف

أنى مجنون.. وأعرف بالضبط متى أصبت بالجنون.. إنه جنون من النوع المتقطع.. فترات تمر بى، ثم أفيق منها، وأعود إنسانا عاقلا يستطيع أن يناقش جنونه ويدرسه ويعرف أسبابه، وإن كان لا يستطيع أن يقاومه.

متى جننت ؟

فى الحادية عشرة من عمرى.. منذ حوالى الثلاثين عاما.. وبرغم أن جسمى أيامها كان يبدو أضخم وأكبر من عمرى، إلا أنى كنت صبيا رقيقا خياليا.. كنت أهوى الرسم.. وأقضى معظم أوقات فراغى أرسم هذه الرسوم السانجة التى يرسمها الأطفال.. وكنت أحب أن أجلس مع جدتى، أستمع منها إلى

■ لا تذبحوا الفراخ .. ■

حكاياتها الحلوة المثيرة.. وكنت أجرى إلى أبى كلما وقف للصلاة لأصلى خلفه، وأحاول أن أقلده فى صوته وحركاته.. كنت طفلا يملأ السلام قلبه وخياله.

وكنا أيامها نقيم فى حارة نصير بالعباسية.. وأذهب أنا وثلاثة من أبناء الحارة إلى مدرسة السلحدار الابتدائية التى تقع عند بوابة الفتوح ملاصقة لجامع الحاكم بأمر الله.. وكنا نذهب إليها سيرا على الأقدام برغم بعد المسافة.. مسافة طويلة نقطعها فيما لا يقل عن ثلاثة أرباع الساعة.. وكان يجب أن نمر فى طريقنا بشارع الحسينية.. الشارع الذى يشق الحى الشعبى العريق.. وكان صبية حى الحسينية يعتبرون كل تلميذ يمر بهم مرتديا بدلة، وفى قدمه حذاء، وعلى رأسه طربوش.. كانوا يعتبرونه غنيمة لهم.. فيجرون وراءه ويخطفون طربوشه أو يضربونه عليه حتى يبططوه، ولا يتركونه إلا فى نهاية الشارع عندما يصل إلى بوابة الفتوح.

وكنت أنا وزملائى لا نكاد ندخل شارع الحسينية فى طريقنا إلى مدرستنا، حتى تمتلئ قلوبنا بالرعب من صبية الحى.. ونسير فى خطوات مرتجفة حذرة، ملتصقين بالجدران، ونحن نتلفت حولنا حتى إذا لمحنا الصبية يهجمون علينا التجأنا إلى أقرب دكان أو إلى أقرب مقهى نحتمى بصاحبه ونحن نصرخ :

— والنبي يا عم.. حوش عنا العيال يا عم.

وكان صاحب الدكان أو المقهى يحميننا فعلا، ويطرد الصبية من ورائنا.. ثم نعود نسير فى خطواتنا المرتجفة الخائفة، حتى

■ لا تذبحوا الفسراخ .. ■

نحتفى فى دكان آخر أو فى مقهى آخر.. وهكذا من دكان إلى دكان، ومن مقهى إلى مقهى، حتى نصل إلى المدرسة.. وبرغم هذا.. لم نكن دائماً نصل سالمين.. كنا كثيراً ما نصل وطراييننا مبطة أو مفقودة، وثيابنا ممزقة.

وكانت أخطر المناطق التى نمر بها فى شارع الحسينية، هى منطقة ضريح سيدى البيومى، وهى تقع فى النصف الأول من الشارع، من ناحية العباسية.. كان أولاد البيومى هم أشرس أولاد الحسينية، وأكثرهم تحدياً وحقدًا على أولاد العباسية.. ربما لقرب حيهم من حيننا.. ولأنهم كانوا - حتى الأطفال - ينفسون عن حقد طبقى يلح عليهم.. فأولاد البيومى كلهم من أولاد البلد.. أولاد صغار الباعة، والعمال، والعاطلين، بينما أولاد العباسية أغلبهم من أولاد الموظفين، وضباط الجيش، والتجار.. صغارهم وكبارهم.. فقد كانت العباسية تنقسم إلى حينين. الحى الشرقى ويسكنه كبار الموظفين وكبار الضباط وكبار التجار، والحى الغربى ويسكنه صغار الموظفين، وصغار الضباط، وصغار التجار.. وتقع فيه حارتنا.. حارة نصير.

وكنا نعود من المدرسة فى المساء ونجتمع بأولاد حارتنا، ونروى لهم ما حدث لنا فى يومنا مع أولاد الحسينية، وخصوصاً أولاد سيدى البيومى. وبدأت اجتماعاتنا فى الحارة تتخذ شكل مجلس أعلى يضع خطة لحمايتنا أثناء ذهابنا إلى المدرسة وعودتنا منها.

وقد اقترحت أن نذهب ونقابل المعلم إبراهيم عرا فتوة

■ لا تنبحوا الفراع .. ■

الحسينية ونطلب حمايته لنا.. ورد ابن حارتنا، محمود
حسنين :

- ما ينفعش.

وقال واحد منا :

- آمال إيه اللى ينفع ؟

وقال محمود حسنين وهو يشوح بيده :

- نحاربهم.

ولفتنا سحابة من الوجوم والصمت.

وصرخ محمود :

- احنا خايفين ليه.. إذا كانوا هم ولاد الحسينية برضة احنا
ولاد العباسية.

وهل أولاد حارتنا.. وانطلق الحماس من حناجرهم.

وكان محمود أكبرنا سنا.. إنه فى الخامسة عشرة من
عمره، وهو ابن الحاج حسنين صاحب المخبز البلدى الذى يقع
فى شارع رضوان شكرى، وهو الشارع الذى تتفرع منه
حارتنا.. وكان محمود يسيطر علينا جميعا.. لا لأنه أكبرنا
وأقوانا، ولكن لأنه أيضا شديد الذكاء، لا يكف عن ابتكار
المشروعات التى يشركنا فيها جميعا.. أقام مرة مشروعا لخيال
الظل، وكان هو بنفسه الذى يحرك الدمى خلف الشاشة، وكان
يتقاضى من كل واحد منا مليما أجرا لمشاهدة خيال الظل..
وفى مرة أخرى حصل على أدوات صنع الدندمة، وصنعها
بنفسه وأخذ يبيعها لنا.. لم يكن رأسه يكف عن المشروعات..
وكان مشروع إعلان الحرب على أولاد الحسينية هو واحد من
هذه المشروعات.

■ لا تذبحوا الفرائخ .. ■

وذهب محمود ومعه بعض أولاد الحارة إلى الحسينية،
وقابلوا شلة الصبية المتجمعين عند ضريح سيدى البيومى..
طبقا لتقاليد الفتوات الكبار.. وقالوا لهم :
- اطلعوا لنا برة.

ورضى أولاد سيدى البيومى أن «يطلعوا برة».. أى فى
أرض لا يملكها أحد.. لا هى أرض الحسينية ولا أرض
العباسية.. واتفقوا على أن يلتقى الجيشان.. جيشنا وجيشهم..
فى مكان يسمى «أرض العيون» يقع فى صحراء العباسية..
وذلك فى يوم الجمعة عقب الصلاة.

وبدا محمود يتولى القيادة، ويضع الخطط.. وأخذنا معه إلى
أرض العيون، وحدد المكان الذى سنبدأ منه هجومنا.. وجمع
قطع الحجارة فى أكوام وغطاها بالرمال حتى لا يكتشفها
العدو.. ثم بدأ يدرينا على استعمال «المقلاع» الذى تقذف به
الحجارة من بعد كبير.. وأخيرا جمع بعض العصى الغليظة
وأخذ يشق كل عصا من طرفها ويثبت فيها قطعة من حجر
البازلت الثقيل ويربطها بقطع من القماش، وخيوط من السلك،
فتصبح كبلطة من التى كان يستعملها الإنسان الحجري، أو
التى يستعملها الهنود الحمر الذين نراهم فى أفلام رعاة البقر.
وكان إحساسى حتى هذا اليوم إحساسا سلبيا، لم أكن
أشعر بحماس ولا بفتور.. ولم أكن أتصور نفسى عندما يبدأ
القتال.. ولم أكن أدرى كيف أتصرف.. كنت فقط أزال أولاد
الحارة فى كل ما يفعلونه لمجرد إحساسى بأنى ابن الحارة.
إلى أن وضع محمود فى يدي إحدى «البلط» التى صنعها..

■ لا تذبحوا الفراخ .. ■

وقد اختارنى فى فرقة حملة البلط لانى - كما قلت - كنت أبـدو
أكبر وأضخم من سنى.

وما كاد محمود يترك البلطة فى يدى حتى أحسست بها
تأخذنى معها.

تشدنى إليها.

وأحسست بأصابعى تلتف حول مقبضها، فى قوة، كأنها
التصقت بها.. أحسست أنى لن أستطيع أبدا أن أفك أصابعى
من حولها.. ليست أصابعى هى التى التفت حول البلطة..
ولكنها البلطة التى جذبت أصابعى إليها ولفتها حولها، كأنها
مغناطيس.

وأحسست بشىء يتحرك فى صدرى.

لا أدرى ما هو.

كأنه عفريت كان نائما ثم بدأ يستيقظ.. ويتثأب.. إنى أكاد
أسمع صوت تتأؤبه.. أكاد أراه وهو يمد ذراعيه داخل صدرى،
ويتمطى.. لعل هذا العفريت كان نائما فى صدرى منذ ولدت..
منذ ولد الإنسان.

وفجأة رفعت البلطة إلى أعلى وضربت بها الفضاء.

لا..

أقسم لكم أننى لم أرفع البلطة.

هى التى رفعت ذراعى.

هى البلطة.

وأصابعى ملتفة حولها لا تريد أن تتركها.. لا تستطيع..
حتى عندما ذهبت لأنام ظلت ملتصقة بأصابعى.. وكانت أحس

■ لا تذبحوا القراخ .. ■

بها - بالبلطة - تهزنى فى نومى إلى أن أستيقظ.. أستيقظ
فعلا.. وتشدنى من فراشى.. وترفع ذراعى، ثم تهوى بنفسها
فى الفضاء.. ثم أعود لأنام، إلى أن توقظنى البلطة مرة ثانية.
وكان اليوم التالى هو يوم المعركة.
وجاء جيش سيدى البيومى.
واصطف جيشنا فى خطوطه.
وبدا التقاذف بالطوب.
والبلطة فى يدى.
وهذا الشئ الذى فى صدرى يصرخ.
ثم فجأة وجدت البلطة تشدنى وتجرى.. تجرى بى.. تجرى
بى نحو خطوط الأعداء.
ورفعت البلطة ذراعى، ثم هوت بنفسها فوق رأس طفل من
أطفال البيومى.
لقد رأيت هذا الطفل.
رأيتة يعينى.
رأيتة قتيلا والدم ينزف من رأسه.
وأذكر أنى ضحك.. أو أنى سمعت صوتا كالضحك..
ولا أدري أنا الذى كنت أضحك أم البلطة.. ولكنه كان ضحكا
كالصراخ.
ولا أذكر شيئا بعد ذلك.. أفقت وأنا فى فراشى أعانى من
حمى خطيرة، أرقدتنى أكثر من شهرين.
ولم يكن أحد قد أكتشف بعد أنى مجنون.



■ لا تذبحوا الفراه .. ■

وقد انتقلنا من حارة نصير بعد معركة أرض العيون، وسكننا في مصر الجديدة، وخصوصا أن أبى ارتقى أيامها إلى الدرجة الخامسة.. وخرجت من مدرسة السلحدار، والتحقّت بمدرسة مصر الجديدة.

وأصبحت إنسانا هادئا.. أكثر هدوءا من شاب في مثل سنى.. أصبحت منطويا.. نفورا من الناس.. لم يكن نفورا ولكنه كان أشبه بالخوف.. ولم أكن أخاف من الناس، بل كنت أخاف عليهم.. أخاف عليهم من نفسى.. لا أدري لماذا.. ولكنى فعلا كنت أخاف عليهم إلى درجة أنى لم أحاول أن أتخذ صديقا.. لم يعد لى أصدقاء.

وفى صدرى دائما شىء ثقيل.. نائم.. كأنه هذا العفريت الذى ولد معى منذ ولدت.. منذ ولد الإنسان.. ولكنه نائم. إلى أن بلغت التاسعة عشرة من عمرى.

وكنّت أستعد لامتحان شهادة التوجيهية، وسمع لى أبى أن أذاكر على مكتبه.

وعلى مكتب أبى «فتاحة ورق» على شكل خنجر.. مقبضه يملأ الكف، وسلاحه رفيع حاد.

ولاحظت أن الخنجر ينظر إلى.

كان ينظر إلى فعلا.

وكنّت أشيح عنه وجهى، ولكنى لا أكاد ألتفت حتى أراه لا يزال ينظر إلى.. ويدعونى.. يدعونى إليه.. الخنجر.

وجذب الخنجر يدى نحوه.. وطوى أصابعى حول مقبضه..

ثم رفع ذراعى، وهوى بنفسه على خشبة المكتب.

■ لا تذبحوا الفسراخ .. ■

ولا أستطيع أن أفك أصابعي من حول مقبضه.. كأنها التصقت به بمغناطيس.. وهذا الشيء بدأ يتحرك في صدري..
إنني أكاد أسمعُه يتنأب مستيقظاً من النوم.. وأكاد أراه داخل صدري يمد ذراعيه ويتمطى.

وفجأة دخلت خادمتنا سنية إلى الغرفة.. وإذا بالخنجر يشدني من فوق مقعدي، ويرفع ذراعي في الهواء، ثم يهوى بنفسه على سنية.

ورأيته.

رأيته تحت أقدامي والدماء تنزف منها.. وسمعت ضحكا.. لا أدري هل أنا الذي ضحكت أم الخنجر.

ولكنه كان ضحكا كالصراخ.

ولا أذكر شيئاً بعد ذلك.

وأفقت وأنا صريع الحمى.. وعلمت أن سنية لم يقتلها الخنجر.. فقد أصابها في كتفها وفي رقبته.

وربما عرف أبي أيامها أنني مجنون.. ولكنه أخفى جنوني.. أبت عليه كرامته، أن يعلن جنوني.. واستطاع أن يسوى الجريمة مع أهل سنية.. عالجه ودفع لها تعويضا.. وكان يقول لمن سمع الخبر إنني كفت مرهق الأعصاب من أثر المذاكرة، وأن سنية أثارتني، ولكن أمي صممت أن تدعو الشيخ إدريس ليطرده عنى العفاريت التي تركبني.

وجاء الشيخ إدريس.. وقرأ أوراده فوق رأسي، وأحرق من حولي البخور، ثم اختلى في إحدى حجرات البيت ليلة كاملة وهو عار من كل ثيابه.. بلبوص.. ليس معه إلا مبخرة، وصينية عشاء فاخرة.

■ لا تذبحوا الفراخ .. ■

وخرج الشيخ إدريس علينا فى الصباح - بعد أن ارتدى ثيابه - ليقول لنا إن الجن تطلب منى أن أذبح فى كل يوم فرخة.. أن أذبحها بيدي.

إن كلام الجن لا يخلو من المنطق.. إنهم يريدون أن يداووننى بالتي كانت هى الداء.. يريدون أن يشفونى من ذبح الناس بأن يعودونى ذبح الفراخ.. منطق. ولكنه منطق فارغ.

إنهم لا يعلمون أنى لا أريد أن أذبح لا الناس ولا الفراخ.. أنا لا أريد أن أقتل.. السكين هى التى تريد أن تقتل.. البلطة هى التى تريد أن تقتل.. المسدس يريد أن يقتل.. الدبابة تريد أن تقتل.. القنبلة تريد أن تقتل.. الصاروخ يريد أن يقتل.. أما أنا فلا.. لا أريد أن أقتل.. صدقونى أننى لا أريد أن أقتل. ولكن أمى الطيبة مقتنعة بكلام الشيخ إدريس، وتريدنى أن أذبح فى كل يوم فرخة.

يا أمى.. قليل من الذكاء.. لو أن ذبح الفراخ يعوض عن ذبح الناس، لكان معنى ذلك أن الحروب لا تقوم إلا لأن الناس لا تجد فراخا تذبحها.. ولكن الحروب تقوم.. ويذبح الناس بعضهم بعضا.. ويذبحون أيضا الفراخ والحمائم والبط والخراف والجاموس.. والعصافير.

يا أمى يا طيبة.. لا تضعى فى يدي السكين.. أتوسل إليك.. لا تضعى فى يدي السكين.. إن السكين التى تذبح الفرخة تذبح أيضا الناس.. قد تذبح أبى.. أختى.. ابن عمى.. حتى أنت يا أمى، قد تذبحك السكين التى تذبح الفرخة.

■ لا تذبحوا الفراخ .. ■

إنها سلاح يا أمي.
والسلاح يطول.. كما يقول الناس.. السلاح يطول، حتى
على صاحبه.



أنا الآن موظف.
ولا أحد يدري بجنوني.
وفى كل صباح أنظر إلى الجندي الذي يقف على باب
الوزارة، وقد علق مسدسه على جانبه، نظرة إعجاب وتقدير..
بل تقديس.
إنه بطل..
بطل كبير.
لا لأنه يحمل سلاحا..
ولكن لأنه لا يستعمل سلاحه.
إنه بطل لأنه يملك سلاحه، وليس سلاحه هو الذي يملكه.
وأنا خائف.
خائف دائما.
خائف على الناس.. من جنوني.

صائد الشـوال ..

ابنى محمود فى السابعة عشرة من عمره، وبرغم ذلك فهو زير نساء.. دون جوان.. فالنتينو.. عمر الشريف.. وأراه كل يوم يقف أمام المرأة، يسبب شعره.. ويستعرض عضلاته.. ☐ ويهندم ثيابه.. ويدق جرس التليفون، وأسمع صوت صبية صغيرة.. أقدر أكلم محمود من فضلك.. وينتقش صدرى كالديك الرومى فرحا بابنى محمود.. وأرفع صوتى كأنى أسد يزأر، وأصبح به.. تليفون علشانك يا محمود.. ثم أقف لأسمعه يحادث البنت فى خيلاء.. إنه واد تقيل يحادث البنات كأنه ربهن الأعلى.. ولكن محمود لا يتركنى أتمتع بسماع حديثه طويلا، إنه يأخذ التليفون، ويختفى به فى غرفته، ويغلق الباب وراءه.

إنى فرح بمحمود.

فرحتى بشبابى.

أنا أيضا كنت فى شبابى، زير نساء.. دون جوان..

■ صائد الغزال .. ■

فالتينو.. ولكن.. كانت مهمة الزير، أو الدون جوان أصعب على أيامى.. لم يكن عندنا تليفون.. ولم تكن البنات قد خرجن إلى المصانع والمكاتب والجامعات.. ولم تكن البنات تذهب إلى السينما وحدها.. أبدا.. إن الدون جوانية هذه الأيام هواية سهلة، كقرقرة اللب. أما على أيامنا فكانت تتطلب ذكاء وصبرا، وحرقة.. كان صيد البنات أصعب من صيد الأسد!

وكننت فى شبابى أسكن فى حى الدراسة.. وكانت لى ميزة كبيرة على جميع شبان الحى.. فقد كنت ساقط بكالوريا.. مثقف يعنى.. وكننت موظفا فى وزارة الأشغال.. كاتب أرشيف.. وكننت أرتدى بدلة وطربوشا.. أفندى يعنى.. ثم إنى كنت وسيماء، أنيقا، قهلويا.. كنت أملا كبيرا لكل بنت من بنات الحى.. ولكنى لم أكن أصطاد فى حيننا.. عيب.. ما يصحش.. على أيامنا كان الشاب يغار على بنات الحى كلهن غيرته على أخته، وعلى أمه.. فلا يسمح لنفسه بأن يتعرض لهن.. ولا يسمح لغريب.. الغريب الذى يتصدى لبنات من بنات الدراسة، وقعته سوداء.

كانت أماكن الصيد المفضلة عندى هى شارع الموسيقى، والغورية وبين الصورين، ثم شارع الأزهر.

وكانت الجميلات على أيامنا يختبئن فى الملاءات اللف.. كل بنات هذه الأحياء كن يلبسن الملاءة اللف.. وكان هناك كثيرات من جميلات الأحياء الأخرى يفدن على الموسيقى والغورية وهن مرتديات الزى الإفرنجى.. الفستان.. والبالطو.. ولكنى كنت دائما - ومازلت - أفضل الملاءة اللف.. الملاءة اللف لها طعم آخر.. إنها شىء كقشرة الموزة المعسلة.. فيها رخاوة.. وفيها أنوثة.. أنوثة ناعمة.. سايحة.. وفيها إثارة الكنز المخبأ الثمين..

■ صائد الغزال .. ■

الملاءة اللف هي المرأة.. المرأة بكل ما فيها من سحر.. وروعة.. وغموض.. وأحلام.. إنها تلف القمر فى سواد الليل.. تلف النور فى الظلام.. يا أرحم الراحمين.. أموت فى اللف.. واللف يتعب.. وقد كنت أتعب كثيرا.... كنت أمشى وراء البنت ساعات.. وأحيانا أياما.. أدخل من دكان إلى دكان.. ومن شارع إلى شارع.. ومن حارة إلى حارة.. وعيناي الظامئتان لا ترتويان من الجسد الملفوف الذى يتلوى أمامى.. والملاءة مشدودة حوله تبرز كل خط فيه.. والذراع البضة تطل منها حيناً، وتختفى حيناً كأنها عمود من نور البرق يشق كبد الليل.. والكعبان يرقصان فوق الشبشب المطرز كأنهما كعبا غزال.. رقيقان.. مشربان بالحمرة.. شهيان كقلب التفاحة.. يتاكلوا أكل.. يا باشا.. يا أرض احفظي ما عليكى.. يا خويا رد علينا.. يا جميل ارحم.. وبعدين معاك يا واد يا تقيل.. و.. وكل كلمة من هذه الكلمات لها معنى خاص، وتوقيت خاص.. ومناسبة خاصة.. إنك لا تستطيع أن تلقى الكلام هكذا جزافا لمجرد أنك تحفظه أو لمجرد أنك وقع.. لا.. إنك بذلك كأنك تطلق الرصاص فى الهواء، فيفر الغزال.. كل كلمة لها معنى، ولها مناسبة.. «يا باشا» غير «يا جميل».. و.. «أرحم بأة» تقال فى مناسبة تختلف عن «التقل صنعة».. والصياد الماهر هو الذى لا يطلق الرصاص إلا فى المليان.

وكانت كل رصاصاتى تصيب.

وكنت ألقى الجواب من حركات الملاءة اللف.. إن الملاءة اللف لها لغة خاصة.. ولها قاموس خاص.. يحتفظ به المتخصصون فى صيد الغزال من أمثالى.. علم واسع، يحتاج إلى دراسة وخبرة وصبر طويل.

■ صائد الغزال .. ■

هل تريد أن تعلم شيئاً من قاموس الملاة اللف؟
 اسمع يا سيدى.
 إذا فردت البنت ملاعتها بذراعها الأيمن ثم عادت وضممتها
 حول جسدها.. فمعنى هذه الحركة.. حصلنى.
 وإذا رفعت يدها وشدت طرف الملاة من فوق رأسها،
 فمعنى هذا.. كلامك على رأسى.
 وإذا ضمت الملاة على صدرها بكلتا ذراعيها وبحيث تخفى
 بها كل صدرها، فمعنى هذا .. أبويا ورايا.
 وإذا رفعت يدها، وعدلت عروسة البرقع فوق أنفها، فمعنى
 هذا.. أنت فى عنية.
 وإذا طرقعت بكعب الشبشب أثناء سيرها.. فمعنى هذا..
 وقعتك سودة.

و..

كل حركة، إشارة لها معنى.

إنه قاموس.

علم واسع.

والله أعلم.

ولم يحدث لى إطلاقاً أن طرقع كعب الشبشب فى وجهى..
 أبدا.. بعد كلمة أو كلمتين، تطلق على البنت سهم عينيها، وما
 تكاد تلمحنى حتى تفرد ملاعتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى..
 بعض البنات كن لا يحتملن كلمة والثانية.. وبعضهن كن
 يعذبننى وراءهن ساعة وساعتين.. وأحياناً يوماً ويومين..
 والصبر يا جميل جميل.. وينتهى صبرى دائماً بأن تفرد البنت
 دائماً ملاعتها بذراعها اليمنى.. وحصلنى.
 وأحصلها.

■ صائد الغزال .. ■

تسير فى شارع الموسيقى وأنا وراءها، حتى نصل إلى
ميدان العتبة الخضراء.. وكان ميدان العتبة على أيامنا هو بر
الأمان.. تستطيع فيه البنت أن تتحرر من تحفظها بعيدا عن
أعين تجار الموسيقى والغورية، وحماشة أولاد البلد.. وتسمح
لى بأن أسير بجانبها.. ونركب عربة حنطور - أو تاكسى - إذا
كنا فى أول الشهر.. أو ندخل حديقة الأزبكية.. وفى الجبلية
أمان من العوائل، وعسكرى البوليس.. ثم أنا وبختى.. يا طلعت
على ما قسم، يا إما جميلة دمها خفيف وقرفتها خفيفة
وبحبوحة.. لقد وقعت لى قطع فى منتهى الجمال.. غزلان
يا بنى.. غزلان.. وأنا الصياد.. صياد الغزال.

إلى أن وقعت فى قسمتى، نفيسة.

شى لله يا ست.

اللهم اجعل كلامى خفيف عليها.

رأيتها أول مرة فى شارع الموسيقى أيضا.. قوامها صغير..
زى اللعبة.. والملاءة اللف حولها كأنها ستأكلها أكلا..
وجسدها مشفى من غير عضم.. ومشيتها.. يا أرض احفظى
ما عليكى.. كأن كل قطعة منها تمشى وحدها.. صدرها
يسبقها.. وعجزها يجرى خلفها.. وعندما لمحت عينيها تطلان
من فوق البرقع خيل إلى أنى أصبت.. إيه ده يا جدعان.. دول
مش عينين دول.. دول نجوم.. دول دنيا.. عالم.. تهت فى
عينيها يا رجال.. خدينى وراكى يا ست قبل ما أتوه.

ومشيت وراءها.

وأطلقت أول رصاصاتى.. هدى الخطوة يا جميل.. ثم
رصاصة أخرى.. وبعدين معاك بآة، تعبنا.. ورصاصة ثالثة..
ورابعة.

■ صائد الغزال .. ■

ولا حركة.

ولا إشارة.

مشيت وراءها شارع الموسيقى كله إلى أن وصلت إلى ميدان الحسين، ثم انحرفت إلى الباب الأخضر.. واضطرت أن أقف.. فالمنطقة التي تقع فيما وراء الباب الأخضر لا تصلح للصيد.. إنها منطقة تحتلها شلة من الفتوات، مرهوبى الجانب. وعدت يائسا.

ولكنى فى اليوم التالى لمحتها.. نفيسة.. فى شارع الموسيقى.. فى نفس الموعد.. رب صدفة خير من ميعاد.. ومشيت وراءها.. برضه كده يا جميل.. هم علموك التقل ده فين.. أموت يعنى ولا أموت.. يا واد بحبها شوية.

ولا حركة.

ولا إشارة.

إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.

وعدت وأنا مصدوم.

وفى اليوم الثالث.

يا خويا ارحم بأه.. والله ما بنام الليل.. و..

ولا حركة.. ولا إشارة.. إلى أن وصلنا إلى الباب الأخضر.. الباب الأسود.. الباب المهبب.. وعدت وأنا أشعر بأنى أهنت.. بأه بت مفعوسة زى دى تغلبك الغلب ده كله.. عيب عليك يا حسنى، يا صياد الغزال.

واليوم الرابع.

والخامس.

أسبوعين.. ثلاثة.. وقد أصبحت المسألة خطيرة.. البت جننتنى بجد.. ما بنامش واللى خلقك.

■ صائد الغزال .. ■

ثم كان يوم.
ومرت نفيسة.. تأخرت يومها قليلا.. ومشيت وراءها وأنا
أشعر بأنى قد فقدت الثقة فى نفسى.. صوتى ضعيف منهك..
وعينائى الوقيتان ماتت فيهما الوقاحة.. وأمشى كأنى منساق
وراء قدرى.. إتأخرت ليه النهاراة يا جميل.. يا جميل يا أبو قلب
قاسى.. ارحم يا سيد الراحمين.. ولا يعنى أموت.
وفجأة..

فردت نفيسة ملاءتها بذراعها اليمنى وعادت وضمتها.
جاءت الإشارة.
حصلنى.
أحصلك لآخر الدنيا يا دنيا.. يا ترى آخرة الصبر ده كله
إيه.

ورفعت نفيسة يدها ولمست عروسة البرقع.
إشارة أخرى معناها : «أنت فى عنية».
تسلم عنيكى يا ست الكل.. يا أحلى من الفل.. دوخنى
يا بتاع الدوخة أنت.. قوللى على فين وأنا وراك.
وعادت تفرد ملاءتها بذراعها اليمنى.
حصلنى.
ما تخفش يا حته من جوة.. محصلك.

ولم تتجه نفيسة إلى الباب الأخضر.. دخلت من الموسيقى
إلى النحاسين.. ثم انحرفت إلى بيت القاضى.. وبين كل خطوة
وأخرى تعطينى إشارة.. حصلنى.. يا خويا محصلك.. بس على
فين.. وخيالى يسبقنى.. ربما أخذتنى إلى بيت صديقة من
صديقاتها.. ربما كانت تعرف امرأة عجوزا تستطيع أن تأوينا
ساعة شهد.. ساعة حظ.. آه يا نفيسة.. ده أنا حالك أكل.

■ صائد الغزال .. ■

تخرج من حارة وتدخل حارة.. وعيناي مركزتان على
ظهرها.. وكعبي قدميها.. وكل ثنية من جسدها.. والنار تشتعل
فى عروقي.. عقلى فى النار.. قلبى فى النار.. نار وقايدة
يا جميل.. خلصنا بأه.
وفجأة.

وأمام دكان بقال.

استدارت نفيسة إلى، وألقت بملاءتها من فوق رأسها ثم
قدفت بفردة الشبشب من قدمها، والتقطتها بيدها من الهواء..
ثم هجمت على.. وهى تصرخ.. يا أفندى يا عرة.. يا إبرة
مصدية، يا ماسح، يا ماسخ.. يا.. وانهاالت على ضربا
بالشبشب.. وخرج البقال من دكانه.. وانشقت الأرض وانطلق
منها عشرات.. كبار وصغار.. كلهم يضربوننى.. وصوت
نفيسة، أعلى من صوتهم.. وشبشبها يحكم التصويب على
راسى خيرا من صفعاتهم ولكماتهم.. ولم أصرخ.. عيب
يا حسنى.. لا تصرخ.. ولا توسلت.. عيب.. أنت من الدراسة
يا حسنى.. ماتشمتش فيك العيال.. وقفت ألقى شبشب نفيسة
ولكمات أهل حنتها، وعيناي مركزتان على وجهها.. إنها
جميلة.. حتى وهى تردح.. جميلة بنت الإيه.. جميلة ولو أنها
راجل.. وصدمت نفيسة بهدوئى.. وقوة احتمالى.. والتقت
عينها بنظرتى الثابتة التى تأكل وجهها.. وأحسست أنها بدأت
تلهث.. وتقاوم شيئا فى داخلها.. أحسست أنها تعود أننى..
بنتا.. ثم سمعت صوتها وهى تفتعل الحزم والمجدعة.. وتشخط
فى أهل حنتها:

— بس يا دوكشة.. بس يا واد أنت وهوة.. كفاية يا حمادة..
وكف الضرب عنى.

■ صائِد الغزال .. ■

ونظرت إلى وهى تلهث كأنها تبذل مجهودا عنيفا لتحفظ
بقوة شخصيتها قبل أن تذوب أمامى :

- أنت عايز إيه منى يا جدع أنت.. بقالك شهر دايـر ورايا..
عايز إيه.. ما تتكلم.

وقلت فى هدوء.. وأنا أبتسم لها ابتسامة ساخرة، أسخر
بها من «مجدعتها».. خليك صياد يا حسنـى أوع تنخ.. وقلت
كلمة واحدة :

- عايزك.

تعجبنى يا واد يا جامد.

وقالت نفيسة فى غيظ :

- شوفوا الرجل وبجاحته عايزنى يا عنى ايه يا جدع أنت.
قلت :

- عايزك وخلـاص.

قالت :

- اللى عايزنى يتجوزنى على سنة الله ورسوله.

قلت :

- وماله.. نتجوز.

ونظرت إلى كأنها لا تصدقنى، وقالت :

- تلاقيك بتتجوز كل يوم واحدة.

قلت :

- أبدا وحياة شبشبك.. ده بس علشان خاطرك يا جميل.

وقالت فى حدة :

- طيب اتفضل اتجوزنى.. آدى أبويا، وآدى أخويا.

وشدت البقال من بين الزحام.. أبوها.. وأشارت إلى
حمادة.. أخوها.

■ صائد الغزال .. ■

وقلت :
- وفين أمك ؟
ورفعت حاجبها الأيسر، وقالت كأنها تسخر مني..
- تعيش أنت.
قلت :
- عرفت تخلف.. الله يرحمها.
ثم التفت إلى أبيها وإلى أخيها، وقلت :
- تحبوا نكتب دلوقتي.. ولا نجيب أمي الأول..
وقالت وهي ترفع حاجبها الآخر وتلم ملاءتها حول
جسدها :
- لا.. روح هات أمك.. يا روح أمك.
قلت :
- ييجي معايا حمادة.. رهن.. أحسن أرجع ما لقكيش..
وقالت وهي تبدو مسيطرة على الحارة كلها :
- روح معاه يا حمادة.. ليتجوز في السكة..
قلت كأنى أصبحت زوجها فعلا :
- أعملي لي كباية شاي على بال ما نرجع.. أنا أحب الشاي
تقيل..
وهمت أن أنصرف، فصاحت بي :
- تعالى هنا يا أفندي.. ما ترجعش لأمك بالشكل ده..
وجذبتني إلى دكان أبيها البقال، وأمسكت بفوطة بللتها
بالماء، وأخذت تمسح وجهي من أثر الكدمات، وهمت :
- واسم حضرتك إيه بأه ؟
قلت :
- حسنى.. حسنى عبدالعاطى..

■ مائد الغزال .. ■

قالت :

- ويا ترى بتشتغل شغلة ثانية.. ولا بس معكساتي..

وضحكت قائلا :

- موظف فى وزارة الأشغال.. ماهيتى ثمانية جنيه

وكسور..

وعدت أملا عينى من وجهها.. جميلة بنت الإيه.. وأنا

صياد.. صياد الغزال.. لا تستطيع غزالة أن تفر منى.

وتزوجت نفيسة.

ومن يوم أن تزوجتها إلى اليوم وأنا أخاف من شبشبها..

وقد أقلعت عن صيد الغزال.. غزالتى تساوى كل ما فى شارع

الموسكى من غزال.. وتفرغت لمستقبلى.. درست من جديد،

ونلت البكالوريا ودرست الحقوق وأنا موظف فى الأشغال،

ونلت الليسانس.. وأنا الآن محامى.. ونسكن فى العباسية..

وعندنا تليفون وتليفزيون.. وسيارة نصر.. ومحمود.. نفيسة

هى أم محمود.

وأنا لا أخاف على محمود لأنه دون جوان.

سيجد حتما الفتاة التى تضربه بالشبشب.

التصية الأخيرة ..

كانت هوايتى منذ كنت طالبا فى المدرسة الثانوية، هى الخطابة، وكتابة البحوث الاجتماعية.. والذى يهوى الخطابة نادرا ما يهوى كتابة البحوث.. فالخطابة مواجهة الجماهير، وكتابة البحث تتطلب العزلة عن الجماهير.. والخطابة هى أن تضع عقلك على طرف لسانك، والبحث يتطلب أن تضع عقلك على طرف قلمك.. الخطابة تعتمد غالبا على إثارة العواطف.. على إقناع العاطفة.. وكتابة البحث تعتمد دائما على إقناع العقل.

هوايتان متناقرتان، وبرغم ذلك فقد جمعت بينهما.. وكنت وأنا طالب فى المدرسة لا تفوتنى مناسبة سواء كانت وطنية أو اجتماعية إلا وأقف فيها خطيبا بين زملائى.. وفى لحظات أملك عواطفهم، وأهزها هذا عنيفا.. أبكيهم على زميل توفى.. أو أحسهم للخروج فى مظاهرة.. أو ألهب أكفهم بالتصفيق

■ القضية الأخيرة .. ■

لفريق كرة القدم عندما نقيم له حفلة تكريم فى مناسبة فوزه.. وفى الوقت نفسه كان لى فى كل أسبوع بحث مكتوب عن إصلاح نظم المدرسة.. أو عن التنشيط الاجتماعى.. أو.. أو.. بحوث أقدمها لناظر المدرسة أو للأساتذة المشرفين، فتلقى اهتمامهم وإعجابهم.

وقادتني هوايتي إلى كلية الحقوق.

ولم أكن أحلم بأن أكون وزيرا، أو زعيما، كما كان يحلم بقية طلبة الحقوق فى عهد ما قبل الثورة.. أبدا.. كل ما كنت أحلم به هو أن أكون محاميا.. محاميا كبيرا.. أخطب.. وأكتب البحوث القانونية والاجتماعية والسياسية.

وتفوقت فى كلية الحقوق.. وتفوقت فى هوايتي.. وأصبحت جميع الهيئات السياسية والاجتماعية داخل الكلية، وخارجها، تدعوني إلى الخطابة فى اجتماعاتها، وإلى إعداد البحوث عن نشاطها.. ولم أكن منتميا إلى واحدة من هذه الجمعيات، ولا إلى حزب من الأحزاب.. أبدا.. كان كل ما أحرص عليه هو أن أقتنع بالموضوع الذى أخطب فيه، أو الذى أعد بحثى عنه.. سواء كان هذا الموضوع يهم الوفديين أو الشيوعيين أو الإخوان المسلمين.. أو.. أو.. المهم هو عدالة القضية التى أدافع عنها.. وقد كنت حريصا فعلا على ألا أتكلم إلا فى القضايا العادلة.. وبلغ منى الحرص إلى حد أن العدالة أصبحت تعرف بى.. فإذا أعلن أنى سأخطب فى اجتماع ما آمن الناس كلهم بأن القضية التى ستبحث فى هذا الاجتماع، عادلة.. وفشلت كل الوسائل التى تعرضت لها كى أشترك فى الدفاع عن

■ القضية الأخيرة .. ■

قضايا لا أومن بعدالتها.. فشل التهديد، والإغراء.. وفشل التشهير والنفاق.. وبقيت صلبا قويا، فخورا بصلابتي وقوتي، ومكانتي التي اكتسبتها بين طلبة وأساتذة الكلية.

وقبل أن أحصل على ليسانس الحقوق.. طبعت بطاقة تحمل اسمي.. «محمود عباس» ثم «المحامى».

كنت واثقا من حصولي على الليسانس.. وثلثه فعلا عام ١٩٤٣ بمجموع ٨٥ في المائة.. والتحق بمكتب الأستاذ عبدالنواب عبدالحى، محاميا تحت التمرين.. وذهل الأستاذ عبدالنواب.. ذهل من المذكرات القانونية التي أعدها، ومن الأسلوب الجديد الذى اتبعه فى المرافعة أمام المحكمة.. أسلوب هادئ.. رنان.. يتسلل إلى قلب القاضى، حتى إذا ملكت القلب أصبح من السهل على أن أكسب العقل.. وأكسب القضية.

ولكنى كنت مصرا على ألا أقبل الترافع فى أى قضية إلا إذا اقتنعت بعدالتها.. قضايا كثيرة من التى ترد على مكتب الأستاذ عبدالنواب، كنت أرفض المساهمة فيها، لا لشيء إلا لأنى غير مقتنع بعدالة موقف الموكل.. وكنت أصرح الأستاذ عبدالنواب، برأى هذا، فلم يكن يغضب، بل ازداد تقديره لى، واحترامه لشخصيتى، إلى حد أنه بعد عام واحد من اشتغالى فى مكتبه، قرر لى مرتبا عشرة جنيها فى الشهر.. برغم أن المحامين تحت التمرين على أيامنا لم يكن من حقهم العمل بمرتب. وبرغم ذلك.

برغم هوايتى.. وبرغم كل هذا النجاح الكبير.. وبرغم حلم العمر.. هجرت المحاماة قبل أن أتم فترة التمرين.. ذبحت

■ القضية الأخيرة .. ■

هوايتى.. دفنت نجاحى.. مزقت حلم العمر.. وضحيث
بالجنيهات العشرة.. كانت هذه الجنيهات العشرة تعنى شيئا
كبيرا بالنسبة لى.. فقد كان والدى يعطينى حتى ذلك الحين
ثمانية جنيهات فى الشهر إلى أن أستطيع أن أعول نفسى..
وكانت أمى قد ادخرت لى مائة جنيه لتدفعها مهرا لى عندما
أتزوج ابنة عمى.. إنى أحب ابنة عمى.. ومنذ قبضت العشرة
جنيهات وأنا أدخرها كلها حتى يحين اليوم الذى أنفقها فيه مع
ابنة عمى بعد أن نتزوج.. ولكنى ضحيث بالعشرة جنيهات
أيضا.

ماذا حدث.

حدث أن جاءنى فى بيتى الأسطى محمد أحمد محمود
المكوجى، الذى يقع دكانه تحت بيتنا مباشرة.. وأبلغنى أنه
قبض على ابن عمه عبدالمجيد علوان، متهما بسرقة مجموعة من
ولاعات السجائر.. من المحل التجارى الذى يعمل فيه.. وأقسم
لى أن علوان مظلوم، وأنه ضحية اضطهاد رئيسه الذى كان
يطلب منه أن يذهب إلى بيته لينظفه ولأن علوان كان يرفض،
فقد دبر له الرئيس هذه التهمة.

وقال الأسطى محمد أحمد محمود :

— علوان ابن عمى فقير.. ما حلتوش حاجة.. وبيجرى ورا
سبع عيال.. غير أمه.. ومظلوم والله.
ولا أدري لماذا تحمست فورا لهذه القضية.
ربما لأنها أول قضية تأتى إلى مباشرة، وباسمى، لا عن
طريق مكتب الأستاذ عبدالقواب.

■ القضية الأخيرة .. ■

وربما لأنى أردت أن أثبت لأهل الحى أنى أقف بجانبهم.
والأسطى محمد أحمد محمود من أكثر أهل الحى نفوذا.
وربما لأنى أصببت بنوبة من العطف المفاجىء على
عبدالمجيد علوان وأولاده السبعة.
ورفضت أن أناقش الأسطى محمد أحمد محمود فى
الأتعاب.

وذهبت إلى الأستاذ عبدالنواب المحامى واستأذنته فى أن
أتولى القضية بنفسى ولحسابى، فقد كان يجب أن أستأذنه
لأنى مازلت تحت التمرين.. وسمح لى الأستاذ عبدالنواب.. بل
قال لى :

- اعتبر نفسك صاحب هذا المكتب.. كل إمكانيات المكتب
تحت أمرك.
وشكرته.

وأسرعت إلى النيابة ونسخت محضر التحقيق بنفسى.
فإنى لم أرد أن أشغل كتبة المكتب فى نسخه، ما دام المكتب لن
يستفيد شيئاً فى هذه القضية.
وقرأت التحقيق بإمعان.

إن السرقة كبيرة.. مائة ولاعة ماركة رونسون.. ثمن
الولاعة الواحدة يصل إلى خمسة جنيهات.. أى أن قيمة
المسروقات تصل إلى خمسمائة جنيه.
والإتهام قوى.

لقد عثروا على ولاعتين من الولاعات المسروقة فى منزل
عبدالمجيد علوان.

■ القضية الأخيرة .. ■

وذهبت لزيارة المتهم فى السجن، وقلت له:
 - اسمع يا علوان.. قل لى الحقيقة علشان أقدر أخدمك.. كل الحقيقة.

وأقسم علوان أنه لم يسرق.. وأقسم أن رئيسه يضطهده وأنه هو الذى سرق الولاعات ودس اثنتين منها فى بيته حتى يثبت عليه التهمة.

وأفاض علوان فى التفاصيل.
 كلها تفاصيل معقولة.
 وعلوان رجل عجوز، تبدو الطيبة على وجهه.. والشقاء.. والفقر.. وإرهاق العمر الطويل.
 وتأثرت.
 تأثرت جدا.
 وانتهى علوان من كلامه، ثم قال :
 - أقول إيه كمان يا أستاذ.. دلنى!
 ولم تعجبنى هذه الكلمة.. لم أسترح لها.. ماذا يعنى.. ربما لم أفهمه تماما.. لا يهم.. وتبخر قلقى بسرعة وقلت لعلوان :
 - اطمئن.. براءة بإذن الله.
 وانهمكت فى القضية.
 كل وقتى.
 كل عقلى.

ولا أريد أن أروى التفاصيل.. ولكنى استطعت بعد جهاد عنيف أن أفرج عن علوان بكفالة خمسين جنيها.
 ولم يكن مع علوان هذه الخمسون جنيها.

■ القضية الأخيرة .. ■

وقريبه الأسطى محمد أحمد محمود، لم يستطع أن يدفع أكثر من خمسة جنيهاً، فذهبت إلى أمى وأقنعتها بأن تعطينى خمسين جنيهاً. من مهر ابنة عمى.. على أن أردّها لها بعد أن يحكم ببراءة المتهم.. إنى واثق من أنى سأحصل له على البراءة.. ورفضت أمى.. وألححت.. لأول مرة أختلف أنا وأمى.. وتماديت فى الإلحاح محاولاً إقناعها بأن الأمر متعلق بمستقبلى كحام.. وأخيراً خضعت أمى بلا اقتناع وأعطتنى الخمسين جنيهاً، دفعتها فى خزانة المحكمة ليفرج عن علوان. وأفرج عنه.

وقال لى علوان يومها وفى عينيه لمعة غريبة، خيل إلى برهة أنها لمعة خبث.

— كله يترد لك بإذن الله يا أستاذ.. الصبر طيب!! ورفض صاحب العمل أن يعيد علوان إلى عمله، فأعطيته خمسة جنيهاً قرضاً إلى أن يستطيع أن يجد عملاً آخر.. وأعطيته خمسة جنيهاً أخرى.. وخمسة جنيهاً ثالثة.. لقد ذهبت إلى بيته ورأيت ما فيه من فقر.. رأيت أولاده السبعة حفاة.. عراة.. تلمس القذارة وجوههم.. ولم أكن أستطيع أن أتركه دون أن أمد له يد العون.. إنه مظلوم.. إنى واثق أنه مظلوم.

وعاد علوان يردد :

— كله يترد لك يا أستاذ.. الصبر طيب.

ولم أفهم ما يعنيه.

وحماسى لا يفتر.

■ القضية الأخيرة .. ■

بل إنى كدت أتشاجر مع القاضى مرة لأنه أراد التأجيل.. إن حالة علوان لا تحتتمل التأجيل.. إنه لا يستطيع أن يعمل والإتهام معلق فوق عنقه.. وأولاده جياع.

وانتقل حماسى إلى زملائى الذين يعملون معى فى المكتب.. إنهم يدرسون القضية معى.. ويدلون بأرائهم.. والكتبة يساعدوننى.. صحيح أنى أعطيت واحدا منهم جنيهين.. والثانى جنيها، عندما كلفتهم بمهمات تتعلق بالقضية.. ولكنهم كانوا متحمسين.. بل إنى نقلت الحماس إلى المحكمة كلها.. أصبحت أعرف هناك باسم «محامى علوان»!

وبعد ستة أشهر.

حكمت المحكمة.

براءة.

لم يكن الأمر سهلا.. أبدا لم يكن سهلا أن أدحض أدلة الإتهام القوية، ولقد هنأنى الأستاذ عبدالنواب على هذا الحكم.. وزملائى.. واعتبرت أنا هذا الحكم هو الحجر الأساسى فى بناء مستقبلى.

وبعد أيام.

جاءنى علوان فى بيتى، وهو يحمل فى يده لقافة كبيرة، وقال لى بعد أن كرر شكره لى :

- أنا راجل حقانى يا أستاذ.. وأنت عملت كثير.. جميلك ما يتنسيش.. ودول ميت ولاعة.. يبقى لك منهم خمسين.
ثم فتح اللقافة التى فى يده.. ولعت أمام عيني الولاعات.
الولاعات المسروقة.

■ القضية الأخيرة .. ■

وصرخت :

- إيه دول يا علوان.

وقال علوان ضاحكا :

- دول اللواعات إياهم.. كنت مخبيهم عند مراتى الجديدة..
والحقيقة أنا كان نفسى أبيعهم بمعرفتى وأجيب لك تمنهم.. إنما
السوق واقف.. وأحسن الواحد يتقل.. قلت أجيب لك نصيبك
تتصرف فيه بنفسك.

ولم أرد.

بدأت أشعر بدوار.

وقال علوان :

- ودى فوق البيعة.. احنا لنا بركة إلا أنت يا أستاذ.
ووضع أمامى قطعة حشيش.
وصرخت :

- شيل الحاجات دى من قدامى.. شيلهم بأقولك.. شيلهم
أحسن أوديك فى داهية.

وارتفعت نظرة غبية مذهولة فى عيني علوان.. وقال :
- جرى إيه يا أستاذ.. ما هو ما تبقاش طماع.. كفاية كده
قوى.

أعدت أصرخ :

- أخرج بره.. أخرج بره.

وجمع علوان اللواعات، وأعاد قطعة الحشيش إلى جيبه،
واختفى من أمامى.
وسقطت فى هاوية الصمت.

■ القضية الأخيرة .. ■

لا أريد أن أتكلم.
لا أريد أن أرى أحدا.. ولا أُمى.. ولا خطيبتى.
وَألم ساحق يفرى صدرى.. ولم أكن أتألم لأنى وقفت
بجانب مجرم وبرأته.. بل لأن علوان كان طول هذه الشهور،
يعتقد أنى أعرف أنه سارق الولاعات، وأنى كنت أدافع عنه
لأطالبه بنصيبي فى المسروق.
وأفقت من نوبة الصمت.
وعدت إلى المكتب.
وحاولت أن أبدأ من جديد.. ولكنى لم أستطع.. لقد فقدت
ثقتى فى نفسى.. وثقتى فى الناس.. لم أعد أصدق أحدا..
ولا كلمة.. ولا حتى الأستاذ عبدالتواب نفسه.
وهجرت الحمامة.
إنى الآن موظف فى شركة.. موظف صغير.
وعيبى أنى لا أصدق أحدا.. وهو عيب أبعدنى عن الناس..
ولكنه يحمينى منهم.
إنى أخاف من الناس.
أخاف.
ولم أتزوج ابنة عمى.. لأنى أخاف.

الحب والعدالة ..

يا حضرة القاضى.

أرجوك.. دعنى أتكلم.. إننى لا أستطيع أن
أحتمل كل هذا الكلام الذى يقال هنا.. سواء
الكلام الذى يقوله الدافع أو كلام ممثل النيابة..

□ إنهم يتكلمون على أساس أنى ارتكبت جريمة.. وكان يجب أن
يسألوا أنفسهم أولاً.. هل هناك جريمة؟ أين هى الجريمة
يا سيادة القاضى.. إن الجريمة تعنى الاعتداء.. فأين هو
الاعتداء.. من هو الضحية فى هذه القضية.. من هو المعتدى
عليه.. من الذى أصابه أذى منى.. إن السيد ممثل النيابة يقول
إنى اعتديت على النظام العام وصدقنى ، يا سيادة القاضى ،
أنى لا أدرى ما هو هذا النظام العام.. ولم يسبق لى أن تشرفت
بمعرفته.. ولكن كل ما أعرفه أن أى اعتداء يجب أن يكون له
دافع وهدف.. فما هو الدافع الذى يمكن أن يقودنى إلى
الجريمة.. وما هو الهدف الذى يمكن أن أصل إليه من وراء هذه

■ الحب والعدالة .. ■

الجريمة.. السيد وكيل النيابة يقول إنى ارتكبت تزويرا فى أوراق رسمية.. ماذا استفدت من هذا التزوير إن كان حقيقة أنى زورت.. ما هى حاجتى إلى هذا التزوير.

لا يا حضرة القاضى.. أرجوك.. أتوسل إليك.. لا تمنعنى من الكلام.. إنى لا أستطيع أن أسكت.. ولا أستطيع أن أنتظر حتى يأتى دورى فى الكلام.. بل لا أطيق أن أسمع كل هذه النصوص القانونية تنطلق إلى أذنى كالصواريخ.. نح القانون جانبا.. دعك من القانون الآن يا سيادة القاضى.. واستمع إلى كإنسان.. إنك لم تجلس على منصة القضاء إلا لأنك إنسان كبير.. الإنسان فيك هو الأصل لا القاضى.. الإنسان فيك أكبر من القاضى.. وأنا أخاطب فيك الإنسان، وأترك مهمة مخاطبة القاضى للأستاذ المحامى الذى يترافع عنى.

شكرا يا سيادة القاضى على سعة صدرك.. إنى عاجز عن الشكر.

والآن..

لماذا أنا هنا فى ساحة عدالتكم.

إنى هنا لأنى أحببت هدى، زميلتى فى العمل.. لا أدرى متى أحببتها.. ربما منذ اليوم الأول الذى التحقت فيه بالعمل وعينت كاتبة على الآلة الكاتبة فى قسم الحسابات.. لقد رفعت عينى إليها وخيل إلى ساعته أنى لن أستطيع أبدا أن أرخى عينى عنها.. إنها جميلة يا سيادة القاضى.. رقيقة.. هادئة.. ولكنها ليست ضعيفة.. إنها شخصية ثابتة حلوة.. وابتمت لها.. ربما كانت أول ابتسامة أحس بها تملا قلبى.. وتعيش فيه.. إن نفس

■ الحب والعدالة .. ■

هذه الإبتسامة لا تزال فى قلبى حتى اليوم.. حتى هذه اللحظة..
 إنى أبتسم الآن يا سيادة القاضى أبتسم لها.. لهدى.
 وهى أيضا، ربما أحببتنى منذ اليوم الأول.. فقد بدأ كل منا
 يقترب من الآخر فى خطى سريعة طبيعية، لا افتعال فيها
 ولا تعمد.. قوى أكبر منا تشد أحدنا للآخر.. إلى أن تنبهننا
 فجأة إلى أنه الحب.

وبدأنا نقاوم.

نقاوم الحب.

لقد أشفق كل منا على الآخر من حبه.. خفت عليها من
 حبها.. وخافت على من حبى.. فقد كان كل منا يعلم مدى
 العذاب الذى ينتظر الآخر.. كل منا يرى الصخرة الهائلة التى
 يمكن أن يتحطم عليها حبنا فى آخر الطريق.

فأنا مسيحي.. مسيحي صريح.. اسمى لويس إسكندر
 منقريوس.

وهى، هدى عبدالفتاح.. مسلمة.

وأقسم لك يا سيادة القاضى أننا قاومنا كثيرا.. أكثر مما
 يحتمل أى إنسان يحب.. قاومنا إلى حد أن قررنا أن يبتعد
 أحدهما عن الآخر.. لم نعد نلتقى.. بل لم نعد نتبادل الكلام،
 ولا حتى تحية الصباح.. كانت تدخل إلى المكتب فلا تقول لى
 صباح الخير.. وأخرج فلا أقول لها سعيدة.. ووصل الأمر إلى
 حد أنى طلبت نقلى من قسم الحسابات.. وفى نفس اليوم
 طلبت هى أيضا نقلها.. وصدر قرار بنقلى أنا إلى قسم
 المشتريات.

■ الحب والعدالة .. ■

واستمرت هذه القطيعة ستة أشهر.. ستة أشهر يا سيادة
القاضى والحب فى قلبينا.. فى رأسينا.. فى أعيننا.. فى
أعصابنا.. وأنا أذبل.. وهى تذبل.. نكاد نموت يا سيادة
القاضى.

لا يا سيادة القاضى.. إنى لا أبالغ.. ولا أتكم كلاما عاطفيا
منمقا.. أبدا.. إن العاطفة هى واقع.. هى جسم الجريمة فى هذه
القضية إذا أرادت النياية أن تسميها جريمة.. ولم تكن نستطيع
أن نعيش بعيدا عن واقعنا.. أعنى بعيدا عن عواطفنا.. عن حبنا..
فقررنا أن نستسلم.. وعدنا.. عدنا إلى الحب.. إلى دنيانا.. إلى
الهواء الذى نستمد منه حياتنا.

لا تنس يا سيادة القاضى أننا قاومنا.. وأننا قاومنا إلى هذا
الحد.. لماذا قاومنا؟ لأننا كنا معترفين بالتقاليد التى تحكم
مجتمعنا.. لأننى لم نكن نريد أن نتحدى المجتمع.. ولا أن
نتحدى شريعة كل منا.. كنا نحترم الشرائع.. ونحترم
المجتمع.. ونحترم أهلى وأهلها.. وكان يمكن أن نرتاح لو أننا
استطعنا أن نستمر فى المقاومة.. ولكننا لم نستطع.. لأن حبنا
كان أقوى من أهلى وأهلها.. وأقوى من المجتمع.. وهو ليس
أقوى من الشريعة.. ولكن الشريعة.. كل الشرائع.. هى شرائع
الحب.. الله هو الحب.. وقد كان حبنا نظيفا نقياً بحيث نفخر
بأن ننسبه إلى الله.. الله.. الله الواحد.. إله المسلمين والمسيحيين..
مهما تعددت شرائعه.

ماذا نفعل بهذا الحب يا سيادة القاضى.
كان أماننا طريقان.

■ الحسب والعدالة .. ■

إما أن نبقيه سرا، خوفا من الناس ومن الأهل، إلى أن ينقلب إلى خطيئة، لا نرضاها لحبنا.

وإما أن نعلنه للناس.. ونسير به فى الطريق الذى رسم للحب منذ بدء الخليقة.. أن تكون لى وأكون لها.. أى أن نتزوج. ولكى نتزوج، يجب أن يبدل أحدنا دينه. إما أن أعلن إسلامى.

وأما أن تتنصر هدى.. تعلن اعتناقها للدين المسيحى. واسمح لى يا سيادة القاضى أن أتكلم بصراحة أكثر.. وأنا واثق أن سعة صدرك، وسمو تفكيرك ومشاعرك، يمكن أن تقسح لى مجال الصراحة.

لقد كنا نعتقد أن تغيير أحد منا لدينه، ما هو إلا مجرد إجراء شكلى مضطرين إليه، ولن يؤثر على معتقدات أحد منا.. سواء أسلمت أنا، أو تنصرت هى.. فسيبقى كل منا محتفظا بحقيقة مشاعره ومعتقداته.. المشاعر والمعتقدات التى تعيش فى قرارة صدره، والتى تنظم صلته بالله، ولا يملكها أحد إلا هو، ولا يحاسبه عليها أحد إلا الله.

كان هذا هو تفكيرنا فى مبدأ الأمر. ولكننا عندما تعمقنا أكثر اكتشفنا أن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه السهولة.

فتغيير أحدنا دينه سيسبب جرحا لأهله، ولقومه.. أمى وأمها.. أبى وأبوا.. وإخوتى وإخوتها.. أى فريق نعرضه للصدمة.. أى فريق نضحى به.. واحد منا يجب أن يضحى بأهله ولقومه.. التضحية بهم بمعنى جرح شعورهم وتعرضهم

■ الحسب والعدالة .. ■

للصدمة ، ثم هناك تضحية أخرى.. تضحية ذاتية.. فلا شك أن واحدا منا سيضحى بجزء من معتقداته.. أو على الأقل سيضحى بمظهر هذه المعتقدات.. بالأشياء الصغيرة التي تربينا عليها.. بالتقاليد والبدع التي أصبحت.. إلى حد ما جزءا من حياتنا.. ولا شك أن حبنا يحتمل هذه التضحية.. ولكن لا شك أيضا أن التضحية تؤثر في الشخصية.. واحد منا سيتنازل عن قطعة من شخصيته.. ستهتز شخصيته.. وقد يصاحبه أثر اهتزاز الشخصية طول حياته.

فمن منا يقدم على هذه التضحية.

أنا.

أو هي.

وصدقني أننا ناقشنا هذا الموضوع بصراحة، وبساطة، وحلاوة.. كان حبنا - ولا يزال - يحتمل مواجهة الواقع.. ليس فقط الواقع المادى.. بل الواقع النفسى.. واقع أحاسيسنا النفسية.. لم يحاول أحد منا أن يناقش الآخر.. أو، يتظاهر بالاندفاع فى سبيل حبه أكثر من الآخر.

وكنتم مستعدا أن أقبل التضحية.

وكانت هى أيضا مستعدة أن تقبل التضحية.

أنا مستعد أن أعلن إسلامى.

وهى مستعدة أن تعتنق المسيحية.

وضحكنا معا، وكل منا يحاول أن يعفى الآخر من التضحية ويحتملها عنه.

أتدري يا سيادة القاضى.. لقد سبق أن قرأنا قصة لإحسان

■ الحب والعدالة .. ■

عبدالقدوس، اسمها «الله محبة» تدور حول مشكلة كمشاكلتنا، وقد وصل البطل والبطله فى القصة إلى حل غريب.. أجريا «طس» بينهما.. أمسكا بقطعة نقود، واختار كل منهما وجها من وجهيهما.. ثم قذفا بها فى الهواء.. والوجه الذى تسقط عليه قطعة النقود يغير صاحبه دينه.

وربما كانت القصة مجرد خيال انطلق فى رأس الكاتب.. ولكننا فكرنا فى أن ننفذ هذا الخيال.. ثم أبته عقولنا.. لم نقتنع به.. إن دين كل منا لا يمكن أن نعلقه فى قطعة من ذات الخمسة القروش.. ولا يمكن أن نتركه لعجلة الحظ.. إنما يجب أن نصل إلى حل نقتنع به بعقولنا.. فإننا إذا اقتنعنا احتفظنا بسلامة شخصياتنا.. الإقناع وحده هو الذى يحفظ قوة الشخصية.

وعدنا نفكر.

فكرنا كثيرا يا سيادة القاضى.. كثيرا جدا.
وانتهينا إلى الحل الذى تسميه النيابة جريمة.
لقد تزوجنا مرتين.

مرة كمسلمين.

ومرة كمسيحيين.

ذهبت وأعلنت إسلامى.. ثم تزوجتها أمام المأذون.
ثم.. بعد ذلك.. ذهبت هدى واعتنقت المسيحية، وتزوجتني مرة ثانية فى الكنيسة.

فأين الجريمة هنا يا سيادة القاضى.
هل جريمة أن يحب أحدهنا الآخر إلى هذا الحد.

■ الحب والعدالة .. ■

لنفرض أن اثنين من دين واحد، خطر لهما أن يتزوجا مرتين تأكيداً لحبهما.. لنفرض أن رجلاً تزوج امرأة.. وبعد خمس سنوات أو عشر خطر لهما أن يتزوجا مرة ثانية تأكيداً لحبهما.. مجرد خاطر حلّو من الخواطر التي ترد في عقول المحبين.. إن أم كلثوم تقول في أغنيتها «لو كنت أقدر أحب تانى أحبك أنت»، وهو تعبير صادق عن خواطر تطلقها فعلاً عقول المحبين.. إن الزوج كثيراً ما يقول لزوجته التي يحبها : «لو كنت أقدر أتجوز تانى أتجوزك إنتى برضه».. فهل لو تزوجا مرة ثانية.. لمجرد حبهما بطريقة خطرت لهما، يعتبر هذا جريمة.

لا..

لا يمكن.

لا يمكن أن يكون الارتفاع بالحب إلى هذا المستوى يعتبر جريمة.

وهذا ما فعلناه يا حضرة القاضى.

تزوجنا مرتين تأكيداً لحبنا.

مرة بعد أن غيرت دينى من أجل هدى.

مرة بعد أن غيرت هدى دينها من أجلى.

صحيح أننا أخفيها ما فعلناه عن كل من حولنا.. أخفيها خطتنا عن المأذون والقسيس.. وتركنا البعض يعتقد أنى أسلمت وتزوجت زواجا إسلامياً.. والبعض الآخر يعتقد أن هدى تنصرت وتزوجت زواجا مسيحياً.. ولكننا لم نخف شيئاً لأننا اعتبرناه جريمة.. ولكننا أخفيناه لأنه كان إجراء يخلصنا

■ الحب والعدالة .. ■

وحدنا.. هدى وأنا.. إجراء يسمو بحبنا، ويحفظ لكل منا شخصيته.

ولكن النياية تقول إننا زورنا فى أوراق رسمية.. إننا لم نزور فى أوراق رسمية يا سيادة القاضى، ولكننا أكدنا حبنا فى أوراق رسمية.. التزوير يجب أن يهدف إلى فائدة غير مشروعة يجنيها المزور.. فهل الزواج غير مشروع.. إنه مشروع.. إنه مشروع فى الأوراق الرسمية المسيحية.. ومشروع فى الأوراق الرسمية الإسلامية.. فكيف تنطبق هنا جريمة التزوير.

وبعد ذلك.. فإننى واثق يا سيادة القاضى أنك لا يمكن أن تحاسبنا على حقيقة عواطفنا ومعتقداتنا الدينية، فهذا شىء بيننا وبين الله.. وسواء اعتبرتنا أنا وهدى مسلمين، أو اعتبرتنا مسيحيين.. فنحن نحب الله.. ونؤمن به.. ونؤمن بأن الله يحبنا، وإلا لما وهبنا كل هذا الحب الذى حدثت عنه.

والأمر لك يا سيادة القاضى.

وحكمك لن يكون علينا.. ولكنه على الحب.

وأنا وهدى مطمئنان إلى أن الحب هو العدل.. وأنت عادل.

وسام للمتهم

ياسيادة القاصي.

ثق أنى حائر.. والمحامى غالبا لا يحتار فى موقفه.. فهو دائما يقف بجانب المتهم الذى قبل أن يدافع عنه.. وأنا الآن واقف بجانب أربعة من المتهمين الشبان، ومعترفين بجريمتهم.. ولكن حيرتى هى أنى برغم اعترافهم لا أستطيع أن أعتبرهم مجرمين.. حتى أدافع عنهم.. إننى فى الواقع معجب بهم.. معجب بموقفهم، حتى لو كان هذا الموقف خلف قضبان القفص الحديدى.. وواجبى الذى أحس به ليس هو واجب الدفاع عنهم، ولكنه واجب المطالبة لكل منهم بوسام يعلقه على صدره.. فهل من حق أن أطالب المجرم معترف بوسام.

النيابة طبعاً، ستقول، لا.. وقد عصرت القانون عصرا حتى تستطيع أن تستخرج منه ما يكفى للحكم على الأربعة المتهمين.

ولكنى واثق أن المحكمة لا يمكن أن توافق النيابة على

■ وسام للمتهم ■

منطقها.. بل إنى واثق أن السيد وكيل النيابة لو انتقل الآن إلى مقعد القضاء لتغير منطق.. ولاحتار مثلى.. وبرغم أنى أسمو بعدالة المحكمة عن مستوى الحيرة.. إلا أن الحيرة هنا وفى هذه القضية بالذات.. هى حيرة إنسانية.. والإنسانية تعلو فوق القانون.. الإنسانية هى العدالة، وليس القانون.
يا سيادة القاضى.

البراءة ليست هى موضوع دفاعى.. أنا لا أطلب البراءة.. فأنى لست فى حاجة إلى طلبها.. إنها ثابتة قانونا.. ولكنى أطلب أربعة أوسمة لأربعة متهمين.. إنى أطمع فى أن أضع تقليدا قضائيا جديدا بأن تسجل المحكمة فى حيثيات الحكم، أنه برغم وقوع الجريمة، وبرغم، اعتراف المتهمين، فإن المحكمة تثبت إعجابها بهم، وتقديرها لموقفهم، وتوصى الهيئات المختصة بمنح كل منهم وساما.
لا تبتسم يا سيادة القاضى.
أرجوك لا تبتسم.

إنى لا أبالغ.. ولا أفتعل مدخلا جديدا لدفاعى.. إنى أتكمم بإحساسى كمواطن عادى، يرى فى الجيل الجديد الذى يمثلته هؤلاء الشبان، روحا جديدة، تثير الإعجاب.. جيل له أخطاؤه، ولكنه جيل بطل.. وله نقط ضعفه، ولكنه جيل قوى.. أقوى من ضعفه.

واسمح لى سيادتكم بأن أعرض موضوع القضية بسرعة.. وأقول «موضوع».. ولا أقول «جريمة».
من هم المتهمون ؟

إنهم محمد، وأحمد، وعلى، وحسين.. أربعة من طلبة كلية الهندسة.. أكبرهم فى الثانية والعشرين، وأصغرهم فى

■ وسام للمتهم ■

التاسعة عشرة.. محمد هو أول دفعته فى كلية الهندسة.. وحسين حصل على تسعين فى المائة من مجموع الدرجات فى شهادة الثانوية العامة، ومنح مجانية التفوق.. وأحمد وعلى من الطلبة الممتازين.. الأربعة ياسيادة القاضى، حاجة تفرح.. ليس فى ماضى واحد منهم مايشينه.. والأربعة تلتف حولهم قلوب زملائهم، إلى حد أن قامت ضجة فى كلية الهندسة يوم بدأ التحقيق معهم.

وكان الأربعة مجتمعين فى بيت محمد للمذاكرة.. عندما دخل عليهم عمه.. عم محمد.. وطلب أن يتطوع واحد منهم، يأخذ سيارته.. سيارة العم.. ويذهب بها إلى بيته فى مصر الجديدة ليعود بالسيدة حرمه.

وقرر الأربعة أن يذهبوا سويا.
فسحة..

وفى شارع رشيد بمصر الجديدة.. والدنيا ظلام.. والشارع هادئ، خال من المارة.. انحرفت السيارة التى يركبها الأربعة، وصعدت فوق الرصيف وصدمت الإنسان الوحيد الذى يمر فى الشارع فى هذا الوقت.. وقتلته.
قضاء وقدر.

وكان المتهمون يستطيعون الهرب بالسيارة.
لا أحد رأى الحادث.

لا شهود عليهم.. حتى عسكري الدورية لم يكن فى مكانه ليشهد عليهم.

لو أنهم هربوا لما كانوا اليوم واقفين أمام عدالتكم.. ولما استطاعت قوة فى الأرض أن تكتشفهم.
لكنهم لم يهربوا.

■ وسام للمتهم ■

أرجو أن تقدر هذا ياسيادة القاضى.. إنهم لم يهربوا..
ضمائرهم الحساسة النظيفة القوية، لم تسمح لهم بالهرب..
وبالعكس.

حملوا جثة القتل داخل السيارة، وذهبوا إلى قسم
البوليس.. وسلموا الجثة.. وسلموا أنفسهم.
واعترفوا..

وهنا أيضا لم يكونوا فى حاجة إلى الاعتراف أو على الأقل
لم يكونوا فى حاجة إلى أن ينسبوا الخطأ إلى أنفسهم.. كانوا
يستطيعون أن يقولوا مثلا إن الرجل القى بنفسه تحت عجلات
السيارة.. كانوا يستطيعون أن يقولوا إن الرجل كان يسير فى
منتصف الطريق.. وإنهم استعملوا آلة التنبيه.. وإنهم استعملوا
الفرامل..و..و..إلى آخر المبررات التى كان يمكن أن تعفيهم من
تهمة القتل الخطأ.
ولكن، لا.

اعترفوا بكل التفاصيل.. اعترفوا بأن الرجل كان يسير على
الرصيف وأن السيارة صعدت إليه وقتلته.
ولم يرجعوا عن اعترافهم عندما تولت النيابة التحقيق.. إنها
رجولة ياسيادة القاضى.

رجولة مبكرة، قوية، تعبر عن المعانى الجديدة التى يدين بها
الجيل الحديد.

وإنى اعترف لك الآن ياسيادة القاضى بأنى حاولت أن
أقنعهم بالعدول عن هذا الاعتراف، بدافع الحرص على
مستقبلهم.. حاولت كثيرا.. بلا فائدة.. إنه إصرار عجيب..
إصرار على الصدق.. لا يريدون أن يكذبوا حتى لو كان فى
الكذب سلامة.

■ وسام للمتهم ■

ولكن..

من كان يقود السيارة لحظة وقوع الحادث ؟.

هنا حدثت المفاجأة.

لا أحد يدري حتى الآن من كان يقود السيارة.. هل هو محمد.. أو أحمد.. أو على.. أو حسين ؟!

لقد سئلوا طبعاً، عمن كان يقود السيارة.. فأجاب كل منهم :
- ما عرفش.

كلمة واحدة لم تتغير طوال التحقيق.. ما عرفش !
ولابد أن ضابط البوليس الذى بدأ التحقيق قد جن عندما واجهوه بهذا الجواب الحاسم.. ما عرفش.. ولابد أن السيد وكيل النيابة قد بذل كل جهده حتى يأخذ منهم كلمة أخرى غير كلمة «ما عرفش».. وينتزع السر الكبير من صدورهم.
وقد اتبعت معهم كل طرق التحقيق.

سئلوا مجتمعين فى مواجهة بعضهم البعض.. وسئلوا أفراداً.
ولا أريد أن أقول إن المحقق قد استعمل معهم طرق التهديد الأدبى.. بل استعمل معهم نوعاً من أنواع التعذيب الجسدى، عندما حبس كلاً منهم حبساً انفرادياً.. وصمم على حبسهم برغم أن القانون لا يبيح له حق الحبس فى هذه الحالة.. ولكن لا أريد أن أثير هذه النقطة فى دفاعى.. لسبب واحد.. وهو أن المتهمين لا يريدون إثارتها.

وفى مرحلة من مراحل التحقيق، خيل للمحقق أنه وجد الطريق لمعرفة السائق.. فطلب من الفنيين أن يلتقطوا البصامات من فوق عجلة القيادة.

أتدري ماذا وجد خبير البصمات يسيادة القاضى.
وجد أن المتهمين قد حرصوا قبل أن يسلموا أنفسهم على أن

■ وسام للمتهم ■

يمسحوا البصمات من فوق عجلة القيادة.. ومن فوق الباب
المجاور لمكان السائق.. كما هو ثابت فى تقريره المقدم منه .
إذا فموقف المتهمين موقف متعمد.

وهذا الصحيح.

إنى أتصورهم وقد اتفقوا بعد وقوع الحادث، على اتخاذ
هذا الموقف، ورفعوا كلمة «ما أعرفش» كشعار لهم.. ثم اتجه
بهم ذكاؤهم وهم قطعاً أذكىاء بدليل تفوقهم فى دراستهم.. إلى
مسح البصمات من فوق عجلة القيادة.

وقد لجأ المحقق إلى طريقة أخرى.

لجأ إلى آباء المتهمين، وأخذ أقوالهم على أمل أن يعترف أحد
منهم على ابن الآخر.
لا.

لم يعترف أحد من الآباء على ابن الآخر.

لا لأن كل أب سما بنفسه عن الوشاية بصديق لابنه.

ولكن لأن أحداً من الآباء لا يعرف حتى اليوم من كان يقود
السيارة.. لقد أخفوا السر حتى عن آبائهم.. بل إنى أعرف أنهم
أخفوه حتى عن أمهاتهم.

وأنا.

أنا المحامى الذى يتولى الدفاع عنهم، لا أدرى اليوم من كان
منهم يقود السيارة.. وقد حاولت أن أعرف.. هذا الموقف
العجيب وهذا الإصرار، أثارا فضولى إلى حد كبير.. فحاولت أن
أعرف.. حاولت كثيراً.. ولم يكن معقولاً أن يخفوا عنى السر
لأنهم يثقون فى.. فأنا محاميهم.. وبرغم ذلك رفضوا أن يفشوا
لى سرهم العجيب.. وقال لى محمد وأنا أناقشه :

— لقد اتفقنا على أن ننسى من كان منا يقود السيارة.. وقد

■ وسام للمتهم ■

نسبنا فعلا.. بذلنا مجهودا نفسيا كبيرا حتى ننسى.. وثق أننى لا أقاوم الآن الإفشاء بالسر، لأنى نسيتته.
يا سيادة القاضى.

لماذا اتخذ المتهمون هذا القرار؟

لأنهم يؤمنون بمبدأ : الكل فى سبيل الواحد، والواحد فى سبيل الكل.. لأنهم مصررون على ألا يتخلوا عن واحد منهم.. وأن يتحملوا المسئولية معا.
إنهم لا يحاولون التهرب من المسئولية.
لا..

لو أرادوا التهرب من المسئولية، لتركوا القتل فى الشارع وهربوا.. ولما اعترفوا.. ولكنهم لم يفكروا أبدا فى التهرب من المسئولية.. كل ما أرادوه هو أن يحملوا المسئولية معا.. أن يكون الكل فى سبيل الواحد. أن يضحي ثلاثة منهم فى سبيل واحد.. وكل ذلك بدافع من الرجولة القوية.. وصلابة الخلق.. والشهامة.. والتضامن أمام الخطر.

ولكنهم بموقفهم هذا - دون أن يتعمدوا - خلقوا مشكلة قانونية.. فنحن أمام أربعة معترفين بجريمة لا يمكن أن يرتكبها إلا واحد.. وفى الوقت نفسه لا نعرف من هو هذا الواحد، حتى نحكم عليه.

وقد تخبطت النيابة فى مطالبها.

لقد حاولت أن توحى إلى المحكمة بأن محمد هو الذى كان يقود السيارة، لأنه ابن أخى صاحب السيارة.. وهذا كلام لا يمكن أن يكون جديا.. فليس هناك ما يمكن أن يسمى «متهما بالقرابة».. ولا تكفى أبدا قرابة محمد لصاحب السيارة حتى نعتبره الفاعل الأسمى.. مستحيل.. هذا منطق لا يقره القانون

■ وسام للمتهم ■

أو العدالة.. أن أى واحد من الأربعة يمكن أن يكون هو قائد السيارة لحظة وقوع الحادث، خصوصا إذا عرفنا أن الأربعة يجيدون القيادة وكل منهم يحمل رخصة قيادة.

ثم حاولت النيابة أن تكيف التهمة تكييفاً آخر.. حاولت أن تعتبر الأربعة فاعلين أصليين.. أى أن الأربعة كانوا يقودون السيارة فى وقت واحد.. وهذا أيضا مستحيل.. هذا إسراف فى الخيال.. ولا أريد أن أقول إنه تعنت فى توجيه الإتهام.. فلا يمكن أصلا وعملا أن يتولى أربعة قيادة سيارة واحدة فى وقت واحد. ولا أريد أن أرد على الكلام الكثير الذى قاله ممثل النيابة، عن جنون الشباب واستهتارهم.. ومحاولته الربط بين هذا الحادث، وحادث الأتوبيس الذى راح ضحيته عدد من القتلى نتيجة إهمال السائق.. هذا كلام، أعتبره كلاما فى غير موضعه.. ولا يستحق أن يرد عليه.

ولكن هذا لا ينفى أن هناك حادثا قد وقع راح ضحيته قتيل. وأن هناك أربعة معترفين بارتكاب الحادث، الذى لا يمكن أن يرتكبه إلا واحد منهم فقط.. وبما أننا لا نعرف وكلنا عجزنا عن معرفة سائق السيارة لحظة وقوع الحادث. فإننى واثق أنكم ستحكمون بالبراءة. ولكن البراءة لا تكفى.

هذا التضامن الرائع بين الشبان الأربعة.. هذه الشهامة.. هذه الصلابة.. هذا الخلق النظيف القوى.. هذه الروح الجديدة التى تنطلق من الجيل الجديد.. ليس بينهم جبان.. ليس بينهم من يتخلى عن زميله.. ليس بينهم من يريد أن يهرب بجلده. كل هذا..

يستحق وساما.

غلطة حبيبى

ليس الذنب ذنبى ..

مؤكد أن ليس لى ذنب فى كل ما حدث ..
لا يستطيع أحد أن يلومنى .. ولا مصطفى .

لقد أحببت مصطفى وأنا أعرف كل ما يمكن
أن احتمله فى سبيل هذا الحب .. أحببته وأنا
مصممة على أن احتمل .. أن أضحى .. أن أجعل من حبه عالمى
الذى أعيش فيه .. لا أريد شيئا من العالم الآخر .. لا أريد شيئا
إلا أن أنام وأصحو وحبه فى صدرى .. هادئا .. مستقرا ..
لذيذا .

وكنت أعلم أن أكثر ما يجب على أن احتمله هو عمل
مصطفى .

صحيح أنى لم أكن أتصور أن يكون مشغولا بعمله إلى هذا
الحد .. ولكنى استطعت بسرعة أن أعود نفسى على انشغاله
عنى بعمله .. أن أبقى فى انتظاره أياما .. ثلاثة أيام .. أربعة ..
أسبوعا .. ثلثتى ساعة أو ساعتين وأحادثه فى التليفون

■ غلطة حبيبي ■

دقيقتين ، وقد يحدثنى خلالهما وهو يقرأ أو وهو يكتب . فلا أتبرم .. ولا أضيق .. أبدا .. أبدا .. لقد كنت سعيدة .. سعيدة حقا .. سعيدة بحبى له . وسعيدة بإحساسى أنى احتمل فى سبيل شىء كبير .. فى سبيل أن أمنح حبيبي النجاح .. وكان ينجح .. كان يخطو خطوات سريعة عملاقة .. كأنه عفريت من الجن يفرض إرادته على المستقبل .

كنت أحس أنى أصنع هذا النجاح .
أحس إنى أمنح حبيبي القوة ليخطو خطواته العملاقة ..
وكانت هذه هى سعادتى ..
سعادتى العميقة .. الحلوة .. السعادة التى أستمدتها من نجاحه وتفوقه .

ولكن مصطفى لم يكن يصدق .
لم يكن يصدق أنى أستطيع أن احتمله كل هذا الاحتمال ، ثم أكون سعيدة .
وبدأت ألحظ شكوكه كلما التقينا أو كلما تحدثنا فى التليفون .

كان يسألنى فى التليفون :
- بتعملى إيه ؟
فأرد فى بساطة :
- باشتغل كائفاه .
والحظ الشك والتهكم فى صوته وهو يقول لى :
- برضه .. دى انتى بقالك جمعة ، كل ما أسألك تقوليلى إنك بتشتغلى كفافاه .
وأتجاهل شكه وتهكمه وأرد قائلة ، وأنا أضحك :

■ غلطة حبيبي ■

- تصور أنى خلصت نص المفرش فى خمسة أيام .. مش
أنا بطلة والنبي .
ويضحك مصطفى فى تهكم ، يقول :
- فعلا بطلة ..
وفى مناسبة أخرى يسألنى :
- رحتى فين اليومين دول ؟
وأرد :
- أبدا .. قعدت فى البيت ..
وتطل من عينيه نظرة تضطرب بشكه ويقول فى حدة :
- يعنى قعدتى فى البيت أربعة أيام ماخرجتيش ؟
وأرد وأنا أرفع إليه عينى كأنى أتوسل إليه أن يصدقنى .
- وفيها إيه يا مصطفى .. أنت عارف أنى بأحب البيت .
ويهز مصطفى رأسه ويزفر أنفاسه ، كأنه لا يصدقنى .
ثم ..
يتصل بى فى التليفون ، فيجد تليفونى مشغولا ، فيعود
يتصل بى ويصرخ فى وجهى :
- كنتى بتكلمى مين ؟
وأقول :
- كنت باكلم أختى ..
ويرد من تحت أسنانه :
- لا يا شيخة !!
وأرد وقلبى يرتجف :
- آمال حاكون باكلم مين يعنى !!
ويقول فى تهكم :

■ غلطة حبيبي ■

- مافيش .. مش ممكن فعلا أنك تكلمى حد إلا أختك !!
وشكوك مصطفى تزداد يوما بعد يوم .. عيناه تزدادان
اضطرابا .. وكلماته تقطر بغل مكتوم .. إلى أن قال لى مرة :
- أنا ساعات باكره شغلى علشان خاطرك .. وساعات
باكرهك علشان خاطر شغلى .

قلت له يومها :

- أنا ما اسمحش لك تكره شغلك ، ولا تكرهنى .. لازم
تحبنا احنا الاثنين .. واحنا الاثنين ممكن نستحمل بعض .. أنا
استحمل شغلك ، وشغلك يستحملنى .

وكنت أحاول أن أريحه من شكوكه .. أن أمسح النظرات
المضطربة عن عينيه .. أن أجعل أنفاسه تنتظم فى صدره .

ولكن كيف .. كيف يا ربى .. كيف أريح حبيبي من شكوكه.
إلى أن صرخ فى وجهى مرة :

- أنا مش ممكن أقدر أصدق أن بنت عندها اثنين وعشرين
سنة تفضل قاعدة فى البيت ، ولا تعملش حاجة إلا أنها تشتغل
كتافاه .. الكلام ده كان أيام ستى .. مافيش بنت اليومين دول
بتعمل كده أبدا .. وبصراحة أنا مش مصدقك .. أنا مش مطمئن.
وقالت والدموع تملأ عينى :

- وتصدقنى إزاي يا مصطفى .. أطمئك إزاي .. قول لى
أعمل إيه ؟

وقال فى حدة :

- أنا مش ممكن أطمئن عليكى إلا لما ألاقيكى مشغولة ..
مشغولة فى حاجة عارفها .. حاجة جد .. مشغولة بشغل ، زى
ما أنا مشغول بشغلى .

■ غلطة حبيبي ■

وقلت كأنى أتوسل إليه :

- ما أنا مشغولة يا مصطفى .. مشغولة فى البيت .. وفى الكنافاه .. وفى الراديو .. وفى التليفزيون .. ده أنا عملت سبع مفارش فى ست أشهر .. وإذا كنت عايز مستعدة أسمع لك أغانى الراديو كلها .

قال فى صراخ :

- مش كفاية .. مش مهم أنك تشغلى أيديكى .. ولا تشغلى ودانك .. المهم أنك تشغلى عقلك .

قلت :

- عقلى مشغول بيبك يا مصطفى ..

قال :

- ما هو ده الخطر .. طول ما عقلك مشغول بى .. يبقى بتفكرى أنك تقابلينى .. ولما ما تقابلينيش حاتزهقى .. ولما تزهقى ممكن تغلطى .. ممكن تعملى حاجات كتير غير الكنافاه .

وقلت فى استسلام :

- طيب عايزنى أعمل إيه يا مصطفى ؟

قال :

- عايزك تشتغلى ..

قلت :

- اشتغل إيه ؟

قال :

- أى حاجة .. سكرتيرة .. مذيعة فى الإذاعة واللا فى التليفزيون .. أى حاجة .

قلت :

■ غلطة حبيبي ■

- زى ما يعجبك يا مصطفى .. شغلنى ما طرح ما أنت
تفكر.

ولم أكن أريد أن أعمل .
والله العظيم لم أكن أريد أن أعمل .
كنت سعيدة فى البيت .
سعيدة بأشغال الكنافاء .
سعيدة بأغاني الإذاعة وبرامج التلفزيون .
سعيدة وأنا فى انتظار مصطفى ليقابلنى مرة أو مرتين فى
الأسبوع .

ولكن مصطفى صمم .
وأخذنى من يدى إلى التلفزيون .. وقدمنى إلى المختصين
هناك .. وأجروا لى امتحانا .. ونجحت .. أصبحت مذيعة فى
التلفزيون .. مقدمة برامج كما يسمونها .
وانقلبت حياتى كلها .
وانشغلت .

وكان أول ما انشغلت عنه هو مصطفى .. لم أعد أعيش معه
بفكرى وعواطفى أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم .. أصبحت
أعيش معه فترات متقطعة من يومى .. وأرقد فى فراشى كل
مساء فلا أكاد أفكر فيه حتى يغلبنى التعب وأنام .. وأصبحت
أنسى فى زحمة العمل أن أتصل بمصطفى فى التلفزيون كل
صباح .. وأنسى أن أقرأ له مقالاته التى كنت أجفظها عن ظهر
قلب .

أصبحت مشغولة .
مشغولة .

■ غلطة حبيبي ■

ولم يشغلنى العمل نفسه .. ولكن شغلنى أكثر جو العمل ..
 شغلت بزملائى الكثيرين الذين يعملون معى فى التليفزيون ..
 وشغلت بخطابات المعجبين والمعجبات .. وشغلت بالدسائس
 والمقالب التى تدبر فى كل حجرة من حجرات المبنى الكبير .
 وبين زملائى كثيرون من الشبان المهذبين الناجحين .
 ربما كان أكثرهم تهذيبا ونجاحا ، هو محمود .
 وتوطدت الصداقة بينى وبين محمود .
 صداقة خالصة .
 قلبى لا يزال مع مصطفى .
 ولكنى أرى محمود كل يوم .. إنه إما فى مكتبى .. أو أنا فى
 مكتبه .

وهو فى حاجة دائما إلىّ .
 إن أحلامه الكبيرة تكاد أحيانا تعصف به .. وتكاد تلقيه فى
 هاوية اليأس .. وهو فى حاجة إلىّ حتى أقويه على أحلامه ..
 حتى أسند شخصيته المهزوزة .. حتى أمنحه القدرة ليخطو
 خطوات عملاقة نحو أمله .

ودعانى محمود ليوصلنى إلى البيت بسيارته :
 ثم أصبح يوصلنى كل يوم .
 بل أصبح يمر علىّ كل صباح ليأخذنى معه إلى مبنى
 التليفزيون .

كانت صداقة .
 لا أكثر من الصداقة .
 ولم يكن هناك شىء أخفيه عن مصطفى .. صرحت له
 بصداقتى لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..

■ غلطة حبيبي ■

بصداقتي لمحمود ، وكنت أروى له ما يدور بيننا من أحاديث ..
وكنت أطلعه على مشاكل محمود فى العمل ، كما أطلعه على
مشاكلى .

وكنت أعتقد أن مصطفى يفهم حقيقة علاقتى بمحمود ، إلى
أن قال لى مرة :

- شفتى محمود النهاردة ؟

وقلت فى بساطة :

- طبعا .

قال وهو يتكلم من تحت أسنانه :

- وطبعا وصلك بعربيته .

قلت :

- أيوه .

وانفجر مرة واحدة صارخا :

- انتى بتشتغلى فى التلفزيون ، ولا بتشتغلى فى محمود .

قلت فى هدوء :

- يا مصطفى .. ما تقولش كده .. أنت عارف أن محمود

صديقى .. أنا ماخبتش عنك حاجة .

وصرخ :

- أنا مش مطمئن للصداقة دى .. مافيش حاجة اسمها

صداقة .. راكمه فى عربيته رائحة جاية ، وتقوللى صداقة !

وقلت وأنا أكثر هدوءا :

- يعنى عايزنى أعمل إيه ؟

قال :

- عايزك تبطللى تعرفى اللى اسمه محمود ده .

■ غلطة جيبى ■

- مش ممكن يا مصطفى .. ده زميلى .. يعنى أقوله إيه؟

قال :

- قولى له بصراحة إنك بتحبنى واحد تانى .

قلت :

- هو عارف أنى باحب واحد تانى .. وعمر الرجل ما طلب

منى أكثر من صداقة ..

وعاد يصرخ :

- ماتجلبش سيرة الصداقة .. إنتى فاكدة أنى مغفل .. أنا

باشغل زيك .. وعارف الصداقة معناها إيه .. اشمعنى سى

محمود ده اللي مصاحباه .. ما فيه ألف واحد فى التلفزيون .

قلت :

- يا مصطفى خلى عقلك واسع .. يعنى أعمل إيه ؟

وصرخ كأنه يطلق أبخرة كثيفة كان يختزنها فى صدره :

- سيبى الشغل .. ارجعى اقعدى فى البيت .

وترددت برهة .. كدت أضعف كما تعودت أضعف أمام

مصطفى .. ولكن شخصيتى الجديدة التى اكتسبتها من العمل ،

انتصرت على ضعفى ، وقلت له فى ثبات :

- ما أقدرش يا مصطفى .. مايقتش أقدر أقعد فى البيت .

وقال كأنه صدم :

- كده .. طيب اعملى اللي انتى عايزاه .. سعيدة !

وعشت يوما كاملا أراجع نفسى .

واكتشفت أنى فعلا لا أستطيع أن أعود لأبقى فى البيت .

لا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى التلفزيون .

ولا أستطيع أن أستغنى عن صداقة محمود .

■ غلطة حبيبي ■

ومصطفى يلومنى .
أبدا .. لا أستحق لومه .. ليس لى ذنب .. لقد كنت له بكل
دقيقة من عمرى .. وكنت سابقى له بكل دقائق عمرى .
ولكنه هو ..
هو الذى أخرجنى من البيت .
هو الذى أخذنى بيده إلى التلفزيون .
خاف على حبنى له من فراغ حياتى .. فملاً حياتى حتى
لم يعد فيها مكان لحبه !

الحقل الكبير ..

أكثر ما يضايقنى أن يتدخل الناس فى حياتى الخاصة.. وأن يصدرُوا على أحكاما، ليست من شأنهم.. لقد حكموا علىّ أنى بائسة.. مسكينة.. غلبانة.. وتمصص العجائز شفاههن ويهمسن.. ☐ يا ميلة بختها.. والنبي دى ضفرها بميت بنت.. ثم يتضحكن قائلات.. آل بنت آل.
وأنا فعلا، بنت.
بنت فى الخامسة والثلاثين من عمرى.
وحتى أريح الناس، فإنى أقول فى وجوههم.. إنى عانس.
أنا عانس.
ولكن.
من أدراهم أنى مسكينة، بائسة، غلبانة، وبختى مائل.
لماذا يفترض الناس دائما أن العانس لابد أن تكون بائسة.
لا..
لست بائسة.
أنا سعيدة.

■ العقل الكبير .. ■

سعيدة جداً.. أسعد من ثمانين فى المائة من الزوجات اللاتي أعرفهن، واللاتي فى مثل سنى.. وسعادتي نابعة من عقلى.. الشعراء، وكتاب القصص، يقولون إن السعادة تنبع من القلب.. لا.. هذا كذب.. خيال.. السعادة تنبع من العقل.. وكما استطاع العقل أن يسيطر على القلب.. استطاع أن يحقق لصاحبه سعادة أكبر.

وكنت - ولا أزال - أعتمد على عقلى فى تنظيم حياتى، وفى تحديد تصرفاتى، بحيث أضمن لنفسى أكبر قدر من السعادة.. إنى أرسم صورة محددة لحياتى.. حياة سعيدة.. لا أعرضها لمجازفة، أو لمغامرة، أو لنزوة، قد تنتهى بنكبة.

الفرق بينى وبين بقية البنات.. أنى لا أبيع عمرى فى نظير لحظات سعيدة.. إن سعادتي دائمة، مستقرة ثابتة.. أما بقية البنات فسعادتهن لحظات من العمر، والباقى شقاء.

وأنا لا ينقصنى شئ لأتزوج.

إنى جميلة.. مثقفة.. ذكية.. غنية.. معاشى من المرحوم بابا قدره خمسة وعشرون جنيهاً فى الشهر.

ومنذ كنت فى السادسة عشرة والخطاب يقفون على بابى.. المهندس.. والدكتور.. والضابط.. بل تقدم لى مرة أحد كبار الصحفيين.

وكنت أرفضهم.

أرفضهم، لأنى منذ كنت فى السادسة عشرة، وأنا مقتنعة بأن الزواج فى حد ذاته لا يحقق السعادة.. وأن ليس المهم أن أكون زوجة، ولكن المهم أن أكون سعيدة.

عقلى الكبير استطاع أن يجنبنى الخطأ الكبير الذى تقع فيه البنات المراهقات، عندما يندفعن إلى الزواج.. والفرحة الساذجة تملأ قلوبهن.. الفرحة بالثوب الأبيض والطرحة.. والفرحة

■ العقل الكبير .. ■

بالدبلة الذهبية.. والفرحة بالزينة والهيصة.. ثم يكتشفن بعد أيام أنهن زفن إلى الشقاء.. ويعشن عمرا شقيا.. لا ينفعهن فيه لا الثوب الأبيض، ولا الطرحة.

نعم.. أنا عقلى كبير منذ كنت فى السادسة عشرة.

وليس معنى هذا أن ليس لى قلب.

إن لى قلبا.

قلبا كبيرا أيضا.

وقد أحببت بهذا القلب.. أحببت حسين.

وقد التقيت بحسين، وأنا فى الثانية والعشرين من عمرى..

ومنذ اللحظة الأولى أحسست بتفاهم كبير بينى وبينه.. كان

عقلى يتجاوب مع كل ما فى عقله، وأخلاقى تتلاقى مع

أخلاقه.. ومزاجى مع مزاجه.. وأحبنى حسين.. ربما أكثر مما

أحبته.. كان يقضى معى كل دقيقة يستطيع أن يكون فيها مع

أحد.

ولكن حسين كان ضابطا بحارا على إحدى المراكب

التجارية.. وكان يغيب فى البحر كثيرا.. يغيب شهرا.. ويعود

ليبقى معى خمسة عشر يوما على الأكثر.

وبرغم ذلك بقينا على حينا.

وحبنا ينمو.

ولكنه كان حبا عفا نظيفا.. واستطاع عقلى أن يسيطر على

قلبى دائما ليبقى حبى عفا نظيفا.

ليس معنى هذا أنى لم أكن أحس بأنى فى حاجة إلى أن

أطلق حبى إلى مدى أبعد.. ليس معنى هذا أنى باردة.. عديمة

الإحساس.. ليس معنى هذا أنى حنبلية متزمتة.. أبدا.. كل

ما هنالك أنى لم أكن أريد أن أعود نفسى على تصرفات

لا أضمن نتائجها.. ولا أضمن مدى حاجتى إليها بعد أن أعود

■ العقل الكبير .. ■

عليها.. دلنى عقلى على أنى لو عودت جسدى على حسين..
لو أطلقت معه غرائزى الطبيعية.. فإنى سأتعذب، لأن حسين
يغيب عنى كثيرا.. إنى لا أستطيع أن أكون له ليلة، ثم يغيب
عنى ستة أشهر، حتى تعود مركبه.. لا.. لا أستطيع.. إنى قد
أجد نفسى فى هذه الحالة معرضة للانحراف.. معرضة لمقاومة
حاجتى الجسدية، وقد لا أستطيع مقاومتها، فأنحرف وأخون
حسين مع رجل آخر.. لا.. لن أعود نفسى على شىء من هذا.
وقد تقدم حسين لخطبتى.

ولكنى رفضته.

هل هذا معقول ؟

هل معقول أن ترفض فتاة الزواج من الرجل الذى تحبه؟
معقول جدا، إذا اكتشفت بعقلها الكبير أن حبيبها لا يمكن أن
يحقق لها حياة زوجية مستقرة سعيدة.. وإذا كان فى زواجها
به ما يعرض حبها للتلف، والضياع والنكبات.
وقلت كل ذلك لحسين.

قلت له إنى لا أستطيع أن أتزوجه لأن عمله يحتم عليه أن
يغيب عنى طويلا.. شهورا بأكملها.. فلن نستطيع أن نقيم بيتا
سعيدا.. بل قلت له إنى لو تزوجته، وتعودت على أن يكون لى
رجل، فلن أضمن أن أصون نفسى من الانحراف، وهو يغيب
عنى مددا تصل إلى عشرة أشهر فى العام، ولا يمنحنى سوى
شهرين توزع أيامهما على مدار السنة.. وفى الوقت نفسه
فإنى لا أستطيع أن أطلب منه أن يستقيل من عمله، ويضحى
بمستقبله، حتى يقيم معى البيت السعيد.

تناقشنا مناقشة منطقية واقعية.

واقتنع حسين.

وقرر أن يبحث عن عمل له فى شركة القناة.. فلن ضباط

■ العقل الكبير.. ■

البحرية فى القناة لا يسافرون فى أعالى البحار.. إنهم لا يغيبون عن بيوتهم أكثر من ليلة أو ليلتين فى الأسبوع. ولكن حسين لم يوفق فى الالتحاق بشركة القناة، ظل يعمل على مركبه التجارى.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى على حبنا فى حدود إمكانياتنا على ممارسة الحب، والتمتع به.. وإمكانياتنا لا تتعدى هذا الحب الرائع الأفلاطونى.. حب أقرب إلى الصداقة الحلوة الجميلة.

وظل حسين معى بعد أن رفضت الزواج به. ثم سافر بمركبه إلى دول أمريكا فى رحلة طويلة استغرقت ما يقرب من عام. وعاد ليعرض على الزواج مرة ثانية. وصمم فى هذه المرة.

إنه يريد أن يكون له بيت يعود إليه.. ويريد أن يكون له أولاد يفرح بهم.

لا تكن ساذجا يا حسين.. إنك لا تستطيع.. ليس المهم أن يكون لك بيت، ولكن المهم أن يكون لك بيت سعيد.. وليس المهم أن يكون لك أولاد، ولكن المهم أن يكون أولادك سعداء.. وأنت لا تستطيع أن تكون سعيدا إلا فى الحدود التى رسمتها لك.. لا يمكن أن تكون سعيدا فى بيت تخشى فيه زوجتك على نفسها من الفتنة والانحراف.. ولا أن تكون سعيدا بأولاد يعيشون كل حياتهم بلا أب.. كأنهم يتامى.

ولكن حسين صمم. وأنا أشفق عليه من تصميمه، وعقلى الكبير يرفض أن يستجيب له.

وذهب حسين وتزوج.
تزوج فتاة أخرى.

■ العقل الكبير .. ■

إنى واثقة من أننى أسعد من هذه الفتاة الأخرى التى تزوجها.. إنى على الأقل لا أقضى عشرة أشهر فى العام، بإحساس الأرملة، أنتظر أن تعود الحياة إلى زوجى، يوم تعود مركبه إلى الاسكندرية.

وانتهت قصتى مع حسين.

وكننت فى هذه الأثناء قد قررت أن أكمل دراستى فالتحقت بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية.. وقد منحتنى الجامعة مزيدا من السعادة.. إنى سعيدة.. سعيدة.. وقد تقدم إلى وأنا فى الجامعة ثلاثة من زملائى ليخطبونى.. ومعيد.. ولكن.. لا.. إنى لا يمكن أن أتنازل عن إكمال دراستى.. وفى الوقت نفسه لا أومن بأنى أستطيع أن أكون سعيدة لو تزوجت وبقيت فى الجامعة.. لماذا.. لماذا أقسم نفسى إلى اثنين.. وأعيش حياتين.. ما حاجتى إلى كل هذه الريبة؟ إما أن أكون زوجة وأما.. وإما أن أكون طالبة فى الجامعة.

وفضلت أن أكون طالبة.

عقلى الكبير هدانى إلى أن أكتفى بأن أكون طالبة.. ورسم لى عالما محددا أستطيع أن أكون فيه سعيدة.. وكننت سعيدة فعلا.

وتخرجت.

واشتغلت فى إحدى السفارات.. بمرتبة خمسة وعشرين جنيها، إذا أضيفت إلى معاش أبى فقد أصبح دخلى خمسين جنيها.

إنى غنية.

إن الإحساس بالغنى سعادة أخرى.

سعادة كبيرة.. واطمئنان.. وهدوء بال.

ثم التقيت بيهجت.

■ العقل الكبير .. ■

كان بهجت هو حبي الثاني.. وكان يختلف اختلافا كبيرا عن حسين.. فبرغم أنه تخرج من الجامعة واشتغل محاسبا، إلا أنه كان يبدو في حاجة إلى في كل كبيرة وصغيرة.. أصبحت أنا التي أنتقى له ثيابه وربطة عنقه.. وأنا التي أحل له مشاكله مع رؤسائه ومع أمه.. وأنا التي أنتقى له الكتب التي يقرأها.. بل أنا التي علمته كيف يبدو إنسانا محترما كاملا.. مهذبا.

وأحبني بهجت في وله.. كان عنيفا مندفعاً في حبه.. ولكن عقلي الكبير استطاع أن يسيطر عليه كما يسيطر على.. فلم أندفع معه إلى أكثر من الحدود التي رسمتها لنفسى، والتي أصون بها نفسى من التعود على أن أطلق غرائزى الطبيعية.. دون أن أتأكد من مصيرى.

وطلبني بهجت للزواج.

وكان يمكن أن أتزوجه.

ولكن.. أمه!

إن بهجت يقيم مع أمه ولا يستطيع أن يتركها.. وهو في الوقت نفسه مقتنع بأنى لن أطيع أن أعيش معها إذا تزوجنا.. إنها شرسة.. جاهلة.. لا يمكن أن تفهمنى.. ولا يمكن أن تعيننى على إقامة بيت سعيد، أسعد فيه.. وحتى لو ضحى بهجت بأمه وقرر أن نقيم أنا وهو بعيداً عنها، فهو سيبقى مسئولا عنها ماديا.. وهو لا يستطيع أن ينفق على بيتين.. بيتى وبيت أمه.. مشكلة لا حل لها.

ماذا أفعل.

هل أجازف وأقنع بهجت، بأن نقيم مع أمه.. ثم أحاول أن أحملها.. أو أحاول أن أخفف من شرستها.. ليه.. لماذا؟.. لماذا أضحى بعالمى السعيد، لأقتحم عالماً لست واثقة من سعادتى فيه؟!

■ العقل الكبير .. ■

عقلى الكبير يرفض هذه المجازفة.. هذا الاندفاع.
ورفضت أن أتزوج بهجت.. واستطعت أن أقنعه بأن نبقى
على حبنا فى حدود إمكانياتنا.. حب أقرب إلى الصداقة الرائعة
الحارة.. وسر قوتى هو أنى لم أقبل أبدا أن أنقاد إلى الحب إلى
أبعد من هذه الحدود.
لو أنى اندفعت مع بهجت.. لو أنى تماديت معه بحيث أفقد
سيطرة عقلى على قلبى وعلى جسدى.. فربما قبلت زواجه،
وعشت فى جحيم أمه.. يا حفيظ.
وأنا الآن فى الخامسة والثلاثين من عمرى.
عانس.
ولكنى سعيدة.
سعيدة أكثر من سعادة ثمانين فى المائة من الزوجات
اللاتى فى مثل سنى.
وسعادتى تنبع من عقلى، لا من قلبى، ولا من جسدى.
أتدرى ما يقوله الناس؟
إنهم يقولون إنى لم أتزوج حتى لا أفقد معاش أبى.
أبدا والله العظيم.
لا تصدقهم.
إنه معاش كبير.. خمسة وعشرون جنيها فى الشهر..
ثلثمائة جنيه فى العام.. إيراد خمسة عشر فدانا.
ولكن لا تصدق الناس.
أرجوك.
إنى سعيدة.
وهذه الدموع.. هى دموع سعادتى.. وفرحتى بعقلى الكبير.

أزمة المثقفين

عطيات.. عزيزتى..

وكان يجب أن أناذك : «زوجتى العزيزة»...
ولكن، لا.. سواء كنت زوجتى أم لم تكونى.. فأنت
دائما : عزيزتى، أنت دائما، عطيات العزيزة. □

لقد كذبت عليك يا عزيزتى.

أنا لم أسافر إلى الاسكندرية لأتم بحثى عن البيروقراطية
كما قلت لك.. أبدا، البحث قد تم وستفاجئين به منشورا فى
الجريدة غدا.

لم أسافر إلى الاسكندرية إلا لأكتب لك هذا الخطاب.
منذ متى وأنا أريد أن أكتب إليك؟
منذ سنتين.

ربما قبل أن ينقضى شهر العسل.. عسلنا!
وكننت طول هذه المدة أتردد فى الكتابة إليك، لأنى كنت فى
كل يوم أكتشف فى نفسى شيئا جديدا أريد أن أطلعك عليه..
ثم لأنى لم أكن قد وجدت القرار الذى يجب أن أنتهى إليه به
أن أطلعك على نفسى.. فلم يكن الأمر سهلا.. أبدا ليس سهلا

■ أزمة المثقفين .. ■

أن أحاول اكتشاف أغوار نفسي، وأن أكتشف الروابط بين
عقلي الباطن وعقلي الصاحي، ثم أكتشف الخيط الذى يربط
بين ثقافتى وبيئتى.. لأنتهى من كل ذلك إلى القرار الذى يحدد
مصيرى ومصيرك.

وقد انتهيت إلى القرار.

أمس فقط انتهيت إليه .

أرجوك.. لا تجرى فوق السطور بسرعة حتى تصلى إلى
معرفة هذا القرار.. أرجوك.. أنا فى حاجة لأن تقرئ كل سطر
من سطور خطابى وكل كلمة، بإمعان.. بكل عقلك.. فلا تجرى..
وسأطلعك على القرار منذ الآن، حتى لا تجرى.

القرار هو : أنت طالق.

نعم يا أعز الناس.. طلقتك!

هل صرخت؟

هل بكيت؟

هل غضبت؟

أرجوك يا عطيات.. فلم يكن بيننا أبدا صراخ، ولا بكاء،
ولا غضب.. لقد اختلفنا كثيرا من قبل، وتعودنا أن نناقش
خلافاتنا بالمنطق.. بالعقل وحده.. وكانت ثقافتى وثقافتك
تحمينا دائما من العواصف النفسية التى يتعرض لها السوق
الذين لا تعينهم ثقافتهم على الوصول إلى أغوار النفس.. إلى
البؤرة التى تنطلق منها العواصف، حتى يسيطروا عليها.

إنى أكتب لك هذا الخطاب بثقافتى.

فإن أى قرار مهما بلغت قسوته، يخفف منه الفهم.. وأنا
أريدك أن تفهمينى، كما فهمت نفسى، حتى لا تتهمينى
بالقسوة.. وحتى لا تعرضى نفسك للإحساس بالظلم.. وميلة
البخت.

■ أزمة المثقفين .. ■

والآن.

الأسباب.

أسباب القرار الذى انتهيت إليه .

إن من حقك أن تعرفى هذه الأسباب بتفاصيلها.. ولكى أطمئنك.. أؤكد لك منذ الآن أنها ليست أسبابا متعلقة بك.. أنت زوجة فاضلة.. أنت خير الزوجات.. أنت عصابة ما فى الحياة من غذاء.. غذاء الروح، وغذاء العقل، وغذاء الجسد.. أنت مشبعة ولكن الأسباب كلها متعلقة بى أنا.. أنا الذى كنت أخوض المعركة وحدى.. وكان يجب أن أكون أنا الذى أتخذ القرار.. وحدى أيضا.

وسأضطر أن أعود إلى الوراء سنوات حتى لا تحترق فى فهمى.. سأمر بسرعة.. فإن معظم أحداث حياتى تعلمينها، وإن كنت لم تقضى فى ترتيبها، ترتيبا مسلسلا بحيث تصل بك إلى قرار بالطلاق.

لقد تركت قريتنا فى مديرية قنا لألتحق بالجامعة وأنا فى السابعة عشرة من عمرى.. وكانت نقلة كبيرة بين حياة القرية، وحياة القاهرة بالنسبة لى.. نقلة لم يسبقها إعداد نفسى، ولا إعداد عقلى.. وبهرت.. وبقيت ثلاث سنوات مبهورا.. والبهرة تشل كل إنطلاق يمكن أن يندفع فيه شاب فى مثل عمرى.. كانت بنات الجامعة والنساء اللاتي أراهن فى شوارع القاهرة، مخلوقات غريبة بالنسبة لى.. غريبة بالنسبة لأمى التى لا تخرج من بيتها، إلا وهى مختفية فى زعبوط يخفى حتى عينيها.. وغريبة بالنسبة لأختى التى حجزت بجانب أمها منذ كانت فى السابعة، ولم تخرج من دارنا إلا إلى الدار الأخرى.. أقصد، دار زوجها.. وغريبة بالنسبة لزينة.. الفتاة التى ذبحها شقيقها لأنها أطلت على ابن عمها مكشوفة الوجه.

■ أزمة المثقفين .. ■

ولكن هذه ажيرة.. وهذه الغربة.. بدأت تخف شيئاً فشيئاً.. ومنذ أصبحت فى السنة الثالثة بكلية الآداب، بدأت أختلط بالبنات، وبدأت أجهد نفسى فى أن أبحث عن مبررات منطقية لتصرفاتهن مع الأولاد.. وبدأت كثير من هذه المبررات تتسرب إلى منطقتى.. وأصبحت أذهب مع البنات إلى الرحلات الجامعية دون أن أفقد احترامى لهن.. وأصبحت أرى الواحدة منهن ترتدى بنطلونا يبرز كل قطعة من جسدها، ودون أن أفقد اقتناعى بها.

والواقع أن سرعة اقتناعى بتصرفات البنات، كانت تصحبها سرعة فى تحررى من إحساسى بالمسؤولية عن المجتمع كله.. وعن مجتمع الجامعة بالذات.. كان إحساسى الفردى قد بدأ يطغى على إحساسى بالمجتمع.. وإحساسى بمسؤوليتى عن نفسى بدأ يسبق مسؤوليتى عن الناس وبنات الناس.. بدأت أقبل البنات كما هن، ما دام هذا لن يتسبب لى فى خسارة.. وما دمت لست مسئولاً عن واحدة منهن.

أقول لك هذا، لترى الفرق بين الاقتناع والإحساس.. فالذى تغير فى هذه الفترة ليس اقتناعى، ولكنه إحساسى.. نتيجة تغير المجتمع الذى أعيش فيه.. ففى قريتنا كان إحساسى يشمل القرية كلها.. ولكن هذا الإحساس تقلص فى القاهرة، إلى أن أصبح إحساساً فردياً.

وقد كان لى فى نهاية سنوات الجامعة، والسنوات التى أعقبها، علاقات مع بنات كثيرات.. لم أحب.. بمعنى الحب الذى عرفته معك.. ولكنها كانت علاقات تستطيعين أن تسميها صداقة متحررة.. تصل إلى حد تبادل القبلات، وأكثر من ذلك قليلاً.. وكنت أقبل هذه الصداقات أيضاً بإحساس اللامسئول.. اللامبالى.. وكان هذا الإحساس يترك على ذهنى غلال رقيقة،

■ ازمة المثقفين .. ■

أبدو بها كأنى مقتنع بهذا النوع عن العلاقات، وهذا النوع من البنات.. ولكنه لم يكن أبدا - كما اكتشفت أخيرا - اقتناعا أصيلا.

ثم.

سافرت إلى باريس كما تعلمين، لأعد رسالة الدكتوراة. وقد سافرت وأنا أرسم لنفسى عن باريس صورة العاصمة الإباحية، المنحلة، المتهتكة.. ولم تستطع قراءتى الكثيرة عن عظمة الأدياء الفرنسيين أن تخفف من هذه الصورة.. فقد كان يخيّل إلى دائما أن هؤلاء العظماء ليسوا واقعا.. إنهم تاريخ.. إنهم فى السماء.. أما باريس فهى مدينة منحلة، بلا عظماء، وبلا مبادئ.

ولكن عندما عشت فى باريس بهرت بثقافتها.. إن ثقافة باريس، وجديتها، وكفاحها فى سبيل رقى العقل البشرى، أمر واقع.. ليس تاريخا.. إنه واقع باريس.. إن الثقافة على الأرصفة.. وفى المقاهى.. وفى البيوت.. وفى عقول كل البنات.. حتى العاهرات.. فإذا كان هذا الواقع الثقافى هو الذى فرض مظاهر الانحلال على باريس.. فلا يمكن بعد هذا أن يسمى انحلالا.. أبدا.. هذا الذى يسميه الناس انحلالا، ليس سوى انتصار العقل.. انتصار الثقافة.. إنه التقدم الذى يصنعه الإنسان.

واقترنت بباريس.

بكل ما فى باريس.

وانتهيت من الدكتوراة فى خلال عامين.. نلتها مع درجة الشرف.. ولكنى بقيت فى باريس لأعد دكتوراة أخرى. وتزوجت كما تعلمين.

تزوجت زميلتى فى الجامعة.. فرانسواز.

■ أزمة المثقفين .. ■

ولم تكن فرنسواز عذراء.. عرفت أنها ليست عذراء من قبل أن أتزوجها، وبرغم ذلك تزوجتها.. لم أفكر لحظة واحدة في أنها ليست عذراء.. إن ثقافتى رفعتنى كثيرا فوق هذه التوافه.. عذراء.. ماذا يعنى أن تكون الفتاة عذراء أو ليست عذراء.. لا شىء.. لا شىء بالمرة.. ولم يكن هذا الموضوع قط مثار نقاش بينى وبين فرنسواز.. ولا حسب أحدنا حسابه.. لم أحس أنها نقصت حبة، لأنها ليست عذراء.. أبدا.. أبدا.. ليس هناك ما أعانيه لا فى عقلى ولا فى إحساسى.. وكل ما عرفته عن فرانسواز أنها كانت تحب شابا قبل أن تلتقى بى، ثم هجرته.. وبرئت من حبه.. وحتى هذا لم يثر فى أدنى تردد فى الزواج بها.. لماذا.. إن من حقها أن تحب.. لم يكن معقولا، ولا منطقيا أن تبقى حتى تلتقى بى وهى فى السابعة والعشرين من عمرها، دون أن تحب.. دون أن يكون فى حياتها رجل. وقضيت معها ثلاث سنوات من أسعد سنوات عمرى. إنى لم أنكر سعادتى معها، عندما حدثتكَ عنها. ثم.

ماتت فرنسواز.. فى حادثة.

ولم أناقش موتها.. فمناقشة الموت جدل سفسطائى.. والحزن على الموت حزن عقيم.. سخيـف.. تنطلق إليه العواطف الجاهلة.. لا العواطف المثقفة.. ولكنى ناقشت وحدتى بعدها.. وتعذبت بوحـدتى.. وحزنت لوحـدتى.. ليست وحدة جسدى، ولكن وحدة عقلى، ووحدة روحى ومزاجى وثقافتى.. فقد كانت زميلة روحى، وزميلة مزاجى.. وزميلة ثقافتى.

وعدت بعدها إلى القاهرة.

عدت ومعى باريس.

باريس فى عقلى، وفى قلبى.

■ أزمة المثقفين .. ■

وقررت أن أشتغل فى الصحافة حتى أفيد بثقافتى عددا أكبر من طلبة الجامعة.. حتى أساهم فى رفع المستوى الثقافى بين أهل مصر.. حتى أنتشلهم من أحاسيسهم الجاهلة، وأخرجهم من وراء قضبان المنطق العتيق الذى يحبس أفكارهم، ويحبس أحاسيسهم، ويحرمهم من متعة الانطلاق فى عالم أوسع وأرقى.. أوسع من الأسوار البالية التى أقاموها حولهم، وأرقى من التفاصيل الصغيرة التافهة التى يعيشون فيها. إلى أن قابلتك.

وكانت ثقافتك أرقى بكثير من الشهادة الجامعية التى تحمليها.

ولا أزال أذكر أول كتاب قررنا أن نقرأه معا.. لقد قررنا أن نعيد قراءة كل أعمال جان بول سارتر.. ويعيد كل منا تقييمه لها.. ولا أزال أذكر التعليقات التى كنت تتركها على هوامش الكتب التى أقرأها بعدك.. كانت تعليقاتك كأنها تسجيل لأرائى.. كأنك تتلمذت على يدى.. لقد ارتبطت بك ثقافيا قبل أن ترتبط بك عاطفيا أو جسديا.

ولم يكن لجسدينا دور فى هذه الفترة.. لا أدري، هل عن تعمد منك.. أم لأن ظروف لقائنا لم تكن تتيح لنا التعبير عن حاجة جسدينا.

المهم.

لقد عرضت عليك الزواج، ولم أكن قد قبلتك أكثر من ثلاث مرات.. واحدة فقط على شفقتك.

وترددت أنت قليلا، ومرت سحابة قاتمة على عينيك، ثم قلت :

- دعنى أفكر؟

ودمشت.. فvim تريدين التفكير.. إذا كنا قد ارتبطنا ثقافيا إلى

■ أزمة المثقفين .. ■

هذا الحد، وأدى بنا الارتباط الثقافى إلى ارتباط عاطفى.. فماذا
بقى لتفكرى فيه.

وقلت لك فى دهشة :

- تفكرين فى ماذا ؟

ونظرت إلى طويلا.. نظرة ملؤها الحيرة.. وقلت وصوتك
ينضح بالعذاب :

- أريد أن أقول لك شيئا.

قلت والدهشة تستبد بى :

- ماذا ؟

قلت وأنت تحنين رأسك :

- إنى لست عذراء.

وأذكر ساعتها أنى ضحكت ضحكة كبيرة، وقلت :

- وماذا يعنى هذا؟

قلت :

- ألا يعنى هذا شيئا؟

قلت وأثار ضحكتى بين شفتى :

- لا.. لا يعنى شيئا.

ولكنى عندما أجبتك، قفز فى رأسى شىء لم أكن أتوقعه.

كأنى تذكرت فجأة أنى فى مصر، ولست فى باريس.. نعم..

طوال هذه الشهور التى مضت منذ عدت من باريس.. أكثر من

عام.. لم أتنبه إلى أنى أصبحت أعيش فى مصر لا فى باريس..

لم أتنبه إلا عندما صرحت لى بأنك لست عذراء.

إن فرانسواز لم تصرح لى بأنها ليست عذراء - لم تكن

تعتقد أن هذا شىء يستحق أن تصرح به إلى.

إن فرانسواز.. باريس.

وأنت.. القاهرة.

■ أزمة المثقفين .. ■

وقد صممت أنت يومها على أن تروى لى قصة وكيل مكتب والدها الذى اعتدى عليك وأنت فى الثانية عشرة من عمرك.. وكيف أن أحدا لا يعلم بخبر هذا الاعتداء.. لا والدك.. ولا أمك.. لا أحد يعلم أنك لست عذراء سوى وكيل المكتب.. وأنا. ولم أكن أريد أن أسمع قصصك.. ولم يكن يهمنى أن أسمعها.. سواء كان الرجل قد اعتدى عليك، أو أنك كنت قد استسلمت له بإرادتك.. فهذا لا علاقة له بنا.

وقد عدت تقولين، كأنك تصرين على إقناعى :
- كنت أستطيع أن أخفى عنك كل هذا.. وكنت أستطيع أن أجرى عملية جراحية تجعل منى عذراء مزيفة، حتى لا تكتشف شيئا بنفسك.. ولكنى فضلت أن أطلعك على الحقيقة ما دمت تريد أن تتزوجنى.

وأجبتك :

- إنك تتكلمين كالأهلات.. كأنك فتاة قروية.. ماذا يعنى كل هذا الذى تقولينه.. لا يعنى شيئا أبدا.. إنى أريدك كما أنت.. بتجاربك.. إن هذه التجارب هى التى كونت الشخصية التى أحبها.. ثم إنك تنسين أنى إنسان مثقف.. وأنى عشت فى باريس.

وابتسمت أنت ابتسامة مسكينة.

ثم وافقت على الزواج.

ولكنك بعد أن تركتني.. وجدت نفسى يومها أتعرض لتيارات ذهنية كأنها تهب على من عالم سحيق.. بعيد.. عالم ظننت أنى تحررت منه.. هربت منه على أجنحة ثقافتى.. ووجدت نفسى، برغم إرادتى أناقش موضوع الفتاة العذراء من جديد.. كأنه موضوع فوجئت به.. وأخذت أقنع نفسى كأن فى داخلى تلميذا يتلقى المبادئ الأولى للفكر المتحرر.. قلت

■ أزمة المثقفين .. ■

لنفسى إن حرية الجسد لا تختلف بين المرأة والرجل.. وقلت
لنفسى إن الفتاة التى فقدت عذريتها ليست أقل شرفا من الفتاة
العذراء.. الشرف لا يمكن أن يعلق على قطعة واحدة من
الجسد، ثم نترك باقى الجسد حرا يفعل ما يشاء، دون أن يفقد
شرفه.. وقلت إن الشرف هو شرف الروح، والعقل.. شرف
الضمير.. وشرف الكلمة.. وقلت إن المرأة ليست زجاجة
مسدودة بالشمع الأحمر، مكتوب عليها : «لا تفتح إلا بمعرفة
الزوج».. قلت لنفسى كلاما كثيرا.

وكان عقلى مقتنعا طبعاً بهذا الكلام.

ولكن بقى فى نفسى شىء يقلقنى.

وأصارحك اليوم بأنى تزوجتك كنوع من التحدى لهذا
القلق.. تحدى نفسى.. تزوجتك لأنصر ثقافتى على هذا المجهول
الذى يعيش داخلى ويقلقنى.

وكننت واثقا أن ثقافتى ستنتصر فى النهاية.

ولكنى منذ اليوم الأول لزواجنا.. ربما بعد أن ألتقى جسداً
لأول مرة، مباشرة.. اكتشفت أن الأمر بالنسبة لى ليس سهلاً
كما كنت أتصور.. وأن ثقافتى قد لا تنتصر.. فقد وجدت
نفسى ساعيتها أتمنى لو أنك كنت عذراء.. إنى لا أعرف ما هو
الفرق الحسى أو العاطفى الذى يمكن أن أشعر به لو أنك كنت
عذراء.. فلم يكن لى من قبل فتاة عذراء.. ولكنى وجدت نفسى
أفكر فى هذا الرجل الذى اغتصبك وأنت صغيرة.. ولم أكن
أشك فى قصتك التى رويتها لى.. لم يخطر على بالى أنك كذبت
على.. أو.. لم يكن هذا يهمنى.. سواء صدقتك أو كذبتك.. كان
كل ما يهمنى أن هناك رجلاً آخر أخذك قبلى.. وأخذك بلا
زواج.. وكننت أتصور هذا الرجل.. أتصوره بشعا كريها، ثم
أشعر بكرهية عنيفة نحوه.. ثم أشعر بهذه الكراهية تدفعنى

■ أزمة المثقفين .. ■

إلى التفكير فى ارتكاب جريمة.. أريد أن أقتله.. نعم.. أريد أن أقتل.. تماما كأي فلاح من قريتنا يكتشف ليلة الزفاف أن زوجته ليست عذراء.. أنا.. أنا.. أنا الذى أحمل فى عقلى وفى ضميرى كل هذه الثقافة.. الكنوز الهائلة التى تحوى كل مستقبل الإنسان.. أنا.. أفكر كفلاح قريتنا.

ولكن فرنسواز أيضا لم تكن عذراء.

وحاولت أن أقنع نفسى بأنك كفرنسواز.

وحاولت أن أقنع نفسى بأنى مازلت فى باريس.

ولكن، لا.

مستحيل.

أنت عطيات.. ليست فرنسواز.

وأنا فى القاهرة.. لست فى باريس.

ولكن ما هو الفرق ؟

لماذا أمنح فرنسواز حقوقا، لا أستطيع أن أمنحها لك بنفس

البساطة ؟

لماذا لا أكون فى القاهرة، كما كنت فى باريس ؟

فكرى معى.

لماذا ؟

ربما لأن جذورى تمتد فى مصر إلى بعيد.. إلى جد جدى..

إلى آخر أجدادى.. وليس لى جذور فى باريس.

وربما لأن المجتمع الذى كان يحيط بى فى باريس يختلف

عن المجتمع الذى يحيط بى فى القاهرة.. إننى لا أستطيع أن

أرى الجلايب فى الشارع، وباعة الترمس، ثم أتصور نفسى

فى باريس.. وقد كنت فى باريس أساير مجتمعتها حتى فى

تقاليده.. وأستسلم له.. ولكنى - وأنا فى القاهرة - لو فعلت

ما كنت أفعل فى باريس ، وأمنت بما أمنت فى باريس، فإنى

■ أزمة المثقفين .. ■

لا أستسلم للمجتمع، بل أتحداه.. وأنا لا أستطيع أن أتحدى المجتمع.. ثقافتى لا تمنحنى القوة الكافية لأتحداه.

وربما.. ربما لأنى لا أشعر بمسئوليتى عن مجتمع باريس.. ولكنى أشعر بمسئوليتى عن مجتمع مصر.. فلم يكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل باريس، ولكن يهمنى أن أناقش تقاليد أهل مصر.

وربما لأن فرنسوان عندما فقدت عذريتها، لم تفقدها وهى تحس أنها ترتكب خطيئة.. أما أنت فقد اعتبرت نفسك ضحية.. واعتبرت نفسك موصومة بالخطيئة.

وربما.. وربما.. عشرات «وربما».

والمعركة تشتد فى داخلى.

وقد اكتشفت أثناء هذه المعركة أنى تنازلت عن كثير من منطق ثقافتى التى تلقيتها فى باريس.

لقد كنت فى باريس أعجب بفن الليدو والفولى برجير.. الفن العارى.. وكان الجسد العارى فى نظرى ليس كشفا عن عورة، ولكنه تعبير عن جمال.

ولكنى عندما عدت إلى مصر كتبت دون أن أدري مقالا أهاجم فيه نجمة سينمائية كشفت عن ساقىها فى أحد أفلام.. وكنت فى باريس أقرأ لسارتر.. وألبرتو مورافيا.. وتنسى وليامز، دون أن أحس بأن أحدا منهم قد خدش ناموس الأخلاق وهو يكتب ويصف المشاهد الجسدية، بصراحة، ولكنى بعد أن عدت إلى مصر أصبحت أصب كل لذة قلمى على أى كاتب يدمج فى إحدى قصصه مشهدا جنسيا.. و.. و.. تحولات كثيرة.. أو هى انحرافات طرأت على منذ عدت من باريس، وكان أقواها أنى أحاسبك بينى وبين نفسى، لأنك لست عذراء. والمعركة التى تدور فى صدرى لا تريد أن تسكت.

■ أزمة المثقفين .. ■

ويوما بعد يوم أفقد ثقفتي في نفسي. وفي ثقافتى.
وبدأت أشعر بأنى منافق كبير.. وأنى أضحك على الناس
بهذه الشهادات التى أحملها.. بأنى لست مثقفا.. عقلى ليس
مثقفا، وقلبى ليس مثقفا، وإحساسى ليس مثقفا.. الثقافة فى
ذاكرتى فقط. كأنى مقرئ من مقرئى القبور، أحفظ آيات
القرآن وأتلوها مائة مرة فى اليوم، ولكنى لا أعمل بها،
ولا أحس بها.

وقد لاحظت أنت شرودى الدائم.. ولاحظت القلق المرتسم
دائما فى عيني.. وحاولت جهدك أن تخفى عني، ولكنك
لم تستطيعي لأنك لم تكوني تدريين سبب هذا الشرود وهذا
القلق.. وربما لاحظت أيضا أنى بدأت أتردد كثيرا على قريتنا
فى الصعيد .. كنت أذهب إلى هناك وأجلس بجانب أمى،
وأستريح.. أستريح من ثقافتى.. وأشعر أنى فى مكانى.
أندرين.

لقد اكتشفت أن كل هذه الثقافة التى أحملها، ليست سوى
كتاب أضعه فى جيبى، وأخرجه كلما أردت أن أستعين به فى
كتابة مقال الجريدة.. كل هذه الثقافة ليس لها أثر فى منطقى،
ولا فى نفسى.. إنها شىء اشتريته.. ووضعت فى جيبى.
وهزمت أمام نفسى.

وكان يجب كى أستريح أن أفعل ما كان يفعله جدى.
أن أطلقك.

فأنت لست فرنسواز.

أنت عطيات.

فرنسواز كان من حقها ألا تكون عذراء.

أما أنت.. فلا.

حبیبی أصفر منى ..

أنا زوجة طلقت ثلاث مرات.
إنهم ليسوا ثلاثة رجال.. ولكنه رجل واحد
طلقنى ثلاث مرات.
طلقنى.. لا.. أنا التى كنت أطلب الطلاق فى كل
مرة. □

وكننت أحبه.. ولكن حبى كان يصطدم بكرامتى.. وكرامتى
كان يجرحها إصراره على أن يقضى ليلتين من كل أسبوع مع
أصدقائه.. وأصدقائه كلهم عزاب.. هذا الصنف المستهتر من
الشبان.. وأكثر من مرة ضببت أثرا من آثار لهوه مع
أصدقائه.. آثار أحمر شفاه فى منديله.. آثار بودرة فوق
قميصه.. ودائما أضبط هذه الآثار فى صباح الليلتين اللتين
يقضيهما مع أصدقائه.

وحاولت أن أبعده عن أصدقائه.. فلم أستطع.. حاولت أن
أقنعه بآلا يسهر وحده.. فلم أستطع.. ثم طالبت أخيرا بأن
يكون لى الحق فى أن أسهر وحدى خارج البيت فى الليلة التى

■ حبيبي اصغر مني.. ■

يسهر فيها.. لم لا.. إني أومن بالمساواة.. أنا موظفة مثله..
وأكسب مثله.. فلماذا لا يكون لي نفس الحقوق التي يمنحها
لنفسه.. ولكنه كان يرفض.. ويصر على أن أبقى في البيت
وحدي.

وكنت أستطيع أن أخونه كما يخونني.. أن ألهو مثل لهوه..
ولكني لم أفعل أبدا.. كنت أشعر بالتقزز كلما تصورت نفسي
لرجلين في وقت واحد.. جسدي يقشع لمجرد أن أتخيل رجلا
آخر يلمسني غير زوجي.

لم أخنه.. ولكني طالبت بالطلاق صونا لكرامتي.
وطلقتني.

قضيت ستة أشهر وأنا مطلقة.. وبرغم ذلك لم أحاول أن
يكون لي رجل آخر.. أبدا، لم أحاول، رغم كل الإغراء الذي
يحيط بكل شابة مطلقة جميلة.. كنت أعتبر نفسي في كل يوم
من الشهور الستة، كإني مازلت زوجته.. برغم الحرمان
الشديد الذي كنت أعانيه.

ثم أعادني إليه.

وعدني أن يغير من نفسه.

وعدت إليه.. ملهوفة إليه.

ولكنه لم يف بوعده.

عاد كما كان.

وقاومت الصراع الذي اشتعل من جديد بين كرامتي
وحبي.. قاومت طويلا.. إلى أن غلبتني كرامتي.. فطلبت الطلاق
مرة ثانية.. وطلقتني.

وعشت مطلقة سنة كاملة.. لم أحاول أيضا أن يكون لي
خلالها رجل آخر.. بل لم أحاول أن أتزوج.. اعتبرت نفسي أني

■ حبيبي أصفر مني... ■

لا أزال زوجته.. وتحملت الحرمان القاسي.. وكنت أضحك على نفسي عندما تشدد بي قسوة الحرمان، وأتخيل أن زوجي مسافر.. وأنه سيعود.. ويجب أن أحتمل إلى أن يعود. وقد عاد.

أعادني إليه.. وأسرعت عائدة تحت ضغط عذاب الحرمان.. لم يكن الحب وحده هو الذي أعادني.. ولكنه الحرمان الطويل المر. ووعده.

ولكنه أيضا لم يف بوعده. وقد فكرت في هذه المرة أن أخونه، حتى أتخلص من الصراع بين حبي وكرامتي.. ولكني اكتشفت أن الخيانة الزوجية ستفقدني الاثنين.. الحب، والكرامة.. وخير لي أن أحفظ بأحدهما.. واخترت أن أحفظ بكرامتي.. وطلبت الطلاق. وطلقتي للمرة الثالثة.

هذه المرة أصبح الأمر مختلفا.. فإني لن أستطيع أن أعود إليه إلا بمحلل.. رجل آخر يتزوجني قبل أن أعود إليه. فهل أستطيع أن أتزوج رجلا آخر.. لا.. لا أستطيع إذا كان الزواج مجرد أن أعود لزوجي الأول.. لا أستطيع حتى إذا كان هذا «المحلل» رجلا سوريا.. مجرد إجراء رسمي على الورق.. أحس أني سأظل موصومة بهذه الورقة الرسمية إلى الأبد.. إذا لم تترك أثرا على جسدي، فإنها ستترك أثرا على إحساسي.. على كرامتي.

وبرغم ذلك، بعد أن مرت الشهور.. شهور الحرمان.. بدأت كرامتي تلين.. وبدأت أتصور أني أستطيع أن أقبل على نفسي إجراء «المحلل».

■ حبيبي اصفر مني... ■

ولكن زوجي لم يعد إلى.

سافر.

سافر إلى بعيد.

وبدأ الأمل يذوب.. وبدأت أحس أنني أنتقل إلى عالم آخر..
عالم ليس فيه الرجل الذي كان زوجا لي.. وليس فيه
أصدقائه.. وليس فيه أهله.. وليس فيه بيجامته المخططة..
ولا فمه المفتوح الذي يتثائب به كل صباح.

وقد انتقلت فعلا إلى عالم جديد.. مجتمع جديد يضم
زميلاتي وزملائي في العمل.. وأصدقاء جدد.. وجوه جديدة..
وعادات جديدة.. وأصبحت أخرج في رحلات.. وأسهر سهرات
بريئة.. سهرات ثقافية.

ولكني بقيت دائما السيدة الفاضلة.

لم أخطيء أبدا.

ولم أفكر في الخطأ إلا بعد أن عرفت صلاح.

كان صلاح إنسانا رقيقا.. مهذبا.. فنانا.. مثقفا.. وقد
شعرت به منذ أول لقاء لنا، كما لم أشعر برجل آخر ممن
يحيطون بي.

واحترت في بادئ الأمر في تفسير شعوري نحوه.. فهو
مختلف عن زوجي الأول.. مختلف عنه في كل شيء.. زوجي
الأول لم يكن رقيقا، ولا مهذبا، ولا فنانا.. كان عنيفا، ماديا،
يسيطر على جسدي أكثر مما يسيطر على روحي.. وكنت
أحبه.. فكيف أحب رجلا آخر مختلفا عنه.

وبددت الأيام حيرتي.

إنني أحبه.

أحب صلاح.

■ حبيبى اصغر منى.. ■

ولكن.. ماذا أفعل بهذا الحب.
إن صلاح أصغر منى بأربع سنوات.. ولا يمكن أن أتزوج
رجلا يصغرنى بهذا الفارق الكبير.
وصلاح يريد أن يتزوجنى.
لا.

لن أتزوجه.
لو تزوجته فساأصدم فى زواجى الثانى أكثر مما صدمت
فى زواجى الأول.. لقد كانت مصيبتى فى زواجى الأول أن
زوجى كان يكبرنى بعام واحد.. فماذا يحدث إذا كان يصغرنى
بأربع سنوات.. إنى وإثقة أن صلاح سيشعر بفارق السن بعد
اليوم الأول من الزواج.. إنه يقول الآن إن فارق السن لن يكون
له أثر.. ولكن هذا كلام يقوله قبل الزواج.. وكل الرجال يقولون
قبل الزواج ما لا يقولونه بعد الزواج.

لا لن أتزوج.
إنن ماذا أفعل.
هل أكون له بلا زواج؟
مستحيل.

لقد مضى على علاقتى به أكثر من ستة أشهر دون أن
أمنحه نفسى.. ولم يكن هذا سهلا على.. أبدا لم يكن سهلا..
إنى أعانى من كل دقيقة فى عمرى.. فى كل دقيقة أريده.. كله..
وفى كل دقيقة أقاوم ما أريد.. وأضغط على أعصابى لأحتمل
الحرمان.. الحرمان القاسى.. حرمان تشتد قسوته كلما نظرت
فى عينيه المتلهفتين إلى.. وكلما لمحت شفتيه الظامئتين إلى
شفتي.. وكلما لمست يده الساخنة يدي المرتعشة.. وكلما احتكت
كتفه المزدهمة بقوته بكتفى المحرومة.

■ حبيبي اصغر مني.. ■

وبرغم ذلك.

قاومت.

قاومت لأنى كنت أعلم أنى لو أصبحت لصلاح بلا زواج،
فسيكون سهلا على بعد ذلك أن أكون لآى رجل بعد أن يتركنى
صلاح.

خير لى أن أعود على حرمان جسدى، من أن أعود على
ابتذال جسدى.

لا يا صلاح.. لنبق أصدقاء.

واضطر صلاح أن يكتفى بصداقتى.

كنا نخرج سويا كل يوم.. نتمشى على النيل.. ونزور
أصدقاءنا.. ونرقص.. ونتناقش.. ونقرأ كتباً.. ونشترك فى
الرحلات الجماعية.

وما زلنا مجرد أصدقاء.

إنى أحبه.

وهو يحبنى.

ولكننا مجرد أصدقاء.

وكانت تمر بى أيام أثور فيها على هذه الصداقة.. أيام أطالب
فيها لنفسى بحقها فى الحب.. ولجسدى بحقه فى الارتواء..
ولكن عقلى كان يخمد ثورتى.. أعقلى يا بت.. لا تتزوجيه، حتى
لا تعيدى تجربتك مع زوجك الأول.. ولا تروى جسدك
بلا زواج.. وإلا عودت جسدك أن يشرب بلا حساب.

إلى أن كان يوم.

وقال لى صلاح ونحن جالسان فى حديقة كازينو قصر
النيل.

- شهيرة.. إنى أفكر فى الزواج لم أعد احتمل وحدتى .

■ حبيبي اصغر مني.. ■

ونظرت إليه بعينين متغطرسيتين وقلت : سنعود إلى سيرة
الزواج.. ألم نتفق أن نكون أصدقاء.

قال في هدوء :

- إنني أقصد الزواج نفسه.. أي زواج.
وانطلق الذعر من عيني.. ولكنني بسرعة ضبطت أعصابي،
وقلت وأنا أحاول أن أجاريه في هدوئه :

- ماذا تقصد.

قال مبتسما :

- ألسنا أصدقاء.

قلت :

- نعم.

قال :

- وأنت أقرب صديقة إلي.. بل إنك أكثر من صديقة فإن
أمي كما تعلمين، ماتت.

قلت :

- إنني أحب أحيانا أن أكون أمك.

قال :

- إذن.. أخطبي لي.. أي واحدة تعجبك.

وضغطت على أعصابي بكل إرادتي، وقلت من تحت

أسناني :

- بس كده.. حاضر.

وبدأت أعرض عليه أسماء بنات أعرفهن، وأنا أقنع نفسي
بأنه فقط يريد أن يغيظني.. ثم قلت له وأنا أدعي اللامبالاة :

- ما رأيك في ابنة خالتي.. لقد عرفتك بها من قبل.

وقال :

■ حبيبى اصغر منى.. ■

- إنها حلوة.

قلت :

- وسنها مناسبة.. ثمانية عشر عاما.. أصغر منك بست

سنوات.

قال :

- فارق معقول.

قلت :

- وذكىة.. ومثقة.. وست بيت.

قال :

- ودمها خفيف.

قلت :

- سأكلم أمها.

وما زلت معتقدة أن صلاح يغيظنى.. لا يمكن أن يكون جادا
فى الزواج.. لماذا يتزوج.. إنه يستطيع أن يستغنى عن الزواج
كما أفعل أنا.

ولكن.. هل استغنيت أنا عن الزواج.
لا.

ولكنى كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أتزوج رجلا
يكبرنى كثيرا.. لا تقل سنه عن خمسة وأربعين عاما.. مركز..
وثررة.. وأخلاق.. رجل أستطيع أن أستقر معه، وأن تهدأ
حياتى معه.

ولكن صداقتى لصلاح كانت تؤجل تنفيذ قرارى يوما بعد
يوم.. فلماذا لا يؤجل هو الآخر قراره.
ولكنه يلح على لاتصل بخالتى.

وانتابتنى نوبة من العناد، والغطرسة الكاذبة. واتصلت فعلا

■ حبيبي اصغر مني.. ■

بخالتي، وعرضت عليها صلاح زوجها لابنتها «تيما».. دلع، فاطمة.

ورحبت به خالتي.

ورحبت به فاطمة.

وكاد الكمد يقتلني.. ولكني بقيت على عنادي، وغطرستي.. أقوم بدور الخاطبة لصلاح.. بل إنني دعوته ودعوت تيما وأمها على الشاي في بيتي.. بيت أهلي.

وأنا أنتظر في كل يوم أن يعدل صلاح عن رأيه.

ولكنه لم يعدل.

وهو يفوضني في السير في إجراءات الخطبة..

ويستعجلني !!

وقلت له والمرارة تشق حلقي :

– الرجال لا يؤمنون.. منذ شهرين فقط كنت تريد أن

تتزوجني أنا.

قال :

– أنت رفضت.

قلت :

– لأنني أكبر منك.. وزواجنا لا يمكن أن يدوم.

قال :

– معقول.

قلت :

– لقد اكتشفت غلطتك بدليل أنك تريد أن تتزوج الآن تيما..

تتزوج والسلام.. أي واحدة.

قال :

– الرجل في حاجة إلى الزواج.. والتوفيق بيد الله.. وأنا

■ حبيبي أصغر مني.. ■

أصغر منك، ولا أصلح لك.. وقد يوفقني الله مع تيماء.
قلت :

- فعلاء.. خير ما فعلت.

و..

وتحدد يوم إعلان خطبته إلى تيماء.
وأنا أتعذب.. وأطوى عذابى فى كبريائى الكاذبة.. وابتسامة
مرة أضعها على شفتى كلما رأيت صلاح.. وكلما رأيت تيماء..
ثم أبكى فى فراشى.. وأصحو ذابلة.. كل شىء فى يذبل..
عينائى.. شفطائى.. قلبى.. عقلى.. أعصابى.. لقد نقص وزنى
ثلاثة كيلو فى شهر واحد.

وصلاح يسألنى :

- ما بك.

وأرد فى كبرياء :

- لا شىء.. عاملة رجيم.

و..

وذهبنا أنا وصلاح نشترى دبلى الخطوبة..
انتقيت الدبلىتين بنفسى.. ودموعى مختبئة تحت جفنى.
ورفع الصائغ رأسه إلينا وسألنى :

- الاسم من فضلك.

وترددت قليلا.. ثم قلت :

- صلاح.

وعاد الصائغ يسأل :

- والاسم الثانى.

وفتحت شفتى.. ثم أغلقتها.. ودون أن أنظر إلى صلاح..
عدت وفتحت شفتى، وهمست فى صوت خفيض :

■ حبيبي أصغر مني.. ■

- شهيرة.
اسمى أنا.
وسمع صلاح همستي برغم خفوتها، وصرخ في الصائغ :
- شهيرة.. الاسم الثاني شهيرة.
ورفع إليه الصائغ عينيه كأنه يسأله لماذا هو فرح إلى هذا
الحد.. إلى حد الصراخ.
والنقط صلاح يدي وضغط عليها، وعاد يقول للصائغ في
هدوء :
- العروسة اسمها شهيرة.. والعريس اسمه صلاح..
والتاريخ تاريخ النهاردة.
ثم جذبني.
وسار بي كأنه يجري.
ودفعني في أول سيارة أجرة.. وذهب بي مباشرة إلى
المأذون.. كتبنا الكتاب.. بلا خطبة.. أغنتنا فترة الصداقة عن
فترة الخطوبة.
أتدري ماذا تقول خالتي.
إنها تقول إنني خطفت عريس ابنتها.
إنها لا تعلم شيئاً.
ولا تعلم أني أعيش خائفة.. الخوف يمزقني.. فحبيبي..
زوجي.. يصغرني بأربع سنوات.

استقالة عالة الذرة ..

سيدى الوزير.

صباح الخير.

هذا خطاب استقالة.. وكنت أستطيع أن أكتب

استقالتي فى كلمات قليلة.. «أرجو التفضل بقبول

استقالتي لأسباب خاصة، وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق

الاحترام».. وقد فكرت فعلا فى أن أرسل إليك استقالتي فى

هذه الكلمات القليلة، حرصا على الطابع الرسمى بين الوزير

وإحدى موظفات وزارته.. ولكنى تذكرت ما يمكن أن تسببه لك

استقالتي من ألم.. وتذكرت برقيتك التى أرسلتها إلى وأنا فى

أمريكا، بعد أن نلت شهادة الدكتوراه فى علوم الذرة من جامعة

هارفارد.. لم تكن برقية وزير، كانت برقية أخ كبير، وما زلت

أذكر كلماتها حتى اليوم : «عزيزتى عنايت، إنى فخور بك»..

كلمات ملأت قلبى بالفرحة.. أحسست أن مصر كلها فخورة

بى.. وأن كل من فى مصر أخ لى وأب وابن عم.. وكلهم

فرحون بى.. ثم تذكرت الحياة التى عشتها بعد أن عدت،

■ استقالة عائلة الذرة .. ■

وعينت في المعهد القومي للبحوث.. لم تكن حياة موظفين، كانت حياة تسودها روح العائلة الواحدة.. ربما لأن العلم يرفعنا جميعا فوق روتين الحياة الرسمية التي يعيشها الموظف العادي داخل جدران الوزارة.. وربما لأننا كعلماء نحس أننا أضعف بكثير من الكون الهائل الذي يسعى العلم لاكتشافه، فنشعر بحاجتنا إلى أن نقرب بعضنا من بعض، عقليا وعاطفيا، لتتساند ويحتمي أحدها بالآخر، حتى لا نضيع في هذا الكون الهائل.. وربما لأنك وأنت عالم كنت تنسى دائما أنك وزير.. فكنت معنا أخا وصديقا.

لذا.. لم أكن أستطيع أن أكتب استقالتى فى كلمات رسمية قليلة.. حقا على يتطلب منى أن أسرد لك كل مشكلتى.. بتفاصيلها.. إنها تفاصيل لا تهكم كوزير.. وربما أضحكك كعالم يستغرق العلم كل رأسه.. ولكنى واثقة أنها تهكم كأخ كبير.. وواثقة أنك بروح الأخ تستطيع أن تقدر وتفهم كل ما سأرويه لك.

تبدأ المشكلة يا أخى الوزير، منذ أن تزوجت.. وانتقلت أنا وزوجى إلى بيتنا الصغير فى عمارة السعودية المطلة على النيل.. لقد أحببت هذا البيت.. وضعت فيه كل أحلامى، وكل ذوقى، وكل حنانى ولكن البيت لم يشغلنى أبدا عن العمل.. كنت أنساه بمجرد أن أصل إلى المعهد وأرتدى المعطف الأبيض وأقف أمام مائدة البحث.. لا، لا.. لم أكن أنساه، ولكنى كنت أخبئه فى قلبى، وأترك قلبى ينام بين ضلوعى، ويبقى عقلى وحده صاحيا.. يعمل.. وتذكر سيادتك أنى كنت منكبة خلال هذه المدة على التجارب الخاصة بتأثير النظائر المشعة، فى علاج مرض تسوس العظام، وفى كل يوم.. فى الساعة الثانية

■ استقالة عالمة الذرة .. ■

تماما.. كنت أشعر بقلبي يستيقظ من نومه، ويأخذني من فوق العظام المسوسة، ويذهب بى إلى بيتى.. بيتى الذى أحبه.. ولم أكن أصل إلى البيت قبل زوجى، كما هو المفروض.. غالبا كنت أذهب بعده، برغم أن سيادتك أمرت بتخصيص سيارة لتوصيلنا إلى منازلنا.. ولم يكن زوجى يغضب.. أبدا.. فأنت تعرف أنه أستاذ الألكترونيات فى كلية الهندسة.. عقله واسع.. تلقى علومه فى سويسرا.. ويستطيع أن يقدر حلاوة الحياة التى يعيشها زوجان يشتغلان بالعلم.

وكنت أجده عادة، قد أعد المائدة ووضع الطعام، الذى طهوته فى الليل، على البوتاجاز، ليسخن.. ونضحك ونحن نأكل.. وأروى له ما وصلت إليه فى بحثى عن تسوس العظام، ويروى لى ما وصل إليه فى بحثه عن الألكترونيات.. ثم نقوم ونغسل معا الصحون والأواني.. ثم يخرج زوجى إلى الشركة التى يعمل مستشارا لها، بعد الظهر.. وأعود أنا إلى المعهد.. ولم يكن نظام العمل يضطرنى إلى العودة إلى المعهد، ولكنى كنت متحمسة لأن أنتهى من بحثى، حتى أجعلك تفخر بى مرة ثانية، كما افتخرت بى يوم ثلت الدكتوراة بدرجة امتياز.

هكذا كنت أعيش أنا وزوجى.

لم أفكر أيامها فى أن أستأجر خادمة.. أبدا.. كنت أخاف على بيتى من الخدامات.. ولم أكن فى حاجة إلى خادمة.. كنت أفضل أن أعيش على نمط الحياة العائلية فى أمريكا.. أنا وزوجى نتعاون فى خدمة أنفسنا.. وفى كل يوم جمعة كنت أدعو البواب ليعاوننى فى تنظيف البيت نظافة كاملة.

إلى أن حملت يا سيادة الوزير.

هل رفعت حاجبك وأنا أحدثك بهذا الكلام.. لا تنس أنى

■ استقالة عاملة الذرة .. ■

امراة.. صحيح أنى أشتغل فى علوم الذرة.. وصحيح أنى نلت الدكتوراة.. وصحيح أنى قضيت ثلاثة أرباع عمرى بين الكتب والمعامل.. ولكن كل هذا لا يعنى أنى لست امراة.. لا يعنى أنى أصبحت عقلا الكترونيا.. ولا يعنى أنى أصبحت رجلا، مثلك، أو مثل زميلى الدكتور عوض.

إنى امراة.. ولأنى امراة رفضت أن أستعمل أى دواء يمنع الحمل. برغم أنى قدرت أن الحمل قد يشغلنى عن انهماكى واندفاعى فى بحث تأثير النظائر المشعة فى علاج تسوس العظام.

أتدرى ماذ كان أول ما فكرت فيه بعد أن حملت ؟
خادمة.

لم أكن أستطيع أن أضع أى تنظيم لحياتى بعد الوضع، دون الاستعانة بخادمة.. ولم أكن أتصور أن الخادمة يمكن أن تكون مشكلة.. أبدا.. لم أكن أتصور هذا.

وكنت حاملا فى الشهر الخامس عندما أوصيت البواب أن يبحث لى عن خادمة.. أو على الأصح مربية.. وقد مضى أكثر من أسبوع دون أن يرسل لى البواب أحدا.. وعدت أسأله، فقال وهو يهز رأسه فى أسى :

- أصلهم عزاز قوى اليومين دول يا ست هانم.
ولم أصدقه.. اعتقدت أنه كسلان.. وبدأت أوصى زملائى، وأقرب زوجى، أن يبحث لى كل منهم عن مربية، أو خادمة.
وأخيرا. بعد شهر.. جاءتنى زينب.. امراة فى الثلاثين من عمرها.. ضاحكة الوجه.. مليئة بالصحة والعافية.. نشطة.

وفرحت بها.
عاملتها، أحسن مما يعامل أصحاب الملايين الأمريكان

■ استقالة عائلة الذرة .. ■

خادماتهم.. أعددت لها سريرا فى الحجرة التى أعدتها للمولود المنتظر.. وخصصت لها أربع ملاءات سرير، لتغيرها فوق سريرها.. و.. لن أضيع وقتك يا سيادة الوزير، فى هذه التفاصيل النسائية.. ولكنى كنت أعامل زينب، كأنى رزقت بها قبل أن أرزق بطفلى.. وأعدها لتحمل معى الأمانة الكبيرة.. أمانة تربية الطفل.

وعاشت معى زينب شهرين.. وفى كل يوم أثق فيها أكثر، إلى درجة أنى سلمتها كل مفاتيح البيت.. وكنت أعود من المعهد لأجد كل شىء معدا لى ولزوجى.. كأنى أعددتة بنفسى.. بل إنى تحسرت على الأيام التى ضاعت من عمرى قبل أن تدخل زينب بيتنا.

وفى يوم.

خرجت زينب فى اجازتها الأسبوعية لتعود فى اليوم التالى.. ولكنها لم تعد.. ومر اليوم الثانى والثالث ولم تعد.. وارتعش قلبى.. لم أعد أستطيع أن أنيمه بين ضلوعى، ليتفرغ عقلى للبحث فى تأثير النظائر المشعة على مرض تسوس العظام.

ثم عادت زينب.

عادت لتبلغنى أنها لن تعود.

— ليه يا زينب؟

وأجابت وهى خجلة من بشاعة الجرم الذى ترتكبه فى

حقى :

— أصل جوزى رجعتى يا ستى.

قلت وأنفاسى تتلاحق :

— وماله يا زينب.. ما يرجعك وتفضلى برضه معانا.

■ استقالة عامة الذرة .. ■

وخبطت على صدرها قائلة :
- يا خير يا ستي.. أنا جوزى ما يرضاش أنى أشغل أبدا..
ده أسطى مكوجى قد الدنيا.
وقلت، وأنا أتوسل لها بعينى :
- وهو الشغل عيب يا زينب.. مانا باشتغل أنا كمان.
وقالت زينب :
- لأى يا ستي.. مش ممكن.. أنا جوزى حاجة ثانية غير
البية بتاعك.
وغلبت فى إقناعها.. إلى أن قلت فى ياس :
- طيب خليكى لغاية ملاقى واحدة ثانية.
وقالت :
- معلش والنبي يا ستي.
قلت :
- بس الأصول أنك تدينى إنذار، القانون بيقول كده.
ونظرت إلى كأنها تتحفز للدفاع عن نفسها :
- قانون إيه يا ستي.. أنا لا سرقت، ولا قتلت.
و...
ولا أطيل عليك يا سيادة الوزير.. خرجت زينب من
خدمتى.. هل يمكن أن تشعر بما شعرت به يوم خرجت زينب..
لا.. فأنت لست امرأة.. لعل السيدة زوجتك تستطيع أن تقدر
حالى.. حالة زوجة صغيرة على وشك الوضع تركتها خادمة
مثالية.
وبدأت أبحث عن خادمة أخرى.
كانى أبحث عن كنز من كنوز الفراعنة.
وبعد أسابيع أرسلت لى زوجة ابن عمى خادمة.. عصمت..

■ استقالة عالمة الذرة .. ■

ولم أسترح لعصمت منذ رأيتها.. كانت فى العشرين من عمرها.. تحس بجمالها.. ونظراتها وقحة.
وبعد يومين بدأت تختفى أشياء صغيرة.. قلم روج.. فوطة.. قميص.. كرافتة.. وبعد أسبوعين قررت أن تختفى عصمت من حياتى.. طردتها.

ثم أرسلت لى أمى من الأسكندرية مربية عجوزا.. أم سنية.. واسترحت لها فى بادئ الأمر.. ولكنها كسولة.. غبية.. قدرة عملت طول حياتها فى بيوت لا تهتم اهتمامى بنظافة بيتى ودقة نظامه.. ووجدت نفسى بعد أيام أنظف وراءها.. طبق طعامها الذى تلقىه فى الحوض وتتركه ساعات قبل غسله.. ثيابها المبللة دائما التى تفوح منها رائحة العطن.. وكانت تأكل كثيرا.. لم أر فى حياتى يا سيادة الوزير عجوزا تأكل كل هذا الأكل.. وأنا لست بخيلة.. ولكن هذه المرأة تأكل بلا نظام.. تأكل كلما وجدت شيئا تأكله.

وتقزنت منها نفسى.

وطردتها.

ثم وضعت ابنتى.

وضعتها وليس عندى مربية أو خادمة.

وتذكر سيادتك أنى أخذت أيامها إجازة شهرين، قضيتها وأنا أفكر كيف أدبر حياتى وحياة ابنتى، فى الوقت الذى أعمل فيه بالمعهد القومى للبحوث، وأنفرغ بعقلى لعلاج تسوس العظام بالنظائر المشعة.

وكنت أقدر عملى.. لم يكن عملى مجرد مساهمة منى فى نهضتنا العلمية، بل كان هوايتى.. كان حياتى.
وابنتى أيضا حياتى.

■ استقالة عالمة الذرة .. ■

وفكرت.. فكرت كثيرا.
فكرت أن أرسل ابنتى إلى أمى فى الاسكندرية لتربيتها..
ولكنى أم يا سيادة الوزير.. ولا تستطيع أم أن تتنازل عن
ابنتها حتى لأمها.
فكرت أن أقنع أمى بأن تأتى وتقيم معى فى القاهرة.. ولكن
مستحيل.. لا أستطيع أن أربك حياة أمى إلى هذا الحد.
فكرت أن أضع ابنتى فى دار من دور الحضانة.. ولكن أين
هى دار الحضانة التى أستطيع أن أضع فيها طفلة فى شهرها
الثالث، وأنا مطمئنة.. ليس عندنا دور حضانة.
فكرت أن أطبق نظام «رعاية الأطفال» أو «البيبي سيتر»
المطبق فى أمريكا.. ولكننا فى مصر، ولسنا فى أمريكا..
فكرت.. فكرت.. وكان كل تفكيرى منحصر فى تدبير حياة
ابنتى، بحيث أتفرغ لرسالتى الكبرى.. رسالة استغلال الذرة
فى سبيل سعادة الإنسان.
ولم يهدنى تفكيرى إلا إلى أن أعود وأبحث عن مربية من
جديد.
وجاءت.. سعيدة.. شابة سمراء مدربة.. فرحت بها، كما
فرحت بزينب.. ومنذ اليوم الأول اطمأنتت على ابنتى بين
يديها.. ودفعت لها الأجر الذى طلبته.. كنت قد قدرت لها
خمسة جنيهات، ولكنها طلبت سبعة.. ودفعت لها السبعة..
وقطعت إجازتى.. وبدأت أذهب إلى المعهد.. صحيح أنى لم أعد
أستطيع أن أتفرغ بكل عقلى للبحث الذى أقوم به.. ولكنى كنت
مطمئنة.. مطمئنة على ابنتى بين يدي سعيدة.
ولكن.
بعد شهر واحد.

■ استقالة عائلة الذرة .. ■

شهر واحد يا سيادة الوزير.. عادت سعيدة من يوم إجازتها
وطلبت حسابها لتخرج من خدمتى :
وصرخت :

- ليه يا سعيدة.. حد زعلك.. ناقصك حاجة.
وقالت :

- أبدا يا مدام.. بس الجماعة اللى كنت عندهم عايزينى
تانى.. وأنا الحقيقة متربية عندهم.
ولا أمل.

وقال لى البواب بعد أيام إنها لم تذهب إلى بيت مخدموها
السابق، بل ذهبت لتعمل فى العمارة المجاورة، عند عائلة رفعت
أجرها إلى تسعة جنيهات.
وعدت وانقطعت عن العمل لأجلس مع ابنتى.

فكرت أيامها أن أطلب منك أن تسمح لى بأن أعمل بعد
الظهر، حتى أبقى مع ابنتى فى الصباح إلى أن يعود زوجى،
فأتركها له وأذهب إلى المعهد.. ولكن.. مستحيل.. مستحيل أن
أطلب من زوجى أن ينقطع عن عمله فى الشركة التى يعمل
فيها بعد الظهر.. ثم أنها مسئوليتى أنا، وليست مسئولية
زوجى.

وبدأت أستقبل خادمات جددات.
فتحية.. كانت صريحة.. لم تبق إلا ثلاثة أيام، ثم جاءت إلى
واعترفت أنها كانت متقدمة بطلب للعمل فى مصنع.. وقد قبل
طلبها.

وخرجت.

ثم أخيرا.

خديجة.

■ استقالة عائلة الذرة .. ■

كانت خديجة صغيرة.. فى الثامنة عشرة.. حطوة إلى حد
أنى غرت من جمالها.. وجاءت إلى تليس بلوفر «موهير» وجيب
ترجال، وحذاء فرنى بكعب عال.. كلها مظاهر تخيفنى منها..
ولكن لماذا أخاف.. إن الخادومات فى أمريكا بيدون أكثر أناقة..
ثم إن خديجة لها ابتسامة تفتح القلب.. وقد فتحت قلبى..
ومرت أيام، وأنا لا آخذ على خديجة إلا كثرة تطلعها فى
المرأة.. وكثرة وقوفها فى شرفة البيت.. ولكنها كانت حنوناً
على ابنتى.. وكانت تعرف كيف تداعبها.. وكيف تجذب النوم
إلى عينيها.

وبدأت أواظب على الذهاب إلى المعهد..
ولكنى لم أكن مطمئنة.

أصبحت أعمل بنصف عقلى.. أحياناً بربع عقلى.. وأحياناً
يضيع عقلى كله، وأسرح وراء ابنتى.. وأتساءل.. هل ناولتها
خديجة رضعة الساعة الثانية عشرة.. هل هى بجانبها الآن..
هل.. هل.

وفى يوم.

كنت فى المعهد.. وكنت منكبة فوق الميكروسكوب أفحص
العظام المسوسة.. وفجأة شعرت بنغزة فى قلبى.. قلب الأم..
شعرت بأن شيئاً قد حدث لابنتى، ولم أحاول أن أتساءل عن
سر هذا الشعور.. لم أحاول أن أكذبه.. وقفت جامدة برهة.. ثم
انطلقت وأنا ما زلت ارتدى المعطف الأبيض، وجريت إلى خارج
المعهد، وركبت تاكسى وعدت إلى البيت.. والهلع يشتد فى قلبى
دقيقة بعد أخرى.. وأصرخ فى السائق :

- قوام من فضلك يا أسطى.

إلى أن وصلت.

■ استقالة عالمة الذرة .. ■

وجريت إلى المصعد.
 وجريت من المصعد إلى داخل الشقة.
 وسمعت شيئاً كالصراخ.. صراخ ضعيف.. ووضع الصراخ
 فى أذنى وأنا أقترّب من غرفة ابنتى.. ابنتى تصرخ.
 ورأيتها.
 واقعة من فوق سريرها على الأرض.
 والحمد لله لقد كان تحت السرير سجادة سمكية، وإلا كان
 رأسها قد تهشم.
 وانحنيت عليها ملهوفة.. جزعة.
 الحمد لله.. سليمة.
 ولا أدري ما حدث لى.. ولكنى تركت ابنتى على الأرض،
 لم أرفعها لأضعها على السرير، وجريت كالمجنونة أبحث عن
 خديجة.. ووجدتها واقفة على سلم المطبخ مع شاب يبدو عليه
 أنه طالب.. وقبل أن أفكر.. وجدت نفسى أندفع إليها وأرفع
 ذراعى وأنهال عليها ضرباً، وأنا أصيح :
 - يا مجرمة.. يا مجرمة.. أمشى اطلعى برة..
 اطلعى من بيتى
 وجرى الشاب من أمامى.
 وخرجت خديجة من بيتى.
 حدث هذا أمس.
 واليوم أجلس لأكتب لك هذا الخطاب.
 لأستقيل.
 سيدى الوزير.
 أرجوك.. لا تحاول أن تذكرنى بواجبى نحو بلدى، ونحو
 نهضتنا العلمية.. ولا تذكرنى بالسنين الطويلة التى قضيتها

■ استقالة عالمة الذرة .. ■

لأجعل من نفسي إنسانة تستطيع أن تخدم وطنها فى مجال
لم يتسع بعد لكثير من المواطنين، لا تذكرنى بالسلام.. وتقدم
الإنسان.. فإنك لا تستطيع أن تضع كل ذلك فى كفة ثم تضع
ابنتى فى الكفة الأخرى.. وتجعلنى أختار.. مستحيل.. إنك
تنسى أنها ابنتى.. وأنى أم.. وقد أستطيع أن أستقيل من
واجبى كعالمة فى الذرة، ولكنى لا أستطيع أن أستقيل من
واجبى كام.

والذنب ليس ذنبى.. إنه ذنب الدولة.. ذنب المجتمع.. إن
الدولة عندما تشتري آلة جديدة فإنها تخصص لها عمالا
يعاونونها على العمل.. واعتبرنى آلة.. ولكن عندما بدأت هذه
الآلة تعمل لم تخصص لها الدولة عمالا يساعدها حتى تؤدي
عملها على الوجه الأكمل.

الدولة لا تستطيع أن تطالبنى بالعمل إلا إذا طمأنتنى على
راحة ابنتى.. وحياتها.

وأرجوك يا سيادة الوزير.. أرجوك إذا صممت على أن
ترفض استقالتى، أن تبحث لى أولا عن مربية لطفلتى، وتضمن
لى أن أطمئن عليها.
وتفضل أيها الأخ الكبير بقبول خالص تحيتى.

كلام ستات

لا أدري لماذا قررت أن أعمل « رجيم » .. إنى
لست سميئة .. ومدام أسبريدون الخياطة تقول
إن قوامى يجن ، وإنى أصلح لأكون موديلاً ..
مانيكان .. وإنها تعتبر كل ثوب تصنعه لى دعاية ☐
لها .. وحتى لو كانت مدام أسبريدون تتافقنى .. فإنى
أستطيع أن ألع جمال قوامى فى عيون الرجال إذا استثنيت
زوجى .

وبرغم ذلك قررت أن أعمل رجيماً .. ربما لأنه لم يكن لى
شئ آخر أعمله .. وكان من ضمن الرجيم أن أمشى فى كل
يوم ساعة .. لتنشيط الدورة الدموية .. ولم أكن أستطيع أن
أمشى وحدى .. ولا مع زوجى .. فى قدم زوجى كالأو
ولا يجب المشى .. فاتفقت مع صديقتى ، روحية وأنجى ، أن
نمشى معا .. كل يوم .. ابتداء من الساعة الثالثة بعد الظهر
حتى الرابعة .. فى الشمس الدافئة .

روحية رفيعة .. ومشاكلها كثيرة .. وربما وافقت على

■ كلام سنات ■

ممارسة رياضة المشى ، كرجيم لعقلها أكثر منه رجيما لجسدها .

وأنجى .. تعتقد فى نفسها أنها جميلة ، يابختها فالمرأة التى تعتقد فى نفسها أنها جميلة امرأة سعيدة ولم تكن أنجى أيضا فى حاجة إلى رجييم .. وربما لم تكن تحب المشى .. ولكنها قطعا تحب الاستعراض !!

وأنا أحب روحية وأنجى .. إنهما أعز صديقاتى .. ونحن الثلاثة نشير حسد كل النساء ب صداقتنا والحب المتبادل بيننا .. كل منا تعرف عن الأخرى كل شىء .. بل إنى أستطيع أن أقلد شخير زوج روحية وهو نائم ، وأستطيع أن أعرف النقود التى يحملها زوج أنجى فى جيبه كل صباح .. إنها تعطيه كل صباح خمسين قرشا .. كمصروف خاص .. وهما لا يعرفان عنى أى شىء .. لا لأنى أتعمد أن أخفى عنهما شيئا .. ولكنى لا أحب أن أتحدث عن حياتى الخاصة .. كل ما يعرفانه هو الكالو الذى يتألم منه زوجى .

المهم ..

خرجنا فى اليوم الأول .. كنت ارتدى ثوبى البرتقالى الصوف .. صوف مصرى ، وكأنه صنع باريس .. كل صديقاتى اعتقدن أن زوجى اشتراه لى من باريس .. مدام اسبريدون الخياطة أيضا .. برغم أنها تعتبر خبيرة فى الأقمشة، اعتقدت أنى اشتريته من أوربا .

وكانت روحية ترتدى الجيب الأسود الذى أراه عليها منذ عامين .. جيب ترجال .. لا أدرى كيف تطيقه كل هذا العمر .. وبلوزتها الخضراء .. والجاكت الجلد التى تبدو فيها كسائق

■ كلام ستات ■

الأتوبيس .. غلبت فى أن اجعل روحية تهتم بثيابها .. إنها بخيلة .. ولا تشتري إلا ما يحتمل السنين .. ولكنها طيبة والنبي .. إنى أحبها .

وهلت علينا أنجى وهى ترتدى بنطلون « سترتش » لونه أحمر ، ويلوفر أسود .. والنبي ده كلام .. ده احنا طالعين سبور .. مش رايعين حفلة .. يبقى لازمة البنطلون إيه .. ولكن هكذا أنجى .. إنها تعتبر نفسها صغيرة .. نونو .. مع أنها ليست أصغر من ابنة خالتي عدلية .. إلا بستة أشهر .. ولكن أنجى دمها خفيف .. إنى لا أستطيع أن أستغنى عنها يوما واحدا .. حبيبتي .. صاحبتى .

وقد صحبت معى كلبى روك .. ليمشى معنا .. إن المسكين محبوس فى الشقة طول النهار والليل .. حرام .. وقد قالت لى روحية بمجرد أن رأت روك :

– ولازمة روك إيه .. عامل رجيم هو راخر .
وأجبتها :

– علشان يبقى معانا راجل على الأقل !!
إنى سريعة النكتة .

وبما أنى صاحبة فكرة الرجيم ، فقد بدأت أدرب روحية وأنجى على طريقة المشى الرياضى .. افردى ظهرك .. اشفطى بطنك .. ارفعى رأسك .. وأحكمت وضع نظارتى على عيني .. وبدأنا نسير نحن الثلاثة ، كثرلاث فداثيات .. إن النظارة تجعل لى شخصية قوية .. وأنجى تغار من نظارتى .

وكنا قد اخترنا أن نمشى فى شارع النيل ابتداء من عمارة أبر الفتوح حتى كوبرى عباس .. إن صديقتى عزة حرم محمد

■ كلام سنات ■

فهى مدير شركة الصاروخ ، تسكن فى عمارة أبو الفتوح ..
وقد اشترت خاتما من عند باروخ فى الأسبوع الماضى ، وقالت
إنها اشترته بثلاثمائة جنيه .. عزة تحب المبالغة .. إنها لطيفة
ومهذبة ، ولكن عيبها هو المبالغة .. وقد ساومت باروخ منذ
شهرين على نفس الخاتم وطلب فيه مائة وخمسين جنيها ،
ولكنى لم أشتريه ، لأنى سبق أن رأيت مثله فى إصبع فريدة
هانم .. ولكن روحية تقول إن عزة لم تشتري الخاتم ، ولكنها
أخذته هدية من صديقها عبد العزيز .

- حرام عليكى يا روحية .

وقالت روحية وهى تمشى مشية الفدائيات :

- حرام ليه يا أختى .. الحق يتقال .. وعزة مزوداها حبتين
.. دى ما بتحترمش جوزها أبدا .. زى ما يكون مش عايش
معاها ..

وقالت أنجى :

- دمه ثقيل عبد العزيز ده .. وعنيه لا يده على الستات ..
ده ما يبطلش بص .

إن أنجى تعتقد أن كل رجل يطمع فيها ، حتى أزواج
صديقاتها .. وحتى أصدقاء صديقاتها .. يا بختها .. إنى لست
مغرورة ، ولكنى أحيانا أحسد المغرورات .
وقلت :

- حرام عليكى يا أنجى .. ده راجل مؤدب ، وما بيرفعش
عينه عن الأرض .

وقالت أنجى وهى تنظر فى نظارتى :

- صدقيني .. أنا عارفاه كويس ، ومستعدة أحكى عنه

■ كلام سترات ■

للصبح .. بس انتى اللى ما بتخديش بالك .
وقالت روحية :
- سيبكم من عزة وعبدالعزيز .. تعرفوا اللى حصل
لخديجة .
وقالت أنجى :
- مين دى خديجة ؟
وقالت روحية :
- خديجة شكرى :
وقالت أنجى :
- أه قصدك دودى .. مالها .. حصل لها إيه .. دى صاحبتى
قوى .
وقالت روحية :
- مش اكتشفت أن جوزها واخد شقة لواحدة طليانية .
وقالت أنجى :
- السافل .. كل الرجاله كده .
وقلت :
- يا روحية .. خافى ربنا .. بلاش سيرة الناس .
وقالت روحية :
- آمال حانتسلى فى إيه .. وأصل دى حاجات ما ينسكتش
عليها .
وقالت أنجى :
- على كل حال دودى ما عملتش شوية .. هى المحقوقة ..
ده كان جوزها لازم يطلقها من زمان .. وأهو بدل ما يطلقها ،
عرف عليها .

■ كلام سترات ■

ومرت بجانبنا سيارة فيها بعض الشبان .. يبدو أنهم من
طلبة الجامعة واحد منهم شعره أصفر .. والثاني تخين وشكله
مضحك .. والثالث جالس على حافة نافذة السيارة وجسمه
خارج منها .

وصاح الأشقر :

- البنطلون الأحمر يكسب .

وابتسمت أنجى .

إن أنجى لا تستطيع أن تمشى مشية رياضية .. إنها تمشى
كأنها فى عرض أزياء .. وبنطلونها يبرز كل قطعة من
جسدها .. عيب .. ما يصحش .. وبرغم أنها طيبة ، ودمها
خفيف ، إلا أنها أحيانا تزودها حبتين .

إنى لا أطيق الشبان الشقر .. إنهم أقرب إلى البنات .

وعادت روحية تقول :

- وتعرفوا خديجة عملت إيه .. راحت بنفسها على الشقة ..

وهجمت على البنت الطليانية ونزلت فيها بأديها ورجليها ..
ماخلتش فيها .

وقالت أنجى :

- يائى ..

وقلت :

- تبقى غلطانة .. كان لازم تحترم نفسها .. ثم إن الست

ذنبتها إيه .. الذنب ذنب الرجل .. والحساب يبقى مع الرجل .

وعادت روحية تقول :

- ما هى حسنية كانت أعقل يوم ما ظبطت جوزها ..

تعرفوا عملت إيه .

■ كلام ستات ■

وارتفع صوت رجل من ورائها يقول :
- أموت فى الشيش بيش .
إنى أحترق الرجل الذى يتلف على قوامى .. إنى أعرف أن
قوامى مثير ، ولكن الرجل يجب أن يضبط أعصابه .. ولكن ..
كيف رأى هذا الرجل نظارتى وهو يسير خلفنا .
وحيرنى هذا السؤال .
وقالت روحية :
- يوم ما حسنية عرفت أن جوزها .
وقبل أن تتم ، انطلق كلبى روك يجرى وراء قطعة .
وصرخت :
- روك .. روك .. تعالى هنا .. با أقولك تعالى هنا .
وصاح الرجل الذى يسير وراءنا .
- ماتزعليش يا قطعة .. الكلب حايرجع لك .. كل الكلاب
تحت أمرك .
وفجأة وقفت بجانبنا سيارة .. وأطل منها وجه رجل ، وقال
مبتسما :
- أنجى هانم .
وشهقت أنجى ، ثم التفتت إلينا وقالت فى ارتباك :
- ده محمود ابن عمى .
وقالت روحية وهى ترفع حاجبها الرفيع :
- ابن عمك من أمتى !
وقالت أنجى :
- اخص عليكى ياربرى ، مش مصدقانى .. تعالوا أعرفكم
بيه .

■ كلام سيات ■

وقلت :

- لا .. لا يا أنجى .. أنا ماحبش أتعرف بحد فى الشارع .
وقفزت أنجى نحو السيارة وصافحت الرجل المبتسم ،
وأخذت تتحدث معه .

إنه رجل عجوز .. أكبر من أنجى بكثير .. وإن كانت روحية
تؤكد أنه لا يتجاوز الأربعين من عمره .

وعادت أنجى إلينا بعد حديث طويل .. وقالت :
- عن إذناكم يا جماعة .. محمود بيقول إن مرات عمى عيانة
قوى ، ولأزم أروح أقعد جنبها .
وقلت فى حدة :

- احنا ما اتفقناش على كده يا أنجى ..
وقالت أنجى :

- وأنا إيه كان عرفنى أن مرات عمى عيانة .. ده محمود
كان جاى لى البيت دلوقتى ، علشان يقول لى .
وقالت روحية :

- حلال عليك يا ستى .
وقالت أنجى ضاحكة :

- لا والنبى يا روحية .. ماتبقىش وحشة أمال .. أنا بعد
نص ساعة حاكون فى البيت .. يدوبك أطل على مرات عمى
وأرجع على طول .

وقفزت أنجى فى السيارة بجانب الرجل المبتسم .
ومشيت أنا وروحية .. مشية رياضية .. الظهر معتدل ..
والبطن مشفوط .. والرأس مرفوع .. وبيننا صمت ووجوم .
وعاد روك من وراء القطة ، وسار بجانبى .

■ كلام ستات ■

وقطعت روحية الصمت قائلة :

- بأه دى عمايل تعملها أنجى .
وقلت لها :

- ما انتى عارفة أنجى يا روحية .. يعنى مش عارفاها ..
وقالت روحية :

- بس مش كده .. طيب ده أنا ممدوح قعد يتحایل على فى
التليفون إنه ييجى يتمشى معانا ، مارضيتش .. قال لى إنه
حايمشى ورانا بالعربية برضه مارضيتش ، قلت له إن شفتك
مش حايحصل لك طيب .. أصل كل حاجة ، لها أصول ..
الواحدة ما تكونش بالشكل ده .
قلت :

- إنتى لسه بتعرفى ممدوح .
قالت :

- أعمل إيه .. مش راضى ينكشع أبدا .. مش سايينى
أتنفس لوحدى .

والرجل لا يزال يسير خلفى ، وقال بعد أن كح كحة غليظة :
- أجيب تاكسى أنا كمان .
وقلت لروحية :

- شفتى الراجل بيقول إيه .. طبعاً .. بعد ما شاف اللى
عملته أنجى ، من حقه يتجرأ علينا .
وقالت روحية :

- إنما تعرفى أن ممدوح مخلص صحيح .. ده شاف منى
الويل .. وبرغم كده مخلص .
قلت :

■ كلام سترات ■

- بس إنتى حقت تعقلى بأه يا روحية .. ده ضفر جوزك بعشرة زى ممدوح .

وقال الرجل الذى يسير خلفى :

- يعنى لازم أجيب عربية ملاكى .. بكرة ربنا يفرجها .. أنا موظف فى وزارة التموين .. وكلها شهرين وأكمل حق عربية نصر ١١٠٠

وقالت روحية :

- ومين قال لك إننى أقدر أستغنى عن جوزى .. حقه مالكىش حق .. إنما أعمل إيه .. ما هو كمان قاعد فى مكتبه ليل ونهار .. ويخرج سرحان ، ويرجع سرحان .

وقال الرجل الذى يسير خلفى وهو يصفر لروك :

- روك .. روك .. تعالى أما أقول لك كلمة تقولها لستك ..

وإذا بروك يذهب إلى الرجل فعلا .

والتفت خلفه وأنا أصيح فى عصبية :

- روك تعالى هنا .

ولكن روك يلحس يد الشاب ، ويهز له ذنبه .

وقال الشاب وهو يرفع إلى عينيه :

- أنا نفسى أصاحب روك .. عندك مانع .

وقلت فى حدة :

- من فضلك .. أنا ما أعرفكش .

ثم استدرت للشاب ، وقلت لروحية :

- ياللا بينا نرجع يا روحية .

إنه شاب صغير .. لا يزيد على الثانية والثلاثين .. وهو يضع نظارة مثلى .. ولكن نظارته أسمك بكثير من نظارتى ..

■ كلام سنات ■

وعيناه تطلان من خلفها ، كأنهما نجمتا الصباح .. وشاربه
صغير أنيق .. ولكن حلتها لا تعجبني .. ذوقها بلدى .. وكرافتته
تقرف .. ويشبك فيها دبوسا .. إني أكره الرجل الذى يشبك
دبوسا فى كرافته .



وعدنا إلى البيت ..
وقد اتصلت بأنجى بمجرد وصولى فلم أجدها قد وصلت
إلى بيتها .. واتصلت بها بعد ساعة أخرى فلم أجدها قد
وصلت .. وفى الساعة الثامنة مساء اتصل بى زوجها فى
التليفون وقال فى ضيق :
- أنجى عندك ..
وبلعت ريقى وقلت :
- كانت عندى هى وروحية ، ولسه نازلين دلوقتى ..
زمانها جاية لك .. أصلنا خرجنا نتمشى علشان الرجيم ،
وبعدين عزمتهم على الشاى عندى .. وازيك يا رحمى بيه ..
أخبارك إيه .

وقال رحمى بيه :
- كويس .. بونسوار بآة .
ووضع السماعة ..
إنى أكره نفسى عند ما اضطر أن أكذب .. وأنجى تضطرنى
دائما لأن أكذب .

وفى اليوم التالى خرجت لأتمشى أنا وروحية .. لم نأخذ
أنجى معنا .. حتى لا ييوظ الرجيم .. بل إنى من يومها قاطعت
أنجى .. تصوروا .. أنها تضيع عنى فى كل مكان أنى أحب

■ كلام ستات ■

موظفا فى وزارة التموين .. يضع على عينيه نظارة .. ويشبك
فى كرافتته دبوسا .. وعنده سيارة نصر ١١٠٠ .. بل إنها
تقول إنى أنا الذى اشتريت له السيارة .
أعمل فيها إيه يعنى .
ربنا يسامحها .



المفهرس

الصفحة

٥	علبة من الصفيح الصدىء
٤٤	كل هذا الحب
٦٤	الله .. الله .. يا ست
٧٢	المدرسة الحديثة
٨٠	غاية من السيقان
٩٥	عبد الله .. وفاطمة
١٠٥	كل هذا الجمال
١١٥	اكتشاف الألومنيوم
١٢٦	الهزيمة
١٤٠	لا تذبحوا الفراخ
١٥١	صائد الغزال
١٦٢	القضية الأخيرة
١٧٢	الحب والعدالة
١٨١	وسام للمتهم
١٨٩	غلطة حبيبي
١٩٩	العقل الكبير
٢٠٧	أزمة المثقفين
٢٢٠	حبيبي أصغر مني
٢٣١	استقالة عالمة الذرة
٢٤٣	كلام ستات

رقم الإيداع ٩٩/٧١٣٤

الترقيم الدولى

I. S. B. N.

977 - 08 - 0823 - 7

طبع بمطابع دار أخبار اليوم



طبع بمطابع اخبار اليوم